سلسلة الإصدارات العلمية ١٩

المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف

مسيرة ألف عام

تأليف

الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

الدكتور محمد حسين علي الصغير

منشورات

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

مركز كربلاء للدراسات والبحوث

المرجعية الدينية العليا
في النجف الأشرف
مسيرة ألف عام

المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف

مسيرة ألف عام

تأليف
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة
الدكتور محمد حسين علي الصغير

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
مركز كربلاء للدراسات والبحوث

الكتاب: المرجعية الدينية العليا في النجف الاشرف
مسيرة ألف عام

المؤلف: الدكتور محمد حسين علي الصغير

الناشر: مركز كربلاء للدراسات والبحوث

الطبعة: الأولى

السنة: ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

جمهورية العراق/ كربلاء المقدسة

00964 7719491210
00964 7814187625

www.c-karbala.com

info@c-karbala.com
karbala.center1@gmail.com
karbala.center1@yahoo.com

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد (٣٩١) لسنة ٢٠١٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

للمرجعية الدينية موقع مهم ومتميز على امتداد تاريخ أتباع أهل البيت عليهم السلام، بل يمتد هذا الموقع الى مساحات أوسع في العالم الإسلامي ككل، ولا نبالغ اذا قلنا ان اشعاعاتها تلقي بظلالها على الوضع العالمي والإنساني ، ولا غرابة في ذلك اذ انها الامتداد الطبيعي للأئمة الأطهار عليهم السلام، وهي النائبة عن الامام المعصوم في عصر الغيبة، من هنا فقد شكلت الحصن الحصين الذي يحوط المؤمنين فيحول بينهم وبين الانحراف والانزلاق عن الصراط القويم .

لقد شكلت المسيرة الطويلة للمرجعية الدينية في الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية، والسيرة النقية المعطرة بالزهد والورع والعدالة والتقوى علامات فارقة في تأريخ المرجعية الدينية في النجف الأشرف بنحو جعل المرجع الديني يجسد حقاً وفعلاً ذلك الشخص الذي يمثل حلقة الوصل بين الامام المعصوم والأمة في ضوء المهام والمسؤوليات الجسام التي ينهض بها المرجع الديني لاسيما من ارتفع شأنه عمن سواه وعلا كعبه فاصبح من الطراز الأول فلم يقف جهده عند الاجتهاد والإفتاء والتدريس، والعبادات والمعاملات وغيرها من المسائل الابتلائية، بل يتعدى ذلك الى الرعاية والاهتمام بمصالح المجتمع عموماً، والدفاع عن حقوق الأمة، واتخاذ المواقف الحاسمة عند الضرورة تجاه القضايا المهمة والمصيرية.

لقد زخرت الحوزة العلمية في النجف الأشرف بالكثير من المراجع العظام الذين تطاولت على مدى الدهر أسماؤهم وآثارهم واصبح لا مناص من الرجوع الى تلك

الآثار التي غدت مصادر للعلم في مختلف مراحل الدراسة والتدريس في الحوزة العلمية، ولابد لكل باحث ان يقف عند هؤلاء الاعلام حينما يمر على تاريخ النجف الأشرف وحوزتها ومرجعيتها العتيدة .

لقد تطرق الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين علي الصغير في كتابه الذي بين أيدينا (المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف .. مسيرة الف عام) الى مسيرة هذا الصرح الشامخ والظروف والمنعطفات التي مرّ بها، وحيث أنه ذو باع طويل في تقصي أحوال مدرسة النجف الكبرى، وأن ما يدره قلمه في هذا المجال سيكون لا محالة موضع فائدة واقبال بالنسبة للكثيرين ممن يتوقون للتعرف على هذه القلعة الحصينة التي حملت راية الذود عن شريعة سيد المرسلينﷺ، فقد انبرى مركز كربلاء للدراسات والبحوث في العتبة الحسينية المقدسة الى طباعة هذا الكتاب تعميما للفائدة وسيراً على خطى برنامجه في تبني المشاريع العلمية التي تنفع المجتمع .. والله ولي التوفيق.

مركز كربلاء للدراسات والبحوث

في العتبة الحسينية المقدسة

١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

***

باسمه تعالى وبه نستعين

المقدّمة

في المناخ العالمي المضطرب بالاتجاهات الفكرية المتعدّدة، والتيارات السياسية المتصارعة، تلوح المرجعية العليا في النجف الأشرف كالكوكب الهادي الى سواء السبيل، فهي تتمنّى جادةً أن يتمّ الوئام والسّلام في العالم أجمع، وهي تؤمن بالعلاقات الإنسانية المتطوّرة الى مستوى الإخاء البشري، تتحدّى عادية الزمان، وتصارع جبهات الظلم والاستعباد، رائدة التوحيد لبني الإنسان؛ وساعيةً لإحلال الخير العميم لمعتنقي الرسالات السّماوية، وفي إستيعاب هذا التوجّه تجمع الأمة الإسلامية على كلمة سواء تنطلق من وحدة المسلمين وإتحادهم في ضوء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(1) فالمرجعية في إطارها الصحيح ليست مِلْكاً لطائفةٍ، ولا حِكراً على جماعة، بل هي الظل الوارف للإسلام بعامة، وهذا لا ينافي أن يكون المرجع الأعلى زعيماً للإمامية، لأن المرجعية في حدّ ذاتها أطروحة أهل البيت عليهم السلام لمواصلة مسيرة الرسالة الإسلامية من خلال التوقيع الرفيع الصادر من الناحية المقدّسة لدى وفاة السفير الرابع علي بن محمد السمري عام (٣٢٩هـ) ونصه: (وأما الحوادث الواقعة فأرجعوا فيها الى رواة أحاديثنا، فإنهم حُجّتي عليكم، وأنا حجّة الله عليهم) (2) ومن هنا نشأ مصطلح المرجعية، ومعنى هذا أن الأمة لم تُترك سدىً، بل هي مرتبطة بقيادة حكيمة تصدر عن أوامر الله تعالى

(١) الحجرات: ١٠

(٢) الكليني/ الكافي ٣/ ٥٥.

لحفظ التوازن الاجتماعي، وتسيير الرّكب نحو الصراط المستقيم دون زيغ أو إنحراف، تثبيتاً للنفوس، وإمساكاً بها في ظل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وقد بدأ الكيان المرجعي للإمامية في بغداد،وكان المرجع الأول في تخطيط ستراتيجي هو الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٦-٤١٣هـ) وخلفه على المرجعية علم الهدى علي بن الحسين،المعروف بالسيد المرتضى (ت ٤٣٦هـ) وهو تلميذ الشيخ المفيد، ثم خلفه أبو جعفر محمد بن الطوسي (ت٤٦٠هـ) تلميذهما: أعني المفيد والمرتضى، ولدى فتنة السلاجقة ببغداد عام (٤٤٧هـ) انتقل الشيخ الطوسي الى النجف الأشرف سنة (٤٤٨هـ) للابتعاد بالمرجعية والحوزة العلمية عن الاضطرابات السياسية، وكان الطوسي شيخ الإسلام الذي أعطي (منبر الكلام) من قبل الخلافة العباسية، وكان درسه العالي مقارناً بين المذاهب، وكتب في ذلك مؤلّفه (الخلاف) كما صنّف تفسير القرآن العظيم (التبيان في تفسير القرآن) وهو أول تفسير مقارن في الإسلام.

ومهما يكن من أمر، فقد انتقل الطّوسي الى النجف الأشرف، والتحقت به حوزته في أغلب الظن، وبدأ حياة جديدة في الدرس والتدريس في اثني عشر عاما مليئة بالجد والاجتهاد حتى أصبحت النجف حاضرة المرجعية العليا حتى اليوم رمضان (١٤٣٥هـ). وقطعت شوطاً بعيداً في تركيز مفهوم المرجعية في نشر تراث الإسلام، وتوحيد الأمة وجمع الكلمة.

وقد يُقال إن المدّ المرجعي قد ضعُف في النجف الأشرف في انتقال المرجعية الى الحلّة الفيحاء، في قرنين من الزّمان، ولكن لا يعني ذلك إنحسار الكيان المرجعي عن النجف الأشرف إذ سرعان ما عادت المياه الى مجاريها الطبيعية، وقد حفلت في ذلك الوقت

---

(١) فصلت: ٣٣

بالعلماء الأعلام، لأنها المنبع الأصل الذي تصدر عنه الروافد، وتصبّ فيه بالوقت نفسه.

وهذا الكتاب بحث مسيرة المرجعية العليا للنجف الاشرف في ألف عام في بابين اقتضتهما ضرورة البحث، وكان الباب الأول بعنوان (شؤون المرجعية العليا في النجف الأشرف)، في خمسة فصول على النحو الآتي:

١. الفصل الأول بعنوان (المرجعية عند الإمامية)

٢. الفصل الثاني بعنوان: (تأسيس الكيان المرجعي في النجف الأشرف)

٣. الفصل الثالث: (نضال المرجعية العليا حتى القرن العشرين أنموذجا)

٤. الفصل الرابع: (عقبات في طريق المرجعية)

٥. الفصل الخامس: (إقتراحات على المرجعية)

وكان الباب الثاني بعنوان: (عصور المرجعية العليا في النجف الأشرف)، في خمسة فصول على النحو الآتي:

١. الفصل الأول: وهو بعنوان: إستمرارية مدرسة النجف الأشرف في العطاء حتى نهاية القرن العاشر الهجري.

٢. الفصل الثاني: وهو بعنوان: تصاعد الإمداد المرجعي في النجف الأشرف في القرن الحادي عشر الهجري.

٣. الفصل الثالث: وهو بعنوان: مرجعية النجف الأشرف بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين.

٤. الفصل الرابع، وهو بعنوان: عمالقة المرجعية العليا في النجف الأشرف في القرن الرابع عشر الهجري.

٥. الفصل الخامس وهو بعنوان: صدى المرجعية العليا، في قصائد مختارة للمؤلف.

ولا أدعي لهذا البحث الإحاطة والكمال، ولكنه خطوة في تسديد الخطى بإذنه تعالى، وقد اثبتُ هنا تأريخ التأليف بالرغم من تأخر طبع الكتاب.

وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أنيب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

النجف الأشرف

٢٣/ رمضان المبارك / ١٤٣٥هـ

٢٢/ تموز / ٢٠١٤م

محمد حسين علي الصغير

***

الباب الأَول

شؤون المرجعية العليا في النجف

الفصل الأول: المرجعية عند الإمامية.

الفصل الثاني: تأسيس الكيان المرجعي في النجف الأشرف.

الفصل الثالث: نضال المرجعية العليا في القرن العشرين أنموجاً.

الفصل الرابع: عقبات في طريق المرجعية.

الفصل الخامس: اقتراحات على المرجعية.

الفصل الأول

المرجعية عند الإمامية

١. البداية الأولى.

٢. المرجع ذو هدف رسالي.

٣. تعدّد المرجعية!!

٤. إدارة المرجعية.

٥. دعاوى سلبيّات المرجعية!!

٦. نموذجية المرجعية الهادفة.

المرجعية عند الإمامية

أولاً: البداية الأولى

كان رواة الحديث من الإمامية في عصر الكليني (ت ٣٢٩هـ) وعصر الشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ) بداية صالحة لتكوين الكيان المرجعي في خطوطه الأولى، فقد كتب الكليني موسوعته الحديثية: الكافي فروعاً وأصولاً، وتبعه الصدوق فدوّن (من لا يحضره الفقيه) استخلاصاً من الأصول الأربعمائة التي دوّنها رواة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، والتي فُقِد قسم كبير منها، وبقي شيء كثير منها أيضاً فحفلت المدوّنات الحديثية الكبرى على ما بقي منها، بالإضافة الى الروايات التي صحّت نسبتها إلى الأئمة، واعتبر سندها عند المؤلف، وكان إكمال هذه المسيرة العطرة على يد الشيخ الأكبر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، فألّف كتابيه (التهذيب) و(الاستبصار) وبذلك تمّت الكتب الحديثية الأربعة المعتمدة عند الإمامية.

وكان ازدهار مدرسة الحديث، وحركة تدوينه في عصر الإمام الصادق تشكّل العصر الذهبي لحفظ تراث الإمامية من التدهور والضياع رغم الضغط السياسي الذي تعرّض له الفكر الإمامي في العصر العباسي الأول.

فقد ذهب المحقّق الكبير الشيخ آغا بزرك قُدّس سره الى هذه الحقيقة، وترجم لأكثر من مائتي مصنّف من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام ألّفوا سبعمائة وتسعة وثلاثين كتاباً بالإضافة الى مؤلّفي عصور الأئمة، وقد اعتبرها من الأصول[1].

وذكر أنّ لهشام الكلبي أكثر من مائتي كتاب، ولابن شاذان مائة وثمانين كتاباً، ولابن دؤل مائة كتاب، ولابن أبي عمير أربعة وتسعين كتاباً[2].

وكان كتاب (الكافي) ويليه (من لا يحضره الفقيه) نموذجاً فقهياً يعتمد رأي أهل البيت عليهم السلام في الفروع الفقهية، وكان هذا النموذج منظّماً تنظيماً جديداً يشمل أبواب الفقه كافةً.

وكان ما فيهما عبارة عن أحاديث تُمثّل الفكر الفتوائي معتمداً على النصّ وحده منقولاً بدقةٍ وأمانة وإخلاص، وكان هذا التوجّه إرهاصاً بميلاد المرجعية العليا للإمامية، في ضوء توقيع صاحب الأمر عجل الله فرجه، وهو يستعمل (فارجعوا) في قوله: (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة حديثنا، فإنهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله عليهم)[3].

حتى إذا برز الشيخ المؤسس محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٣٨-٤١٣هـ) فكان بحق المرجع الأعلى للإمامية لما نظّمه من شؤون الفتيا، وما ألّفه من كتب الفقه، وما افرغه من مؤلفات علم الكلام، وما استقطبه من فضلاء التلامذة، والمرجعية مدينة الى تدقيقه وتحقيقه وريادته الأولى بما ألقاه لنا من الأثر الفاعل في تجديد الحركة الفقهية ضمن مناهج جديدة لم يُسبق إليها من ذي قبل حتى عدّه العلامة الحلّي من أجلّ مشايخ الشيعة ورئيسهم وأُستاذهم، وكلّ من تأخّر عنه استفاد منه.

---

(١) آغا بزرك/ الذريعة الى تصانيف الشيعة ٦/ ٣٠١٣٧٤.

(٢) المرجع نفسه ١/ ١٧.

(٣) الكليني/ الكافي ٣/ ٥٥.

وأحصى له الأمين الحسيني العاملي نحواً من مائتي كتاب ورسالة في الفقه والكلام[1].

وخلفه على المرجعية علم الهدى السيد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) تلميذ الشيخ المفيد، فسار على منهجه في الفقه، وطوّر في علم الأصول، فكان رائداً من الروّاد الأوائل فيما أبقى لنا في (الذريعة) من آراء، حتى إذا لبّى نداء ربّه خلفه على المرجعية شيخ الطائفة: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) فأستقلّ بالمرجعية، وهو ينشر علمه في الآفاق. ويفتح باب الاجتهاد مؤصّلاً ومحرّراً ومفتياً ومدوّناً على أُسس جديدة، وبمنظور جديد حتى أُسند إليه الخليفة القائم بأمر الله كرسي الكلام، وكان لا يُعطي إلاّ لأبرز علماء الإسلام في عصره، ولمّا حدثت الفتنة (فتنة السلاجقة) في عهده، وكُبست عليه داره، وأُحرق كرسي الكلام، هاجر هجرته الميمونة المباركة إلى النجف الأشرف عام (٤٤٨هـ)، فأسس الحوزة العلمية هناك، والتي لا تزال قائمة حتى اليوم في ظلال سيّدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام في النجف الأشرف.

وما زالت المرجعية في النجف الأشرف تتبوّأ مركزها الريادي في الفقه والأصول والحديث والفلسفة والكلام، وعلوم القرآن، وهي تنشر ألوية العلم بمنأى عن الاتجاهات والميول، لتؤدّي رسالة أهل البيتعليهم السلام في الحفاظ على شريعة سيّد المرسلينصلى الله عليه وآله وسلم.

ثانياً: المرجع ذو هدف رسالي

لو وقفنا عند كلّ مرجع من مراجع الإمامية دون تعيين في ذات أو زمان أو مكان؛ لوجدنا سيرته القيادية تستلهم أهدافاً معينة قد تنحصر في عمومها بثلاث ظواهر:

الظاهرة الأولى: متابعة أهدافه الرسالية التي تقوده إلى رضا الله تعالى في كلّ تحركاته القيادية بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم، فهناك هدف مركزيٌّ أصلٌ هو الاندماج الحقيقي في ذات الله روحاً وفكراً ورسالة.

(١)ظ: الأمين الحسيني العاملي/ أعيان الشيعة ٤٦/ ٢٠ وما بعدها.

الظاهرة الثانية: استيعاب خدمات الناس بكلّ طبقاتهم، وتحقيق آمالهم اقتصادياً واجتماعياً، والدفع بهم الى الخير المأمول، آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، منفتحاً عليهم في ذهنه ونفسه ويديه، ومتجاوباً معه نفسياً وروحياً بإزاء نشر أعلام الدين، والترويج لسنن الأنبياء والأوصياء، وبرمجة أنظمة وكلائه في السفارة والتمثيل في القصبات والمدن وعواصم العالم، وتيسير ما يمكن طبعه ونشره من إطروحات علمية.

الظاهرة الثالثة: مراقبته لذاته في المتابعة العلمية والفقاهتية، وذلك بالتزوّد المنظّم من فنون العلم والعرفان، والاضطلاع بمهمّة الإضافة والتجديد، فلا يكتفي بكونه الأعلم حتى يضيف الى علمه علماً، والى تراثه جديداً، والى استنباطه إفاضة، فهو في عمل مستمر وحركة دائبة، تطوّر في الموجود، وتحاول الاستزادة ممّا هو متوافر في الأصل، وبحاجة الى التمحيص والجهد لتقديمه سائغاً لروّاد الثقافة الدينية المتجدّدة في العرض والأسلوب ممّا يحقق أهداف المرجعية المؤسساتية التي تضع الأمر المناصب في الموقع المناسب، وتتبع الخطوّة الموفّقة الهادفة بخطوات أكثر توفيقاً، وأجلّ هدفاً، وأعلى استثماراً حتى لتعود هذه الظاهرة بالدعم الفعلي الأيديولوجي للظاهرتين السّابقتين، وفي هذا الضوء يبزغ نجم المدرك الرسالي للمرجع الديني.

إنّ تحقيق هذه الظواهر في المستوى العملي كما هو حاصل بالفعل لدى المرجع الرسالي الناهض يُكوّن التفافاً جماهيرياً حول المرجع باستجابة تلقائية دون تخطيط مسبق، ويكون الاصطفاف الشعبي متراصفاً وراء قيادة متنوّرة تعايش المناخ الاجتماعي في أبعاده المترامية الأطراف، وتواكب التحرّك الطبائعي لمسيرة الإيمان الخالد، كلّ ذلك يجري كما جرى دائماً بعفوية مطلقه تؤكد مبدأ الاستعانة بالله وحده، وتفجّر الموقف باتجاه إيجابي دون استعداد ضاغط، أو إلزام مفروض، وإنّما هو الاندفاع الرسالي البريء.

وسرّ ذلك - كما هو متواتر معروف - أنّ ليس في مراجعنا العظام من طلب المرجعية

لنفسه منصباً، أو جرّ النار الى قرصه كما يقولون، بل يشير إليه أهل الخبرة من ذوي المعرفة والدين والتقوى، وتلتقي كلمات الأعلام في حقّه علماً وزهداً وورعاً، حتى إذا تمّت هذه الأوليات بحرّية مطلقة، وبوضع الرجل الأول في خصائصه وشرائطه في الموقع، اتكل على الله تعالى، ونهض بعبء المرجعية مخلصاً، وشمّر عن ساعديه مناضلاً، وذهب كل مذهب مشروع لإعزاز كلمة الله في الأرض، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، ومن هنا تكون ثقة الأمة به عالية، وإخلاص الشعب المسلم له متميزاً، ومن خلال ذلك يتبلور التلاحم العضوي بين فصائل المجتمع وقيادته في تفاعل وتجاوب كبيرين، فهو يضحّي من أجلهم بالنفس والراحة والوقت، وهم يضحّون من أجله بالإنصات والاستماع، ويفدونه بالآباء والأبناء، قربةً خالصةً لوجهه الكريم.

وهنا تحصل عملية الاندماج الكليّ المدهش بين الشعور المتدفّق بالمسؤولية وبين النظر للمصلحة الإسلامية العليا، دون أنانية أو ذاتية أو فئوية، فيكون الرمز الصالح للناس، ويكونون الأولياء المخلصين للمرجع، إذ ليس ثمّة من مدرك فردي أو لحاظ ذاتي، وإنّما هي المصلحة الدينية العليا، التي يرجو بها الناس الخلاص من الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة، في هدف مزدوّج بنّاء، وقلّما اجتمع ذلك إلاّ في ظلال المرجعية الرشيدة.

ويمكننا القول هنا بوجه عام: إنّ وحدة الهدف في هذا التوجّه الفريد هي التي تقود الأمة الى وحدة الصف، فيكون المؤمنون جميعاً كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

ولم يتّفق استقرائياً، ولا مرّه واحدة، أنّ عمل المرجع الرسالي عملاً من أجل صالح خاص يضحّي بمصالح الآخرين، لأنّ الوازع الديني يأبى ذلك، والسلوك المستقيم والعدالة القائمة يدعوان الى الورع والزهد بالعناوين الثانوية، وبالاعتبارات الزائلة ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(١).

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٤.

ثالثاً: تعدّد المرجعية

قد تتعدد المراجع في الزمن الواحد والعصر المتقارب في طول واحد حيناً، وفي عرض واحد حيناً آخر، وهذا التعدّد يوحي بملء الساحة في الفقهاء، وهم -بالدرجة الأولى- الادّلاء على الله في عصر الغيبة، وهم وحدهم القادرون على إدارة دفّة الاجتهاد والإفتاء، وهم عادة يد واحدة على من سواهم، وكان هذا التعدد - من خلال وجهة نظري- من فضائل الفكر الإمامي العظيم، فهو يدأب ويكدح ويجّد ليّهيئ من كلّ عصر وكلّ جيل عدّة مراجع يتبوّأ أبرزهم المنصب الأعلى، والاكثرون في الظلّ ينتظرون دورهم، بل دورهم هو الذي ينتظرهم، فيستبقون الى الخيرات واحداً واحداً، وفي إشعاع جهودهم القيادية والرسالية تتبلور أفكار المذهب الإمامي، وهي تتقلّب في مراحل النمو والتطوّر والأصالة، وهذا ما ينجم عنه ترسيخ قاعدة الإبقاء على الفكر من الاضمحلال والعدّ التنازلي كما يقال.

وهذا التعدّد في جوهره ليس مشكلة بقدر ما هو رحمة وإفاضة، فبه إحياء للسنن والفروض، وإحاطة بالمسائل والفروع، وتعدّد لوجهات النظر العلمي في تنافس محبّب لدى الله ورسوله، فكلّ يعمل بطريقته الخاصة، وبما يوحيه اجتهاده في تعزيز الآراء الفقهية، وتحكيم النظر العقلي والنقلي في تراث النبي والأئمة صلوات الله عليهم.

وكان التعدّد المشروع مناراً يفرز المرجع الديني الأعلى الذي يتّجه إليه المراجع بعامة، ليكون مثلهم الأعلى.

وقد يقال: بأنّ تعدّد المرجعيّة يخلق تجمّعات فئوية غير محمودة، ويمثّل سلبيات متناقضة في المناخ القيادي للمراجع العظام، بيد أنّ نظرة فاحصة تبدّد هذه الضبابيّة الموهومة، إذ السلبيات تنطلق من شرائح بعيدة عن الوعي الديني المتفتح، تلك الشرائح

ممّن يحيط بالمركز، ويعيش فيه على الهامش لا في القمّة، ولا في استصدار القرار، والمرجعية ذاتها بمنأى عن هذا التوجّه الجانبي المفروض، لأنّها تواصل عطاءها الثرّ بإنجاب كبار الفقهاء في ظلّ عناية إلهية خاصّة دون أساليب دعائية، أو ممارسة للضغط في الاستقلالية لمنصب قيادة المرجعية الحقّة التي لا تمانع في رسالة المرجعيات المتعددة في الحال، لتهيّئ المرجع اللاحق كما هو أهله في حالة غياب المرجع السابق له.

أمّا الاختلاف الفقهي بين المراجع، فهوّ حق طبيعي لكلّ مرجع إذ يمارس الفقيه حياته العلمية باستنباط الحكم الشرعي من أدلّته التفصيلية وصولاً الى الواقع، سواء أكان دليله على ذلك قطعياً أم ظنياً، فهو لا يعارض إن كان صحيح المستند والمدرك، ولكنه يناقش ويعارض ويجابه بأدب لو لاح أنّه استند إلى مدرج خاطئ بنيت عليه نتائج خاطئة.

التعدّد المرجعي ظاهرة حضارية في الفكر الإمامي يُنبئ عن عدم خلوّ الميدان من قادة العلم الشرعي الموصل الى الله تعالى، أمّا المرجع الأعلى فإنه يبرز تلقائياً، وتجتمع عليه الكلمة دون إيحاء خارجي، أو ملحظ سياسي، فهي قضية شرعية خالصة. وإنّ ارتبطت بقيادة الأمة إلاّ أنّ بعضهم يجرّها الى الحاكمية، وبعضهم يذهب بخلافه.

رابعاً: إدارة المرجعية

عادة ما تستعين المرجعية لإدارة شؤونها بهيئات ولجان وجماعات وافراد.

١. فهناك هيئة الإفتاء، وهو عبارة عن مجموعة من ذوي العلم والاجتهاد والخبرة، ويتولّون أمرين مهّمين هما: إجالة النظر في كبريات المسائل العلمية، وعادة ما يجتمعون في ديوان المرجع بحضوره وتطرح تلك المسائل، وتُثار حولها المناقشات، ويضطرم الجدل العلمي، وكل يُدلي بحجّته حتى يصلوا الى نتيجة في قناعة تامة أو

مقبولة، والأمر الثاني: المبادرة الى الإجابة الخطيّة عن الأسئلة التي تصل المرجع من القصبات والأقاليم، فيجاب عنها وفق فتاواه، وعادة ما تقسم على أفراد وأشخاص لئلّا يزدحم العمل على بعض دون بعض، ومهمّة هذه الهيئة من أصعب المهام، إذ عليها تتوقّف إدارة المرجع الإفتائية، وفيها من العسر والحرج والجهد ما لا يعلمه إلاّ ذووه، وبعد إنجاز الإجابات تُعرض جميعها على المرجع فيدقّق فيها النظر، وقد يحذف وقد يضيف وقد يقرّ.

٢. وهناك هيئة استشارية لدى المرجع يشاورها في الرأي ويعاودها في النظر في الأمور الاجتماعية والدينية والشؤون العامة، فهو يستفسر عما ينبغي وهي تجيب، وهي تتبرّع في الحديث مجتمعه أو متفرّقه مع المرجع في شؤون الساعة، وأحداث المناخ، وهي قد تعرض بآرائها على المرجع في مهمّات الإمور، وعليها أنّ تشير وعليه أنّ يرى، فلا يفرض عليه شيء، وعدم اخذه برأي أحد لا يضير شيئاً، ولا يعكر صفواً، فالقضية مبنية على قرار المرجع بعد أنّ يُشار عليه بدقة وأمانة واحتياط، وعمل هذه الهيئة فرادى ومجتمعين من أكثر الأعمال صعوبة ومسؤولية، فيجب عليها التحرّز الشديد، وإبداء الرأي السديد، وإثراء السّاحة بما هو أصيل وموضوعي دون الانفعالات التي تتسم بالحدّة والمشاعر المؤقتة.

٣. لجان المشاريع، أدركنا المراجع، ولكل منهم مشاريعه التي يرى أنّها متعيّنة التنفيذ، فمضافاً لإدارة شؤون الحوزة من كلّ جهاتها، والقيام بمهام الدرس العالي -البحث الخارج- ومتطلباته، هناك جملة من المشاريع التي يحقّقها المرجع بحسب توجّهاته، كإعمار المساجد، وبناء المعاهد العلمية، وإدارة شؤون المرضى، وإشادة المكتبات العامة، وترميم المرافق الحياتية الضرورية، وإنشاء المؤسسات الخيرية، وإعالة الايتام والمحرومين، والإنفاق على الفقراء وذوي الحاجة، وهذا ما يحتاج الى رجال أُمناء أتقياء، وجهود متظافرة حتى تنهض بهذه الطروحات المتعددة، وعادة ما يستعين المرجع بأهل الأمانة والخبرة في كلّ شريحة من هذه الشرائح.

٤. الشؤون المالية: وطبيعتها من أشكل الواجبات المرجعية إدارة، وأكثرها مشاكل، واشدّها تحمّلاً ومسؤولية، وأضخمها تشعباً ووعورة، وبها يعاني المسؤولون عنها مرارةً وغصّةً وعنتاً، فيضيقون بها ذرعاً، ويترّعون إفرازات شتى الآلام، وعادة ما يواجه المرجع من قبل الأنانيين انتقاداً شديداً قد لا يرحم، وقد يتجاوز حدود اللياقة، حول كلّ مَن يختاره للنهوض بالأعباء المالية من ذوي الصيانة والاحتراز والمعرفة والخبرة، فهم لا يرضون عن أحد، شأن المجتمعات المتخلّفة، ويبدأ التجريح صامتاً أو علناً لأسباب مصلحية أو انانية لا علاقة لها بمقتضيات الأحوال.

هناك سؤال يطرح نفسه في هذا الجّو المحموم، وهو يتكرر مع كلّ مرجع، ويتردّد بمناسبة وغير مناسبة، هذا السؤال أو التساؤل: لماذا يعتمد المرجع أبناءه بإدارة هذا الشأن. ولماذا لا يضع لجنة متخصّصة؟ أو مؤسسة مسؤولة عن إيرادات المرجعية وصادراتها؟ والجواب يكون من ناحيتين، ناحية المرجع أولاً، وناحية الواقع ثانياً فالمفروض بالمرجع أنّ يكون في أعلى درجات العدالة والوثاقة، وإذا كان كذلك فهو أعلم وما يصنع، وليست لديه مناصب إدارية بمفهوم الدولة، وإنما لدية بعض الأموال التي يجب أن يشرف على مصارفها ووجوهها الأمثل فيما يعتقد، وإذا كان المرجع بهذه الصفة من التقوى والحيطة فما يضيره أنّ يعيّن بعض أبنائه لمثل هذه المهمة الشاقّة، وهو أعلم بهم في علانيتهم وسرّهم وهو أخبر بليلهم ونهارهم، وهو المقوّم لأشخاصهم عدالة وخبرة، وعادة ما يكون الولد الموثوق به أكثر حرصاً من غيره على شؤون أبيه، والأب يكون منفتحاً على الثقة من أبنائه في أسراره وقضاياه دون خشية وارتياب، وقد يكون التعامل في هذا الملحظ مع غير الأقربين فيه عسر وحرج، وقد يقتضي التقيّد بمجاملات لا ضرورة معها، ولا اضطرار إليها، لو كان الأمر مع الأبناء. ومن ناحية أخرى فليس المرجع عادةً مبسوط اليد، ليتصرّف في حريّة كاملة، فكثير من شؤونه تُحاط بالسرية التامّة، إذ طبيعة العمل تستدعي السرية، ولكلّ مرجع اجتهاده الخاص بهذا المضمار.

والقضية المالية هي التي يدور بها فَلَكُ الإحساس بالاستزادة، فقد (أهلكهم الدينار الأصفر والدرهم الأبيض) كما ورد في المأثور، وهؤلاء هم أولع الناس لساناً بمن يمنع عنهم ما لا يستحقّون، وللحقوق الشرعية مواصفات في الإنفاق، وشرائط لا ينبغي تجاوزها، فلا توضع في غير موضعها، ولا تصرف إلا بمدركاتها المحدّدة، وأبناء المرجع مأمورون من قبل أبيهم منصباً، ومخوّلون في قبله باعتبار المركز تخويلاً عاماً أو خاصاً، فليس لهم إلاّ الإدارة التنفيذية، وعليهم مراعاة ذلك، وعليهم أنّ لا يتجاوزا الصلاحية قيد شعرة قط، والأمارات الشرعية هي التي تحدّد نوع احتياج الآخرين كمّاً وكيفاً، والتحرّز الشديد هو سبيل النجاة في هذه المتاهة، إذ لا بد من التصّدي لها بحذر ويقضة وحسن تأتٍ للأمور، فهناك الكَذَبَة والمحتالون، وهنالك الشرائح غير المتحرجة، وهناك الاحتياج الحقيقي، وهنالك الوضع الذي يشكل حلّه والوقوف على مدى صحته، والقائم على هذه الشؤون عادةً في كآبة مستمرة نتيجة اضطلاعه بمهمّة الفحص المضنى فهو معنيٌّ دون سواه بإعطاء كلّ ذي حق حقّه، والتأكد من ذلك جوهرياً بحسب الطاقة البشرية، وإلاّ فقد خان الأمانة، وفرّط في الأداء.

وهؤلاء جميعاً، يريدون من الحقوق جميعها، وهنا يبدأ الانشطار الأخلاقي في الردّ والاتهام، وقد يصل إلى الشّتم والسّباب دون مسوّغ، لذلك فالمعرفة الحقيقية لمواطن الحاجة قد لا يغني عنها ظاهر الحال، ولا الإلحاف في السؤال، ولكن ميزة التقوى إذا توافرت في السائل استراح بها وأراح غيره في معطياتها. فالورع هو الذي يقيّد هذا السبيل الوعر.

وموجة الفقر والفقراء عارمة، قد لا تستوعبها الحقوق لدى المرجع، فلا تسدّ الاحتياجات كلّها، ولا ترفض كلّها، بل يتحتّم تقديم الأهم فالمهم وهكذا يكون التفاضل بين حالة معقّدة وحالة اعتيادية، فيكون العطاء الناقص بديلاً عن الحرمان الكامل، وهو ما تفرضه حقيقة المورد المالي المحدود، وتحتّمه طبيعة الفحص الكاشف عن الاحتياج.

أمّا الابتزاز غير المشروع، والإلحاح غير المهذّب، في إرادة العطاء غير المتوازن دون مبرّر شرعي، فلا أمارة كاشفة ولا ثقة متوافرة، فهذا ممّا يزيد حياة القائمين على تولّي الشؤون المالية عناءً وبلاءً واشمئزازاً، وهم مع هذا محتسبون في إدارة هذه الفوضى الشاملة، وإذا كان الأمر كذلك، فالسلامة من الخطأ قد لا تحقّق في كل أبعادها، وما لا يدرك كله لا يترك كله.

ويريد المجتمع الواهن أنّ يكون أبناء المراجع أقل قدراً ممّا هم عليه، بل يريدون منهم خَدَمَةً صغاراً، وقد لا يتحقق هذا عادةً، فتبدأ الانفعالات في اجتياح العلاقة الاجتماعية بعيداً عن الروح الموضوعية في المعالجة والتعامل، وقد يتصور أحدهم أن التعالي من صفة هؤلاء الأبناء، وليس الامر كذلك، بل هم قد يصل بهم الجزع الى حد التجاوز على الراحة والمداراة والمجاملة، نظراً للزخم الهائل الذي لا تنهض به إمكانيات الاستقبال لكل أحد، والإصغاء الطويل في وقت ضائع مهدور، وقد يصحب ذلك من قبل الناس أو بعضهم ادّعاء طويل عريض قد يصح وقد لا يصح، كل ذلك يقابله أبناء المراجع بصبر وروّية وأناة، ويعالجون بصمت ومعاناة، ومع هذا كلّه، وفوق هذا كلّه، فقد يقال لماذا لا يعتمد المرجع على سواهم؟ ولماذا لا تكون المرجعية مؤسّساتية؟ ولماذا لا توزّع الأعمال؟ والحق أن المراجع لا يعتمدون أبناءهم دون سواهم فهناك الكَتَبَةُ، وهناك الحَفَظَةُ، وهناك المستودعون على الأسرار المالية، وهناك المخوّلون على الصرف الشرعي، وهناك الأبرار الاتقياء الدائبون على اكتشاف أحوال المجتمع بصدق، وهؤلاء هم المتصرّفون الحقيقيون في إطلاق الصلاحيات في الهبة والعطاء، وتفقّد مواطن الاحتياج والفقر والفاقة، لأنهم على صلة أكيدة من الفحص المستخبر عن شؤون المسلمين، وتكون عليهم المسؤولية في منظور مزدوج بين المرجع ومراجعيه.

هؤلاء حقاً - عدا سواهم من المسؤولين - هم المجاهدون في سبيل الله جهاداً فعلياً قائماً على فلسفة نكران الذات وترك الاعتبارات، وكبت النفس وهم متوافرون على

الانخراط العملي في خدمة صاحب الأمر عجّل الله فرجه، وتحقيق معنى الانتظار له إيجابياً، فكم من وقور وقف على مسكين فأنقذه قربةً الى الله تعالى، وكم من عزيز نفس حمله التواضع الى السعي الحثيث في سبيل إنعاش المحرومين، وكم محاولٍ في مجاهدة ونصب أن يرتفع بمستوى الفقراء الى حضيرة الأغنياء، وكم من مستنقذٍ للمضطهدين بؤساً وجوعاً، ليصل بهم الى حياة أفضل نسبياً، وماذا على المرجع وأبنائه والعاملين معهم من ضير، وهم يتسلّمون الحقوق يميناً، ويسلمونها يميناً أيضاً، فهم وساطة حبٍ وعطفٍ ورأفةٍ وإحسان.

خامساً: دعاوى سلبيّات المرجعيّة

لا يزال العبث اللاأخلاقي، والوعي المتخلّف غير المسؤول، يبحث عن سلبيات في المرجعية لم تكن، ويتحدّث عن أوهام وأساطير في ذهنه لم تخلق بعد، فهو معنيٌّ بالسلبيات وآثارها، ووضع العراقيل في مواجهة ثغراتها الموهومة، دون اللجوء الى ركن وثيق في الورع والاحتراز.

فقّد يُقال تشهيراً: بأنّ انفراد أي كائن إنساني مهما كان عادلاً ثبتاً، قد يعني تفرّده بالقرار، والتفرّد بالقرار نوع من الدكتاتورية الفردية، وإذا كان المرجع دكتاتوراً فهناك الكارثة المتوقّعة في كلّ اللحظات الزمنية الآنية والمستقبلية.

وهذا القول محض افتراض لا يُمثّل حقائق الأشياء، ولا يحظى بكثير من الصّحة، فالمرجعية العليا بانحصارها بالمرجع الأعلى لا تعني بالضرورة انفراد ذلك المرجع في القرار دون ملحظ استشاري أو شوروي، بل هو خاضع لكلّ اللمسات الدقيقة التي يكون آخرها قرار المرجع.

وقرار المرجع تارةً يكون مركزياً، وهو أصل المهمّة العليا التي ينهد لحملها، وهو القرار الفتوائي الفقهي الكاشف عن رأي الفقيه في الأحكام، وهو وإنّ كان من تخصّص المرجع الدقيق، ولكنّه قد يخضع للإثارة في مجلس الإفتاء الأعلى الذي يجتمع عادةً في حضرة المرجع، وهو برئاسته، وتطرح فيه كبريات المسائل الفقهية بأدلتها التفصيلية، ومن ثم يتوّصل معها الى صيغة نهائية في ضوء قناعات علمية لا سبيل الى طرحها، فتكون ملزمة للأخذ بها، فيتقيد بها حتى المرجع نفسه فنّيّاً وعلمياً، لأنها وحدها هي التي يتخذها المرجع أصلاً فتوائياً ولأنها حصيلة البحث الموضوعي المكثّف القائم على أساس الدليل والبرهان.

وهذا لا يحصل إلاّ في بضع مسائل معقّدة تحتاج الى هذا النوع من التدقيق، أمّا المسائل الاعتيادية فيجيب عليها فوراً بناء على قناعته العلمية، وهذا محض اختصاصه الذي لا ينازعه فيه أحد.

أمّا في المسائل الهامشية والجانبية التي يبتلى بها المرجع باعتباره كبير الأمناء على شؤون الدنيا والدين، كتسلّم الحقوق وتوزيعها، وتولّي التبعات في الوصايا والتكليف الشرعي الإضافي التنفيذي، ونقل الحق من العين الى الذمة، وإدارة شؤون الولاية على القاصرين وإضرابها، فهذه المسائل وإن كانت أساسية لتعلّقها بالمرجع وحده، ولكنها هامشية بالنسبة للهدف المركزي الأول وهو الإفتاء.

وأغلب هذه الموارد مالية وغير المالية قد تقوم عليها الأيادي الأمينة بحسب الظاهر، فلا يُتطلب من المرجع أنّ يعيّن ملائكة في هذا الجانب، وإنما أهل الثقة بحسب الموازين المتبعة شرعاً، فمن أدّى واجبه بأمانة وإخلاص فهو المطلوب، وإلا فيُعزل ليُستبدل بغيره من الثقات الأمناء.

وأما القرار السياسي الذي يتطلّب رأي المرجع لقيادة الجماهير في مجالات الضرورة القصوى، فيعود تقديره الى التكليف الشرعي للمرجع بحسب ما تتجمع لديه من مسوّغات ومبرّرات ضمن الاستشارة والاستنارة برأي الآخرين لدرء المبادئ الوافدة، وحماية الثغور، وحفظ بيضة الإسلام... الخ.

أمّا التورط في الدماء، فما اشد حرج مراجعنا في هذا الملحظ، فلا فتوى في جهاد أو دفاع إلاّ عند الضرورة القصوى، ولدى إخفاق كلّ وسائل الدفاع السلمية، وهذا ما تشهد به حوادث التأريخ المتكررة في حقب قد تكون متقاربة.

بعد هذا العرض الموجز، لنتساءل: أين تكمن سلبيات المرجعية المزعومة؟ وكيف؟ لا هذا ولا ذاك ولكنّه التمرّد على مظاهر القيادة الرسالية الرشيدة بغية استبدالها بزعامات تتحكّم فيها الأنانية والمصلحية وعدم التورّع.

سادساً: نموذجية المرجعية الهادفة

قد تُثار مسألة تتضخّم حيناً، وتتورّم حيناً آخر، وهي دعوى اختلاف ما بين المراجع المتعاصرين بزعم ضديّة أحدهم للآخر، أو وقوف بعضهم تجاه بعض، وقد يقال بأنّ جماعة هذا أعداء جماعة ذلك، ولا شيء من هذا القبيل لا من بعيد ولا من قريب، ولكن طبيعة عمل كلّ مرجع السرّية والعلنية قد تقتضي ظروفاً خاصة، قد يستشعر منها بعضهم شيئاً من هذا القبيل، ولا أساس له من الواقع، وقد يكون للبطانة غير المتورعة دور بارز في مثل هذا الزعم، إلاّ أنّ المرجع عادة ما يطلعه أمناؤه وثقاته على ما في الساحة من خلل وخطل، فيبادر الى معالجة الظواهر السلبية بكلّ صلابة، ومع أننا شاهدنا جملة من الأدعياء للمرجعية يطاولون المراجع الحقيقيين، إلاّ أنّ الثقة نُزعت من

نفوس الناس تجاههم جرّاء هذا التصدّي غير المشروع بما لا سابقة له في تاريخ المرجعية إلاّ في عصر حبّ الذات وحبّ الظهور، وكسب المريدين أنّى اتفق، ولو بالتهجّم على الآخرين، وهذا الملحظ قليل الوقوع، وإنّ وقع فوقوعه هو الأندر الأقلّ، ولكنه سرعان ما يتلاشى، وتذروه الرياح كهشيم المحتظر.

الأنسان - أي أنسان دون المعصومين - قد ينحرف على علم، والعادل قد تسقط عدالته بالذنب وقد تعود بالتوبة، إلاّ أنّ الإصرار والتقوّل على اختلاف المراجع فيما بينها ليس له ما يبرّره تطبيقياً، والمرجع الفذّ هو الذي يدرأ كلّ ذلك، ويعمل على تسوية الأمور بأصالة وإدراك بل ويسعى- إنّ حصل الاختلاف - على تقريب وجهات النظر، حتى تعود المياه الى مجاريها كما يُقال، ولقد أدركت من الأحداث والظواهر، وتعاون المراجع العظام، ما يقربنا شوطاً كبيراً من نموذجية المرجعية الهادفة في الفكر الإمامي.

من خلال ممارسة العمل خلال ستين عاماً مضت حتى اليوم في رحاب المرجعية العليا في النجف الأشرف في ظلّ باب مدينة العلم أمير المؤمنين ووصيّ رسول رب العالمين: الإمام علي عليه السلام أستطيع أن اقطع أنّ ما يثار في بعض الصحف المأجورة، وبعض الكتب المسخّرة، ولدى جملة من عملاء المؤلفين ضد المرجعية العليا، وادعاء الاختلاف المصطنع بين المراجع، كلّه موضوع لا أصل له، الهدف منه القضاء على هذا الكيان بشكل وبآخر، وأحاول أن أضع بين يديك شذرات دقيقة وثمينة ممّا وجدت عليه أبرز مراجعنا العظام من حيث الالتقاء الروحي والتفاهم الموضوعي والتوادد والتزاور والتراحم فيما بينهم، والاستئناس بالرأي، والتأكيد على أصالة الوعي المرجعي المتطور، أضع هذه اللمحات ممّا أدركته مباشرة، ورأيته مشاهدة، واكتشفته ميدانياً أو حدثت به في حينه فالتقطته الذاكرة العلمية، وكلّ أولئك يحدد ظاهرة حضارية إيمانية ما أكثر جزئياتها، ولكنني سأكتفي ببعض النماذج الرائدة في هذا الميدان:

١. كان الآية الكبرى الشيخ محمد رضا آل ياسين الكاظمي المتوفّى (٢٨ رجب ١٣٧٠هـ) من أعاظم فقهاء عصره، تذكّرك طلعته بالأوصياء، وكانت مرجعيته في عرض واحد مع مرجعية الإمام السيد محسن الحكيم قُدس سره المتوفّى (١٣٩٠هـ) وكانت العلاقة الحميمة الأخويّة بين المرجعين تزداد عمقاً وحيوية وإشراقاً خلال ربع قرن من الزمان، وكان آل ياسين يكبرُ السيد الحكيم بعشر سنوات، وكان آل ياسين يصلّي الجماعة في رواق الحرم الحيدري الشّريف، وبعد الصلاة يجلس في محرابه متعبّداً أو مسؤولاً عن الأحكام من قبل مقلّديه، وكان السيد الحكيم يقيم الجماعة في الصحن الحيّدري، وقد يقصد الحرم زائراً، فإذا وجد الشيخ بعد لم يغادر محرابه جلس إليه، وتحدّثا وتساءلا وتَبسّما، وودّع كلَّ منهما صاحبه ببشاشته المعهودة ممّا يخلق جوّاً دافئاً لدى أعلام الدين في النجف الأشرف، وكانا معاً قائلين بالحكم في الهلال، وهو أمر يكثر فيه الرّد في الأخذ والردّ والأثبات، وتتوزّع الشهادات فيه فكان كلّ منهما يعلّق الحكم على قناعة صاحبة، فآل ياسين يقول: ما هو رأي السيد، والحكيم يقول: ما هو رأي الشيخ، وهكذا يتوافر التعاون والتفاهم بين الرجلين ولا يحكم في الهلال في رمضان وشوال وسواهما إلاّ بكلمة سواء صادرة من المرجعين.

قصد أحد كبار التجّار الشيخ آل ياسين في مجلس درسه العالي الذي لا يحضره إلاّ صفوة من المجتهدين، وكان يقيمه في داره. فقال التاجر الوجيه للشيخ: أريد أنّ اقلّدك، فقال آل ياسين عجيب!! رجل بمنتهى الوثاقة عند العلماء غير مقلّد للآن!! قال: لا، أنا مقلّد للسيد الحكيم وأريد العدول عنه الى تقليدك!! فلمّا سمع ذلك الشيخ أصفرّ وجهه وأحمرّ، ونزع عمامته من على رأسه، وضرب بيده عليه قائلاً: الله أكبر: السيد مجتهد مطلق عادل، وأنت تريد العدول عنه، وتكلّم بكلمات الإشادة بالسيد الحكيم وأوجب على السائل البقاء على تقليده.

جاء مبلغ ضخم في حينه للشيخ آل ياسين والمبلغ يمثل خمسمائة مثقال ذهبياً بحساب القيمة، وأشترط إعطاء هذا المبلغ للمشتغلين من أهل العلم، فأرسل الشيخ على السيد الخوئي، وكان أستاذاً متمرّساً في سن الشباب في الحوزة العلمية، وحينما حضر الخوئي، قال له: سيدنا خذ هذا المبلغ واقسمه بين طلابك فإنهم من المشتغلين حقاً من أهل العلم.

حدّثني ولده الجليل الشيخ محمد حسن آل ياسين، قال: سافرت بخدمة الشيخ الوالد الى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، وقبل دخول الوقت لصلاة المغرب جلسنا في الصّحن الحسيني على فراش احدى الجماعات، ودخل وقت الصلاة، فالتفت الشيخ الى ولده وقال له: سَل من هو إمام الجماعة، فكان آية الله العظمى السيد حسين القمّي قُدّس سره، فقال: نصلّي جماعة، وصلينا جماعة، وعلم السيد بوجود الشيخ في كربلاء فقام بزيارته، فالتفت الشيخ آل ياسين الى السّيد القمي وقال: صلّيت خلفك جماعة حملاً على الصّحة، وأنا غير عارف بقراءتك وكانت العدالة مفروغاً منها، فقال السيد: أي والله أنا أحببت أنّ اعرض قراءتي عليك لتختبرها، فقال له الشيخ: أنا سمعي ثقيل، أقرأها على الشيخ مرتضى آل ياسين، وهو يخبرني عنها، فما كان من السيد القمي إلاّ أنّ تلا فاتحة الكتاب على الشيخ مرتضى طلباً للصحة والواقع، فلما انتهى منها، أخبر سماحة الشيخ بأنها قراءة صحيحة.

في ليلة وفاته أرسل الشيخ آل ياسين على تلميذه المقرّب آية الله العظمى الشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي قُدس سره الشّريف، وقال له: كلّ ما لديّ من الحقوق الشرعية هو هذا المبلغ وكان ثلاثمائة دينار، خذه الآن وأذهب الى النجف ووزّعة على أصحابه من المحتاجين وطلاّب الحوزة العلمية، فإذا فرغت من ذلك فعد إليّ ليطمئن قلبي، ففعل الشيخ آل راضي ما أمره، وما انتهى سواد تلك الليلّة إلاّ والحقوق عند أصحابها من أهلها، وتوفّي الشيخ آل ياسين صباح ذلك اليوم في الكوفة.

هذا الشيخ آل ياسين حديث الشارد والوارد، ومثال الزهد والتقوى والورع الأمثل،

ما رؤي إلاّ مبتسماً خاشعاً مجدّاً، يذكّرك سلوكه بسيرة الأئمة الطاهرين، وإذا التقى مرجعاً احتضنه وبجّله وعظّمه، وفرح بلقائه ورؤيته، وتاه سروراً حقيقياً بذلك، ويرى ذلك من تمام التديّن وهو كذلك، وهو على وقاره وهيبته، قد يقف في الطريق، وهو يركب حماراً متواضعاً ينتقل به الى الحرم الشّريف نظراً لضعفه وعجزه، فيستقبل الصغير والكبير وقد يدفع بالنادرة، ويتوخّى تتطيب الخواطر.

كان الشيخ جعفر نقدي أحد تلامذة الشيخ آل ياسين قد وعده بكتاب فأخلف الموعد نسياناً أو انشغالاً، فالتقى به الشيخ، وهو في طريقه الى الصلاة في الحرم فارتجل قائلاً:

وعدتني بكتاب فما وفيت بوعدِ
إنّ الوعود ديونٌ وأنتَ جعفر نقدي

فانظر الى هذه السّلامة العفوية، كيف أفرغت هذه البلاغة السائرة في دلالتها ثوريةً.

٢. السيد محسن الحكيم قدس سّره الشّريف، وكان معظّماً لأهل الدين، ومبجّلاً لمراجع المسلمين، ومتابعاً شؤون العلماء غير العراقيين في إقامتهم، وحلّهم وترحالهم، حتى لا يهدأ نهاره، ولا ينام ليله.

خطب أحد طغاة الحكّام في عام (١٩٦٠م) خطاباً متلفزاً، وهدّد مراجع المسلمين من غير العرب بإلقائهم وراء الحدود!! فما كان من الإمام الحكيم - وقد أشعر بمضمون الخطاب - إلاّ أنّ ترك كلّ واجباته وأعماله وطقوسه، واصطحب جملة من أولاده و ثقاته، وقصد دار كلّ مرجع من مراجع الدين من غير العرب، ودخل الى دار كل واحد منهم على حدة، وطمأن الجميع ببلاغته المعهودة، وصلابته الفائقة وطريقة أطروحته في عرض القضايا ذات البال، وبوقاره وسمته العظيم، أبدى تضامنه المطلق معهم حتى النفس الأخير، وأدركت الدولة ما قام به الإمام الحكيم في مبادرته هذه، فالغي الموضوع جملة وتفصيلاً.

توفّي آية الله العظمى السيد مهدي الحسيني الشيرازي قدّس سره في كربلاء (١٩٦٠م)، وكان زعيم كربلاء المطلق، ووصل نبأ وفاته الى النجف، وأخبر السيد الحكيم في ديوانه بذلك، وكنت حاضراً هناك فحينما سمع أكثر من قول لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم إنا لله إنا اليه راجعون، وكان المقام يقتضي أنّ يقرر السيد الحكيم حجم الوفد الذي سيمثّله موفداً الى كربلاء لحضور مراسم التشييع والدفن، وقرّر حين إذ أنّ يذهب الى كربلاء لحضور المراسم بنفسه وهو منحرف الصحة، وسافر فوراً الى هناك، وكان منظراً عاطفياً حزيناً بكت له مئات الآلاف من المشيّعين- وكان عددهم يتجاوز المليون مشيع- حينما أقبل أبناء الفقيد، وفي طليعتهم آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي ولده الأكبر وأخوه السيد الشهيد السيد حسن وآية الله السيد صادق، واحتضنهم السيد الحكيم واحتضنوه وسالت الدموع كلّ مسيل، وظل السيد الحكيم سائراً على ضعفه بالتشييع حتى الدفن في الصّحن الحسيني، وفي غرفة زعيم الثورة العراقية الشيخ محمد تقي الشيرازي.

وفي عام (١٩٥٦م) قام الاعتداء الثلاثي على مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، فسارت المظاهرات الصّاخبة في كلّ العراق، واتجه أغلبها الى النجف الأشرف، وكان الإمام السيد محسن الحكيم هو المرجع الأعلى حين ذاك، فأضرب هو وبقية المراجع العظام عن الصلاة جماعة في الحرم الشّريف والصحن الحيدري والمساجد، وتعطّلت الأسواق والمدارس والحوزة العلمية، وعادت النجف الأشرف شعلة ملتهبة من الغضب والحماس، واستمر هذا المناخ أكثر من خمسة عشر يوماً، ممّا أحدث ضجّة كبرى في العراق، وموجة من الاحتجاجات الصاخبة، وكانت المظاهرات الشعبية قد استقطبت حياة النجف العامة، فسقط أكثر من قتيل في تلك المظاهرات بعد أنّ أطلقت عليهم النار، وكان في مقدمة القتلى أحمد الشيخ محمد جواد الشيخ راضي سبط آية الله العظمى السيد حسين الموسوي الحمامي، فانفجر الموقف في النجف الأشرف انفجاراً

هائلاً باعتبار الحدث اعتداءً مزدوّجاً على نجفي سليل أُسرة علمية عريقة، وسبط مرجع ديني كبير، واضطرب الوضع، وعطل السيد الحكيم الصلاة جماعة وبحثه العالي في الدرس الخارج، فأوفد رئيس الوزراء نوري السعيد لسماحة السيد وفداً حكوميّاً ضمّ كلاً من الحاج عبد الهادي الجلبي، وعبد الوهاب مرجان، والشيخ خيّون العبيد، معتذرين مما حدث عند سماحة الإمام الحكيم، وأنّ الدولة مستعدة للتكفير عن هذا الذنب، وإعطاء الدية الشّرعية لذوي القتلى في مظاهرات النجف الأشرف، فزجرهم السيد الحكيم وأنّبهم تأنيباً عنيفاً، والقى باللاّئمة على الدولة والسلطة العسكرية، ووصف الحكم بالدكتاتورية والاستبداد وعدم الحكمة، وأعلن سخطه وأنّه لا يستطيع التعامل مع القتلة، وكان موقف الوفد شريفاً إذ أعلن استعداده لتنفيذ أوامر الإمام الحكيم مهما كانت، وقد ضاقت على الدولة الأرض بما رَحُبت، وبعد اللتيا والتي، قال السيد الحكيم: إنّ القضية وإنّ كانت عامة، إلاّ أنّها أولاً وبالذات ترتبط بأحد المراجع العظام وهو السيد حسين الحمامي، فعلى الدولة التوجّه إليه، والاعتذار منه، والاستماع لوجهة نظره، بعد محاسبة المسؤولين عن اطلاق النار، وامتثل الوفد الأمر، وذهب الى السيد الحمامي قُدّس سره وتوصّلوا معه الى حلٍّ فيه كثير من الحكمة.

لقد كان بإمكان السيد الحكيم ألغاء هذا الدور البارز للسيد الحمامي، ولكن ورعه وتقواه يأبيان أنّ لا يبخس الناس أشياءهم، وأنّ يبدي اتحاد كلمة المراجع عند الأزمات والطوارئ، وأطفئت النائرة الكبرى في النجف حتى حين، وإنّ أغفت على نار متوقّدة تحت الرماد الأسمر.

كان السيد الحكيم معنيّاً باحتضان المراجع كافة حتى عند وفاتهم، وتهيئة المناخ المناسب لإعلاء شأنهم، فقد حضر تأبين السيد الحمامي (١٩٥٩م) في ظروف صعبة، وكنتُ عادةً أمثّله في الشّعر، وأُلقيت قصيدة أثارت حفيظة العملاء والسلطة مطلعها:

حفّوا بنعشِكَ والجموع تكبِّرُ فكأنّه فلكٌ وأنتَ المحورُ

وكان حضور السيد إيذاناً بحربٍ لا هوادةَ فيها على الشيوعية، وذك قبل إصدار فتواه في تحريم الشيوعية، وكانت القصيدة صارخة في توجّهاتها الثورية، وحضور السيد كان يعني التأييد الكامل لذلك.

ولقد رعى سماحة الإمام الحكيم حفلة تأبين الإمام الشيخ عبد الكريم الجزائري عام (١٩٦٠م)، وألقيت قصيدة في المهرجان الذي أقيم في الجامع الهندي، وكانت شديدة الوقع على النظام، ومطلعها:

فجَعتَ بخطبك الجلل البلادا وأثكلت العروبة والجهادا

ورعى سماحته الحفل التأبيني المهيب في أربعين آية الله العظمى السيد محمد باقر الشخص الإحسائي عام (١٩٦٢م) وشاركت بقصيدة متلهبه مطلعها:

أزفَ الوداع، وقد حُمِدتَ بنا البقا سرعانَ ما طويت عهود الملتقى

إنّ حضور الإمام الحكيم في الساحة عند إعلاء كلمة المراجع العظام كان متميّزاً، وكانت مشاركة ممثليه في ذلك علماءً وشعراءً تعني معايشته من الأعماق لكل تلك المظاهر.

أكتفي بهذين النموذجين تنظيراً لحالة مهمّة هي تعاون المراجع فيما بينهم، وهكذا كانت سيرة سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي قُدس سره الشريف في ظواهر عديدة، وكذلك هي سيرة آية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني مدّ ظله الوارف في أكثر من ظاهرة، وأبرز من موقف، وأكبر من نموذج، وهكذا هي سيرة آية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم وبقية المراجع.

كلّ ذلك نابع من حقيقة مثالية في الصّفاء والنقاء والترسّل والسّلامة، والعمل من أجل الله وحده.

وما توفيقي إلاّ بالله العلي العظيم، عليه توكلتُ وإليه أنيب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الفصل الثاني

تأسيس الكيان المرجعي في النجف الأشرف

١. البداية الأولى للتأسيس.

٢. هجرة الشيخ الطوسي الى النجف الأشرف.

٣. مهمة الشيخ الطوسي في إعداد العلماء.

٤. نجل الشيخ الطوسي يواصل المسيرة.

٥. حفيد الشيخ الطوسي يتسلم المرجعية.

البداية الأولى للتأسيس

في منظور تأريخي أولي تبدو النجف الأشرف في القرن الرابع الهجري حاضرة شبه علمية يتدارس فيها (علم الفقه) ويتواجد فيها كوكبة من الفقهاء الأعلام الى جنب المجاورين وجمهرة العلويين القاطنين، وأصناف من المترددين والزائرين، وطائفة كبيرة من سدنة الروضة الحيدرية وخدمها وأصحاب المهمات الخدمية والعمال. فقد أشارت بعض النصوص المتوافرة في حنايا التأريخ: أنّ عضد الدولة قد قصد النجف الأشرف لزيارة ضريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، وبعد أداء مراسم الزيارة، طرح في الصندوق - وقد يراد به صندوق في الحرم العلوي للتبرعات والإعانات - دراهم كثيرة نال كلّ واحد من الناس منها واحداً وعشرين درهماً. وكان عدد العلويين ألفاً وسبعمائة، وهو عدد كبير بالنسبة لذلك العصر المليء بالمفاجئات لمضايقة سكّان النجف الأشرف وعمّارها في ظروف سياسية صعبة في ظل الحكم العباسي المتهوّر، والقيمّين على إدارة شؤون العراق من المتزلفين لسياسة الحكّام والأمراء والولاة وقادة الجيش، ووزع عضد الدولة على المجاورين وغيرهم خمسمائة ألف درهماً، وعلى (المترددين) خمسمائة درهم- وقد يُراد بهم من يتردّد على النجف الأشرف لزيارة مرقد أمير المؤمنينعليه السلام-ووزّع على (الفقهاء) و الفقراء مبلغ ثلاثة ألاف درهم، وعلى المرتبين من الخازن والبواب على أيدي أبي الحسن العلوي وأبي القاسم بن أبي عائف، وأبي بكر بن سيار...[1].

ونستوحي من هذا الاصطفاف البياني في هذه التشكيلات المتواجدة في حاضرة الإمام عليعليه السلام عدة دلالات لا تخلو من إضاءات جديدة في أوليات تأسيس الكيان

(١) ظ: أبن طاووس/ فرحة الغري/ ١١٣- ١١٤.

العلمي الذي تطوّر فيما بعد إلى كيان مرجعي تدريجياً على هذا النحو من التصّور التأريخي الاستقرائي:

١. طبيعة الانعطاف الولائي- ظاهراً أو واقعاً- لعضد الدولة وإزدلافه لحضرة أمير المؤمنين عليه السلام ولسكّان مدينته المقدّسة متعهداً لها، ومتفقّداً لأهلها وزوّارها وفقرائها وفقهائها وسدنة الروضة الحيدرية وقوامها، مما يعني رعاية خاصة؛ في ملحظ سياسي أو عقائدي أو كلاهما في وقت واحد.

٢. ورود عبارات لها دلالتها وتصريحها في الاستيطان السكّاني، والزيارة المنتظمة، ومراسم العبادة لله عز وجلّ، فالمترددون عادة هم أولئك الذين يقصدون النجف الأشرف لزيارة الإمام عليه السلام بصورة قد تكون استمرارية وغير منقطعة حتى أُطلق عليها هذا المصطلح، والمجاورون هم الذين استوطنوا النجف الأشرف للزيارة المستحبّة، أو للتكسب المندوب إليه، أو للدراسة العلمية على وجه القربة المطلقة.

وأما الفقهاء وهو مصطلح لا يصدق على غيرهم، فالمراد به المتخصّصون لمدارسة العلوم الفقهية وفروعها المتشابكة من باب المقدمات لدراستها، وهم المواظبون على ذلك حتى يصّح أطلاق ذلك عليهم. أما الفقراء فمعروفون.

٣. ومصطلح الفقهاء يشير الى وجود حركة علمية، وموجة من التعليم الفقهي حتى يتكامل ما يصحّ معه وصف المثابرين عليه والمتابعين له بأنهم فقهاء، ومعنى هذا أن تلك الحقبة قد سبقت هجرة الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) الى النجف الأشرف، بل إن وجود ذلك مما شجّعه على اختيار النجف مركزاً للدراسات الفقهية المتخصّصة، مضافاً الى الأسباب الوجيهة التي أبتعد فيها بالحوزة عن المناخ السياسي الطائفي الجديد على يد السلاجقة.

ومن القريب جداً توافر مدرسة أولية لدراسة الفقه وعلومه على يد هؤلاء الفقهاء قلوّا أو كثروا.

يقول الأستاذ علي الشرقي: (وقد يدّل على وفرة طلاّب العلم في النجف كثرة ما بذله عضد الدولة في القرن الرابع على علماء النجف وفقهائها)[1].

وبالإمكان إعتبار صحّة وجود الفقهاء في النجف بما قرّره الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمة بقوله: (إن مدينة النجف أصبحت عاصمة التدريس للفقه الجعفري وعلوم الدين منذ عصر آل بويه وإعمارهم المرقد العلوي، وإجزالهم الصِّلات والرواتب للمقيمين به)[2].

وهذا ما يؤكّد ويؤيد ويشير بوضوح الى قدم المدرسة العلمية في النجف قبل الطوسي الذي هاجر اليها بعد إنحسار الحكم البويهي في عام (٤٤٧هـ) على أيدي السلاجقة الفاتحين أو الغازين أو الغائرين على بغداد، وكانت هجرته عام (٤٤٨هـ).

١. وقد أستوحى من الإجازات العلمية في الرواية والحديث وحتى الكتب الدراسية في مشهد الإمام علي عليه السلام لجملة من العلماء الربانيين قبل هجرة الطوسي الى النجف بنصف قرن تقريباً[3].

لهذا وسواه نجد الدكتور حسن الحكيم يرى أن إصدار الإجازات العلمية في مدرسة النجف الأشرف حدثاً علمياً مهمّاً في تأريخها، وقد أتسع إصدار هذه الإجازات العلمية بعد هجرة الشيخ الطوسي الى النجف الأشرف[4].

ووجود الفقهاء في النجف الأشرف قبل هجرة الشيخ الطوسي ظاهرة لا تحتاج الى الاستدلال على وجودها، فهي أمر مفروغ عنه بحدود معينة، على أن لتلك الحدود دلالتها

(١) علي الشرقي / الأحلام / ٧٣.

(٢) ظ: تأريخ الجامعات الأسلامية/ دار الطباعة المغربية/ (ص: ٤٧) تطوان / ١٩٥٣م.

(٣) ظ: النجاشي/ الرجال ٥٤، الشهيد الثاني/ الدراية / ج٤.

(٤) ظ: حسن الحكيم / المفصل في تأريخ النجف الأشرف ٤/ ١٧.

الإيحائية الكاشفة عن ظاهرة فريدة، تناولتها أقلام المؤرخين من جهة، وأصحاب الرجال من جهة أخرى، وتداول أمرها جملة من الباحثين والمشاهدين لها مشاهدة ميدانية، وذلك أن جمهرة ليست بالمجهولة من الأعلام كانت بحيث تؤكّد لنا بكلّ وضوح واستقراء وعرفان أن جملة من سدنة الروضة العلوية وسكّانها، كانوا من العلماء، وكان لهؤلاء جملة من التلامذة والطلاب، ومن هؤلاء السدنة والسكّان: آل طحال، وآل سدرة، وآل شهريار، وقد ذكرت هؤلاء الأعلام جملة من المؤلفات(1).

وهنالك نص جدير بالأهمية، ملخّصه: أن الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، قد سمع في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام عام (٣٥٤هـ) من الشيخ محمد بن الفضل الكوفي، وذلك أثناء مروره بالنجف في طريقة الى الحج، وقد أشار الشيخ الصدوق الى تلمذته عليه في مسجد أمير المؤمنين عليه السلام(2).

وبالإمكان عدّ جميع ما تقدّم ذكره إرهاصاً أولياً لتأسيس مدرسة النجف العلمية، حتى إذا كانت هجرة الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي أليها بدأت الحياة العلمية بالتطور وأخذت الشكل الرتيب الذي يمكن أطلاق أسم المدرسة عليه اصطلاحاً، وقد حقّق الشيخ الطوسي بذلك ما لم يُحقّقه سواه على المستوى العلمي والفكري والتنظيمي، فكان بحق المؤسس والرائد والمجدد في وقت واحد.

---

(1) ظ: البراقي / تأريخ الكوفة/ ٢١٨، الخوانساري / روضات الجنات ٤/ ٢٧، أغا بزرك/ مقدمة كتاب التبيان في تفسير القرآن للطوسي ١/ ١٠١، عباس القمي / سفينة البحار ١/ ٦٩٦.

(2) ظ: الصدوق / الآمالي / ٣٤٥.

هجرة الشيخ الطوسي الى النجف الأشرف

لم تكن هجرة الشيخ الطوسي الى النجف الأشرف أمراً اعتباطياً، وإنما أملته عليه الظروف السياسية المعقّدة التي رافقت وجوده في بغداد بعد فتنة السلاجقة، فقد كُبست داره، وأُحرقت كتبه، ونُهب أثاثه، وأُحرق كرسي الكلام الذي يجلس عليه، وهو يدرس ويفتي الناس كلاً على مذهبه[1].

يقول الأستاذ ضياء الدخيلي: (إن الشيخ الطوسي أقام نهضه علمية كبرى، ونظّم الحركة الفكرية وقواها، ورفع منار الثقافة الإسلامية؛ فأمّ مدينة النجف الأشرف من سائر أقطار الشيعة جمعٌ غفير ليرتشفوا أفاويق العلم، وقد صارت منذ ذلك اليوم مركزاً مهماً من مراكز العلوم الإسلامية الكبرى)[2].

ولا غرابه أن يقول صديقنا الدكتور حسين أمين رحمه الله بأن الشيخ الطوسي قد جعل مدرسته هذه: (أوسع وأهم جامعات العالم الدينية)[3].

وكانت مؤلّفات الشيخ الطوسي في التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والدراية والرجال مدار البحث العلمي والتدريس العالي، فكان التفسير المقارن في كتابه العظيم (التبيان في علوم القرآن) أبرز الملامح التقريبية بين وجهات النظر لدى المذاهب الإسلامية لا سيما في الكلام، أعني الإمامية والأشاعرة والمعتزلة، فكان تفسيراً جامعاً مانعاً على حدّ تعبير أهل المنطق. وكان كتابة (الخلاف) قد جمع آراء فقهاء مذاهب الإسلاميين حتى قال

(١) ظ: أبن الجوزي / المنتظم ٨/ ١٧٣ وما بعدها.

(٢) ظ: تأريخ الحياة العلمية في جامعة النجف الأشرف / مجلة الرسالة المصرية / العدد (٢٧١) السنة السادسة / ص: ١٥٤٨/ القاهرة / ١٣٥٧هـ.

(٣) تأريخ العراق في العصر السلجوقي / ٣٧٩/ مطبعة الأرشاد/ ١٩٥٢م.

نفسه عنه: (أملاء مسائل الخلاف بيننا وبين من خالفنا من جميع الفقهاء ممن تقدّم منهم ومن تأخّر، وذكر مذهب كلّ مخالف على التعيّين، وبيان الصّحيح منه، وإن أقرن كل مسألة بدليل - نحتج به على مَن خالفنا - موجب للعلم)(١).

وكان (الأستبصار) و(تهذيب الأحكام) وهما اثنان من كتب الإمامية الأربعة في الحديث الشّريف جهداً جباراً نهض به الطّوسي لحفظ أحاديث أهل البيت بأسانيدها وطرقها، وهما اثنان من كتب الإمامية في الحديث الشريف، وكان أول كتب أحاديث أهل البيت للشيخ الكليني (ت٣٢٩هـ) (الكافي) والثاني للشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) وأسمه (من لا يحضره الفقيه).

وكان كتابه النهاية في الفقه، وكتاب المبسوط من أجل الأعمال الفقهية التي حفظت لنا أصول هذا الفن بما لا نظير له، حتى روى المحدث الميرزا حسين النوري: أنّ معارضة لهذا الكتاب حصلت من بعض الفقهاء، فرأوا أمير المؤمنين عليه السلام في الرؤيا، وقال لهم: (لم يُصَّنف مصنف في فقه آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً أولى بأنّ يُعتمد عليه، ويُتخذ قُدوة ويُرجع اليه من- كتاب النهاية – الذي تنازعتم فيه، وإنّما كان ذلك لأن مصنفه إعتمد في تصنيفه على خلوص النيّة لله والتقرّب والزلفى لديه، فلا ترتابوا في صحّة ما ضمّنه مصنفه، واعملوا به، وأقيموا مسائله)(٢).

وكتابه في (الغَيبة) من أصحّ الكتب في روايات الأحاديث الواردة من آبائه في الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه وهو من مصادر الدرجة الأولى في الموضوع.

ويبدو أنّ كتبه هذه قد باشر بتدريسها في النجف الأشرف طيلة اثني عشر عاماً التي قضاها في النجف حتى وفاته في محرم (٤٦٠هـ)، وقد تحدّث ولده الحسن بن الشيخ

(١) الخلاف ١/ ٢/ المطبعة الإسلامية/ طهران/ ١٣٧٠هـ.

(٢) دار السلام ٢/ ٤٢٥/ المطبعة العلمية / قم.

الطوسي فقال: (حدّثنا الشيخ السعيد الوالد أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله في ربيع الأول من سنة خمس وخمسين وأربعمائة)[1].

ولعلّ ما ذكره محمد بن أحمد بن شهريار الخازن يبدو بصورة أوضح، قال: (حدثنا الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي رحمه الله بالمشهد المقدّس الغروي عليه وعلى ساكنه أفضل الصّلوات في شهر رمضان من سنة ثمان وخمسين وأربعمائة)[2].

مهمّة الشيخ الطوسي في إعداد العلماء

كانت مهمّة الشيخ الطوسي إعداد جيل من العلماء والفقهاء والمجتهدين في جامعة النجف الاشرف لدى تأسيسه لها على المنهج الأكمل حتى عادت مدرسة لها خصائصها ومميزاتها في ضوء ما أرسى قواعده في بغداد كل من الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣هـ) وتلميذه علم الهدى السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ)، ولا غرابة في ذلك فهو الوريث الشّرعي لهما في علمه وموسوعية بحوثه، ومرجعيته العليا.

ويبدو أن الشيخ الطوسي أعلى الله درجته قد تفرّغ لشؤون التدريس والمرجعية أكثر من تفرغه للتأليف في النجف الأشرف، فإن مؤلّفاته ومصّنفاته التي طَبّقت شهرتها الآفاق كفيلة بأن تكون مناهج دراسات عليا متفّوقة، وقد كان يدرسها طلابه ويقرّرها، فيأخذونها عنه تلقياً وقبولاً وقراءة على يديه، وفي مؤلّفاته هذه غنية كبرى لهم في التفسير والحديث والفقه وأصوله، ولهذا وذاك كان إنشغاله بالتدريس حثيثاً، وقيامه بشؤون المرجعية العليا حائلاً دون توجّهه وتفرّغه للتأليف، على أن ما قدّمه في بغداد، وما درسّه في النجف الأشرف، وما أضاف إليهما من (الآمالي) يعّد مدرسة متطوّرة قائمة بذاتها في

(١) ظ: الطوسي/ الامالي ١/ ٢.

(٢) ابن طاووس/ علي بن موسى/ مهج الدعوات/ ٧٨/ طبع النجف (١٣٢٣هـ).

الفقه المقارن والتفسير المقارن وعلم الأصول وعلم الكلام وسوى ذلك حتى أضاف إليها كتاب الآمالي في مجالس أملاها على تلامذته من العلماء.

(وكانت أمالي الشيخ الطوسي قد دُوّنت في مشهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وإحتوت على ما كان يُلقى على طلابه أثناء مجالسه من أحاديث متنوّعة. وقد عقد المجلس الأول في شهر ربيع الأول عام (٤٥٥هـ) وإستمر الأملاء حتى عام (٤٥٨هـ))(١).

وكان كتاب (إختيار الرجال) والمعروف بـ (رجال الطوسي) وكتاب (الفهرست) من أعظم إنجازات الطوسي العلمية.

وهنالك كتاب لم يتمّه اسمه (شرح الشرح) وقد حالت وفاته دون إكماله.. قال الحسن بن مهدي السليقي، وهو أحد تلامذته الثقات متحدثاً عن ذلك: (وإن من مصنفاته التي لم يذكرها في الفهرست كتاب(شرح الشرح) في الأصول، وهو كتاب مبسوط أملى منه شيئاً صالحاً ولم يتمّه، ولم يصنف مثله)(٢)، هذا وكانت وفاته في محرم الحرام عام (٤٦٠هـ).

وكان المرجع الأعلى من بعده ولده المعظّم الشيخ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي الذي انتهت إليه أكثر الإجازات العلمية عن أبيه، لأن والده الشيخ الطوسي قد أجازه بذلك عام (٤٥٥هـ)(٣).

---

(١) حسن الحكيم/ المفصل في تأريخ النجف الأشرف ٤/ ٣١.

(٢) البحراني/ يوسف بن احمد(ت١١٨٦هـ) لؤلؤة البحرين/ ٢٩٤ تحقيق: محمد صادق بحر العلوم/ مطبعة النعمان/ النجف الاشرف/ ١٩٦٩م.

(٣) ظ: الخوانساري/ محمد باقر الموسوي(ت١٣١٣هـ)/ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ٦/ ٢٩١/ دار المعرفة/ بيروت/ ١٩٧٤.

نجل الشيخ الطوسي يواصل المسيرة:

وكان نجل الشيخ الطوسي هذا في الدرجة العليا من الوثاقة والعلم والإتقان بما أجمع عليه به في عصره، حتى أنه - قُدس سره - لقُبّ من قبل العلماء بالشيخ المفيد حيناً، وبالمفيد الثاني حيناً آخر، تمييزاً له عن الشيخ المفيد أستاذ أبيه.

وقد قال عنه الحر العاملي رضوان الله عليه:

(كان عالماً، فاضلاً، فقيهاً، محدّثاً، جليلاً، ثقة)[1].

وكان المتصدر لشؤون الأفتاء والمرجعية وقيادة الحوزة العلمية.. بل وأستاذ الأساتيذ في الإفاضة والتدريس حتى قال ابن حجر: (صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي عليه السلام)[2].

وقد تحدّث السيد محمد باقر الصدر عن مرجعية أبي علي الطوسي بن الشيخ الطوسي فقال: (من الثابت تأريخياً أنه كان حيّاً سنة (٥١٥هـ).. أي أنه عاش بعد هجرة أبيه الى النجف قرابة سبعين عاماً.. وكان شريكاً في الدرس عند أبيه مع الحسن بن الحسن القمي..فإذا عرفنا أنه خلف أباه في التدريس والزعامة العلمية للحوزة في النجف بالرغم من كونه من تلامذته المتأخرين في أغلب الظن، إستطعنا أن نُقدّر المستوى العلمي العام لهذه الحوزة... ويتضاعف الإحتمال في كونها حديثة التكوين)[3].

---

(١) الحر العاملي/ أمل الآمل/ ق٢/ ٧٦ تحقيق أحمد الحسيني.

(٢) ابن حجر / لسان الميزان ٢/ ٢٥٠.

(٣) محمد باقر الصدر/ المعالم الجديدة للأصول/ ٦٥/ مطبعة النعمان/ النجف/ ١٣٨٥هـ.

ولا نوافق الشهيد الصدر بكون زعامة أبن الطوسي للحوزة حديثة التكوين، وأنه في دور الطفولة لأمور:

الأول: أن الشيخ الطوسي قد رسّخ بشكل دقيق دعائم الحوزة العلمية في النجف، وهي إمتداد لمدرسة السيد المرتضى والشيخ المفيد في بغداد، وليس من المعقول أن يُغادر المرجع بغداد في تلك الحقبة الحرجة الى النجف ولا يلتحق به طلابه، وعلى هذا فالحوزة متأصّلة الجذور عريقة المصادر.

الثاني: ما روي أن أباه الشيخ الطوسي قد أجازه بأكثر الإجازات العلمية رواية عنه عام (٤٥٥هـ) كما سبق بيانه.

الثالث: إن ابن الطوسي لم يكن في دور الطفولة، وقد شارك أباه في التلمذة على بعض أعلام بغداد زمن أبيه فيها، كأبي الطيّب النحوي، والخلّال، والتنوخي[١].

الرابع: أنه إستمع الى سلار بن عبد العزيز، ومحمد بن الحسين المعروف بأبن الصقال[٢].

كما كان تلميذاً لوالده في النجف الأشرف مع بقية أعلام مدرسته.

وقد أورد الدكتور حسن الحكيم في جهدٍ قيّمٍ مسرداً بمن روى عن ابن الشيخ الطوسي من تلامذته، بما يكشف عن أصالة منزلته العلمية، وكان منهم تسعة وعشرون عالماً، وعقّب على ذلك بالقول:

(ويشكّل هؤلاء الأعلام حوزة الشيخ أبي علي الطوسي في النجف الأشرف خلال القرن السادس الهجري، وهم يمثلون مدرسة النجف التي حافظ على إستمراريتها

(١) ظ: جعفر آل محبوبة/ ماضي النجف وحاضرها ٢/ ٤٧٥.

(٢) ظ: الخوانساري/ روضات الجنات ٢/ ٣٧٢.

الشيخ أبو علي الطوسي ليسد الفراغ الكبير الذي أحدثته وفاة شيخ الطائفة، وهو بذلك قد تولّى الحفاظ على المدرسة والعمل على بقائها تاركاً تراثاً علمياً كبيراً)[١].

يُضاف الى هذا كتابه المعروف بالآمالي أو المجالس الذي إستمرّ بإملائه على تلامذته طيلة خمسة عشر عاماً[٢].

وقد وُصف هذا الكتاب على لسان المحقق النوري بأنه: (الدائر بين سدنة الأخبار) وله مؤلّفات أخرى منها: الرشد الى سبيل المتعبد، وكتاب الأنوار، وتقريض كتاب (حجّة التفضيل) الذي هو بخطه، قال: (نظرت في أصول هذا الكتاب فوجدته قد إشتمل على أشياء لم تسبق مصنفه - أحسن الله توفيقه- إليها من حسن اللفظ، وغزارة المعنى، ولطيف المناظرة المستخرجة من كتاب الله عزّ وجلّ، وهذا يدلّ على فضل كثير وعقل غزير، والله ينفعه ويجازيه أفضل ما يجازي مثله ممّن سلك سبيله، وتوخّى طريقه، وجرى في ميدانه).

وكتب الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي حامداً ومصلياً على رسوله وأهل بيته صلوات الله عليهم في رجب من سنة اثنين وسبعين وأربعمائه[٣].

وقد تُوفّي أبو علي الطوسي في مدينة النجف الأشرف بعد عام (٥١٥هـ) ودفن مع أبيه عند رجليه)[٤].

---

(١) حسن الحكيم/ المفصل في تأريخ النجف الأشرف ٤/ ٤٩٥٠ نشر المكتبة الحيدرية/ قم/ ١٤٢٨هـ.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٥٠ وأنظر مصادره.

(٣) آغا بزرك/ الذريعة ٦/ ٢٦٠/ دار الكتب العربي/ بيروت/ ١٣٩١.

(٤) جعفر الطباطبائي بحر العلوم/ تحفة العالم في شرح خطبة المعالم/ ١/ ٢٠١/ مطبعة الغري/ النجف الأشرف/ ١٩٣٦م.

حفيد الشيخ الطوسي يتسلّم المرجعية:

ولدى وفاته إنتقلت المرجعية الى ولده أبي نصر محمد بن الحسن بن أبي جعفر بن الحسن الطوسي(الجدّ) فأدار شؤون الحوزة العلمية وتولّى قيادتها، ورعى طلابها، حتى قال الكتبي عنه: (شيخ الشيعة وعالمهم، وابن شيخهم وعالمهم، رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب الى العراق وحملوا إليه، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد)[1].

ووصفه أيضاً بالقول في الصفحة نفسها بأنه: كان ورعاً متألّهاً، كثير الزهد، بين عينيه كركبة البعير من السجود، وكان يسترهها.

ويقول العماد الطبري: (لو جازت على غير الأنبياء صلاة لصلّيت عليه)[2].

ويبدو أن التأريخ الرسمي قد ظلم هذا المرجع كما ظلم كثيراً من العلماء، فلم نجد لآثاره شيئاً يذكر..ولا لأيامه أثراً مسطوراً..فأنا لله وإنا إليه راجعون.

ومهما يكن من أمر، فقد بقيت هذه المدرسة صامدة في أحلك الظروف، وكانت لها مهمّة كبرى تعنى بتخريج العلماء والمجتهدين، وإعداد الفقهاء والمدرّسين، وتطوير الحركة العلمية بما تتعدّى حدود المذهبية والطائفية لتمتد جذورها الى أعماق المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد غرس الشيخ الطوسي البذرة الأولى لهذه المدرسة الكبرى.. فترعرعت بوجوده الشريف، ونمت في ظل المرجعية المباركة، وأتت أُكلها مدى أجيال وقرون... وتخرّج فيها آلاف المجتهدين من مختلف الديار الإسلامية.. وقذفت الحواضر الدينية بأفلاذ

---

(١) محمد شاكر الكتبي/ عيون التواريخ ١٢/ ٤٠٤ تحقيق د.فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم/ دار الحرية/ بغداد/ ١٣٩٧هـ.

(٢) ابن العماد/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤/ ١٢٦.

أكبادها من الشباب الواعي المتحفّز، لينهلوا من هذا المورد العذب جيلاً بعد جيل.

وكانت أشذاء هذه المدرسة قد طيبت بأنفاسها أرواح الآلاف من المشتغلين بالعلم والعمل الصالح، فأغنوهاطيلة عشرة قرون باللباب من الأفكار والآثار والمصنفات، وإحتضنوا الى جنبها علوم العربية وآدابها؛ مضافاً الى علوم الشريعة وأسرارها.. وهي وإن إنتقلت بعد القرن السادس الهجري الى الحلّة الفيحاء حيناً.. والى كربلاء المقدّسة حيناً آخر.. وامتدت بعطائها الجمّ الى جبل عامل وسواه، إلاّ أنّ ساحتها لم تخلُ من أساطين العلم وفقهاء الإمامية، وأعلام الأساتيذ.. ثم ما لبثت أن عادت برمتها الى النجف الأشرف..وذلك إمتداد لأنوار وإفاضات أمير المؤمنين عليه السلام باب مدينة علم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فقد ثبت متواتراً عند جميع أهل الإسلام قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

(أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها) (١).

وفي هذا الصّدد نجد الأستاذ الشيخ علي الشرقي عارضاً لما كانت عليه الهجرة الى النجف علمياً، ومنها الى الحلة وسواها، ولم يؤثر ذلك على كيانها وإستقطابها، فيقول: (وبقيت تلك الهيأة العلمية في النجف الأشرف الى القرن السابع للهجرة، وفيه إنتقل معظمها الى الحلة السيفية، وبرغم هذا الأنتقال لم ينضب المنبع. على أن ذلك لم يدم، فما عتمت الحلة إلاّ أنّ ترد الأمانة الى أهلها لتعود النجف المركز الوحيد للعلم والعلماء) (٢)، ولنا أن نُعلّق على هذا النص الجميل ونناقش بعض فقراته:

١. لسنا نسلّم بأن معظم الهيأة العلمية في النجف الأشرف قد انتقل الى الحلّة الفيحاء، فوجود المراجع في الحلة لا يعني إنتقال الحوزة العلمية في معظمها إليها، بل هي حاضرة أخرى للعلم.

---

(١) ظ: كتب الصحاح والأحاديث عند الجمهور والإمامية في باب (العلم والعلماء) وفيها الأجماع على صحة هذا الحديث متنا وسنداً

(٢) علي الشرقي/ الأحلام/ ٢٣/ الطبعة الأولى/ بغداد/ ١٩٦٣م.

٢. في النص إلتفاتة دقيقة كون المنبع وهو النجف الأشرف لم ينضب، وإشعاعه لم يتعتم، فما عتمت الحلة إلاّ أنّ ترد الأمانة الى أهلها لتعود النجف(المركز الوحيد) للعلم والعلماء بإفاضة أمير المؤمنينعليه السلام.

وهذا ما يدعو البحث الى تسليط الأضواء الكاشفة عن تلك الحقبة المتشابكة بالآراء المتضاربة.. ونأخذ باسلم القرارات الموضوعية دون السطحية المبهمة التي لم تستند الى ركن تأريخي وثيق، أو أثر نصّي معتمد.

وربما كانت مقولة (ربَّ مشهورٍ لاَ أصل له) مما ينطبق على جزء كبير على هذه الأفرازات المتردّدة في الأحكام.

ولكننا سنعالج أساسيات الأرتباط المرجعي بمشكلات العصر في القرن العشرين في بعض الفصول، ومن ثم نعرض لأستمرارية المرجعية مدى العصور في مناخ النجف الأشرف العلمي حتى القرن الخامس عشر الهجري، هذه الفصول ستأخذ على عاتقها بيان نضال المرجعية العليا في هذا القرن إمتداداً لتلك العصور السالفة، وتعالج العقبات القائمة في طريق المرجعية العليا، كما سنعرض بعض الحلول لأفرازات التحضر في الأعلام والقيادة، والتصدّي للأعلام المضاد، والإعلام الإيجابي والعمل على صيانة الحقوق من خلال هيأة واعية للرقابة المالية، ومواكبة حياة التطور بقيام مؤسسة مسؤولة عن قضايا النشر والطباعة والتوزيع.

هذه المعالم توضع بين يدي الباحث الأجتماعي والمرجعية الرشيدة ومن ثَمَ في فصول هذه الرسالة القادمة سنقف خاشعين أمام جمهرة المراجع والعلماء والأعلام الذين أثروا في إستمرارية مدرسة النجف العلمية منذ وفاة حفيد الشيخ الطوسي أبو نصر محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي، في القرن السادس الهجري حتى القرن الخامس عشر الهجري بإذن الله تعالى، فمنه العون والتسديد، وهو أرّحم الراحمين.

الفصل الثالث

نضال المرجعيّة العليا في النجف الأشرف
حتى القرن العشرين إنموذجاً

١. النضال العلمي.
٢. النضال السياسي.
٣. النضال العسكري.

أوليّات

إن النضال المرجعي للإمامية يمتد عبر العصور السالفة وفي خلال اثني عشر قرناً من الزمان، فمنذ أن تسلّم الشيخ الأكبر محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) بدأت المشكلات السياسية والطائفية في عرض مرجعيته العليا، وكابد من الآلام ومجاراة السّواد الأعظم، ومحاججة المذاهب الإسلامية، وإقناع الخصوم، وردّ الاعتداء اللاإنساني، ما لا تستطيع هذه الصفحات استيعابه وإحصاءه، ولكن عقلية الشيخ المفيد المتفتّحة حالت دون اتساع الخرق، فعمد إلى رأب الصدع وجمع الصفوف وتوحيد الكلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فكم من نائرة قد أطفأتها حكمتُهُ، وكم من كارثة قد خفّفها صبرُهُ، وكم من مشكلة قد حلّها بالتي هي أحسن، حتى إذا تمت المرجعية للسيد المرتضى علم الهدى (ت ٤٣٦هـ) عادت الأزمات جذعة، وتجددت المشكلات تباعاً، وكان أهمها الصراع الطائفي والمناخ المذهبي الذي تعالت صرخاته وصيحاته في هرج ومرج لا نظير لهما في تأريخ الإسلام، ولكن موضوعية السيد المرتضى، وكمال إدارته العليا، وموسوعية علمه الناهض، حال دون النكسات بين صفوف المسلمين، وقابل كلّ الشدائد بأناة وروّية، ودراية حضارية، فأضفى على مناخ الجدل الكلامي روح المرونة والإنسانية، وأعرض كشحاً عن المهاترات، وأضرب صفحاً عن الشتات والفرقة، وكان المذهب المعتزلي قد ضرب بجرانه في تخوم الأرض وقامت احتجاجاته ومشكلاته تلهب الأفق ناراً، وأصبح وكد المكافحين علمياً، ردّ الشبهات، وتعليل الظواهر، وكبح الجماح اللاشعوري، وكان القاضي عبد الجبار المعتزلي قد أوتي علماً وفهماً واتساعاً، فبدأ يثير قضايا الإمامة وخلافة الأمة، وأنبرى له السيد المرتضى بعلمه

الجمّ وأسلوبه الرصين، فهدّ أمن الاضطراب، ودعا الى الحوار المعرفي الهادف، وأنصتت الأطراف لهذا النزاع التراجيدي، دون فتنٍ ملموسة، ولكن النار في اشتعال من خلال الشرر المتطاير، حتى إذا تسلم الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) زمام المرجعية وأنيط به كرسي الكلام باعتباره أعلم علماء الإسلام، فغرت الفتنة فاها، وكشرت عن أنيابها، واضطرم لهيبها المستعر، فحدث الصدام بين المسلمين، وسالت الدماء كلّ مسيل، وأحرق كرسي الكلام، وامتزج السواد بالاحمرار في ماء دجلة من الدماء ومداد الكتب التي قذفت فيها، وغادر الشيخ الطوسي بغداد عام (٤٤٨هـ) إلى النجف الأشرف وجعلها دار هجرة علمية، وأسّس الحوزة المباركة، وأبتعد عن المناخ السياسي والصراع المذهبي، وعاش للمسلمين كافة، يفتي كلاً في ضوء مذهبه وإن كان المرجع الأعلى للطائفة الإمامية في العالم.

لو أردنا أنّ نتحدّث عن نضال المرجعية العليا، لبرزت لدينا مظاهر عديدة؛ ولاحت في الأفق ظواهر جديدة بإلقاء الضوء عليها، ويمكنني إيجازها وتصويرها في ثلاث ظواهر كريمة لا بدّ من الإشارة إليها ولو لماماً، وهي: النضال العلمي- النضال السياسي- النضال العسكري.

النضال العلمي

لو ستعرضنا سيرة مراجعنا العظام لوجدناها عناءً في عناءٍ، بغية إرساء صرح الكيان العلمي للإمامية، فكانت الفتن تتدافع كقطع الليل المظلم، والمشكلات تتناوب كقزع سحاب الخريف المتقطّع، ومع هذا وذاك في مدّ وجزر، فقد كانت المهمة العلمية ديدن مراجعنا، وهدفهم الأول والأخير، فضحّى جميعهم- لا أستثني أحداً- بالغالي والنفيس من الوقت والمال والجاه والعيش الرغيد في سبيل التحصيل العلمي النافع، فواصلوا

الليل بالنهار، والشتاء بالصيف، والضنك بالرخاء، أزاء هذه الأطروحة الإلهية المشروعة التي نطق بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أكثر من ملحظ فقال: (طلب العِلم فريضة على كلّ مسلم).

وقال: (أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد)، وقال: (أطلبوا العلم ولو في الصين) كما في الوافي.

وفي المأثور عنهم عليهم السلام (إذا خرج طالب العلم لطلب العلم ظلّلته الملائكة بأجنحتها).

وهذا باب متشّعب لا يُحصى مداه وقد يتعذر حصرُهُ، ولا يفي القلم بالسيطرة على جملة أبعاده، فكم من ليل سهر العاملون، وكم من نهار أنفقه المشتغلون، مع زحمة الزمان، وتكاثر الفتن، وتلاطم أمواج البلاء، وهم صابرون صامدون نذروا أنفسهم لهذا الهدف النبيل، ونشير إلى بعض المشاهد النابضة بحسب ما توحي به الذاكرة، ليُستدلّ بها ذكرت على ما لم أذكر:

كان الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي الجزيني(ت٧٨٦هـ) مثال الجد والمثابرة في طلب العلم شأنه بذلك شأن المحقّق الحلي والعلاّمة الحلي وأبن إدريس في نضالهم العلمي، وقد طبع هذا النضال على علماء جبل عامل كافة، فكانوا الشعلة الوضّاءة التي لا تخبو في إستيعاب العلم الشرعي بجهود مضنية متواصلة، فقد أخذ هذا الرجل العظيم على نفسه متابعة علم أهل البيت عليهم السلام في أقاليم المدارس العلمية للإمامية في العالم، فهاجر إلى الحلة الفيحاء أولاً ثم كربلاء المقدّسة، ويمّم شطر بغداد، وقصد المدينة المنورة، وسافر إلى مكة المكرمة، وقضى وطراً في ربوع الشام، وذهب صوب القدس الشريف، ينهل من ذلك المعين الذي لا ينضب، ويغترف من ذلك البحر الفياض، وتمازجت ثقافته المعرفية بمعايشة مئات العلماء في أفكارهم العلمية المتعدّدة، ولم يكتفِ بهذا حتى أخذ من مشايخ أهل السنة والجمهور في مصر والشام وفلسطين، وأحاط بصحاحهم وسننهم وأسانيدهم فأضاف بذلك علماً إلى عمله، وفضلاً إلى فضله، حتى ترك لنا أكثر من ثلاثين مؤلفاً في

شتّى العلوم، ويكفيه أثراً (اللمعة الدمشقية) التي ألفها في سبعة أيام، ولا مصدر له ولا مرجع، سوى المختصر النافع للمحقّق الحلي، وكان قد ألفها وهو في حجر سياسي ورقابة طائفية صارمة، وقد وفق هذا الكتاب توفيقاً كبيراً فهو مدار الدرس الفقهي في الحوزات العلمية الإمامية، واعتنى به العلماء، فألف الشهيد الثاني شرحاً واسعاً له سماه (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية). ولم يقف عنده فألف (الدروس الشرعية) و(ذكرى الشيعة) و(القواعد والفوائد) و(البيان في الفقه) و(جوابات المقداد السيوري) و(خلاصة الاعتبار) في مناسك الحج وحاشيته على (الذكرى) وسوى ذلك.

إن نضال الشهيد العلمي يتركز في كونه فتح عدّة أبواب جديدة في التحقيق والإضاءة والإنارة والمسلك الفقهي، ومناهج الاستدلال في استنباط الأحكام، يُضاف لهذا كلّه الدقة المتناهية في تحديد المصطلح الفقهي بحيث لا يختلط بغيره، ولا يدخل معه سواه، فهو جامع مانع على حد تعبير أهل المنطق.

وهذا الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي(ت٩٦٥هـ) في نضاله العلمي يمثل نموذجاً فريداً في تكامل الشخصية، وتوهّج الشعلة العلمية في إشعاع فكري متميز شمل حياة الفقه الإمامي، فقد هجر موطنه إلى (ميس) وهو بعد لم يبلغ الحلم واتصل بعلي بن عبد العالي الكركي، ودرس على يديه ثماني سنوات وعدة أشهر وهو لم يبلغ الثانية والعشرين ثم هاجر إلى (كرك نوح) حيث أبحاث الدرس العالي الخارج على يد صاحب المحجة البيضاء السيد حسن السيد جعفر العاملي، وعاد إلى (جبع) ثم هاجر الى دمشق، ثم هاجر إلى مصر، فدمج الثقافة الخاصة بالعامة، وحضر في مصر حلقات الدرس المتناثرة في الأربطة والمدارس والمساجد عند ستة عشر أستاذاً، ولم يقتصر على دروس الشريعة وحدها بل أضاف إليها علوم اللغة والأدب والبلاغة والشعر العربي، والرياضيات والطبيعيات، وكتب الكلام وعلم الاحتجاج والفلسفة. وأحاط بأمهات المسائل الفقهية عند المسلمين كافة فكان مرجعاً للخاص والعام، ثم عرج على العتبات

المقدّسة فزار النجف الأشرف، وكربلاء، والكاظمية وسامراء، وحقق في القبلة والاستقبال في كل من حرم أمير المؤمنين ومسجد الكوفة، ولقي من الحفاوة ما هو أهل لها من العلماء والفقهاء وأساطين العلم.

وقد ترك لنا من الآثار مضافاً إلى الروضة البهية كتابه الاستدلالي (مسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام) في سبعة مجلّدات ضخام، و(جوابات المسائل) و(الفوائد المليّة) و(نتائج الأفكار) و(منية المريد) وسواها.

ولو نظرت في سلوك الشهيدين الاقتصادي لعجبت من جمع العلم والعمل، والكدح في سبيل تهيئة مرافق الحياة البسيطة، حتى قضى كلٌّ منهما شهيد عزّته وإبائه وشمَمِه.

وكان الشيخ يوسف البحراني صاحب الحدائق الناضرة يعيش في البحرين عشية الكفاف، وهو مكبّ على تأليف موسوعته الفقهية الحدائق، فاضطربت البلاد فهاجر إلى إيران بعد أن أُحرقت مكتبته، واستقرّ في أصفهان فحدثت الفتن وتوالت المحن وهو في سبيل إنجاز موسوعته وثار الناس عليه وأحرقت مكتبته، فهاجر إلى اصطهبانات فتوالت الفتن وأحرقت مكتبته، وهو مكبّ على كتابه، بغية إنجازه، فهاجر إلى بلد آخر ولعله خمين، فاصطلم مع الحكام في معركة مع العلماء فأحرقت مكتبته، وهاجر إلى مدينة أخرى ثم مدينة أخرى، وآخرها همدان ومن ثم أختلف المناخ العلمي عليه، فهاجر إلى كربلاء المقدسة في عصر الوحيد البهبهاني، فكان من أمرهما ما كان من الودّ والتصافي وتسيير الحركة العلمية.

في مثل هذا المناخ الصّاخب لم يترك البحراني منهجه العلمي حتى أتمّ موسوعته النادرة: الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة.

كان الوحيد البهبهاني الشيخ محمد باقر بن محمد أكمل (١٢٠٨هـ) موحّداً للصف العلمي في كربلاء، مخصّصاً الوقت كلّه في الدرس والتحضير والكتابة والتأليف، وهو

في بيت بسيط متواضع يشارك الضعفاء فقرهم، والبؤساء جوعهم، والمساكين متربتهم، ومع هذا كلّه فقد أنجز الكتب والمصنّفات بما أنار به مكتبة الشريعة الغرّاء فقهاً وأصولاً وعلم الرجال، هذا كله مضافاً الى تنظيم شؤون الحوزة المباركة.

الشيخ الأكبر صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن النجفي(ت ١٢٦٦هـ) أكبّ عشرين عاماً على موسوعته الفقهية الكبرى(جواهر الكلام) يعمل ليلَ نهار، يتجرّع الغصص ويعاني الضائقة، ويكابد الأمراض والأعراض، وهو في عمل دؤوب وعناء مستمر بين أسفار الماضين ومصنفات السابقين، يقارن ويناظر ويحاور، حتى خرج بهذه المحصَّلة التي لا يتسع لها وقت مرجع للطائفة أمثاله، وذلك من أجل إقامة الصرح العلمي الشامخ مع الصبر الجميل والتحقيق المضني، وسعة الصدر والتواضع.

والأستاذ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ) عاش رمزاً للزهد والتواضع والفقر، وهو عقلية جبّارة في خلق الحوزة العلمية تنظيماً وترتيباً منهجياً ودراسة، لم يحلم حتى في ملك بيت متواضع، فقد جمع له أعيان النجف ووجوهها مبلغاً من المال لشراء بيت للسكنى له، فقبض المال منهم وتملّكه، واشترى قطعة من الأرض أسّس عليها(مسجد الشيخ الأنصاري) القائم حتى اليوم، وبقي على ما هو عليه من العوز والفاقة، مؤلفاً أعظم موسوعة اقتصادية وهي (المكاسب) وأبرز مجموعة أصولية وهي الرسائل المعروفة بـ (فرائد الأصول).

وهذا السيد محسن الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) عاش متنقّلاً بين دور الإجارة، وهو مكبّ على تأليف موسوعته الاستدلالية في الفقه (مستمسك العروة الوثقى) وحينما أكملها لم يطبعها مدة من الزمن، ثم أمر بطبعها الطبعة الأولى الحجرية في جزئها الأول، فسُئِل على توّقفه عن طبعها ثم طبعها، فأجاب بما مؤداه: خاطبت نفسي في طبعها فطاوعتني فخامرني شيء من الشّك في أن طبعها، قد يعود بالمجد العلمي للذات وللنفس، وحينما أحرزت من نفسي القربة المطلقة لله عز وجلّ، والنية الخالصة لوجهه الكريم أقدمت على طبعها.

والسيد حسين الحمامي الموسوي (ت١٣٧٩هـ) كان مثالاً رائعاً للزهد والتقوى أكبّ على التحصيل منذ شبابه حتى شيخوخته، اجتمع النجفيون وأهل محلة العمارة بالذات وجمعوا له مبلغ ستمائة دينار وهو مبلغ ضخم في حينه لشراء دار له، وسلّموه المبلغ فما كان منه إلاّ أن وزّعه وقسمّه في الحوزة العلمية وهو لا يملك شروى نقير؛ فقد حدث السيد محمد تقي بحر العلوم أنه ذهب لبيته ولا غداء عند أهله، فذهب إلى السيد الحمّامي ليتغدى عنده، فوجده في الحر القائظ في ساحة الدار، وهي منخسفة، فاستفسر عن مجيئه، فقال جئت لأتغدى عندكم، قال: أنا مثلك لا غداء عندي لي ولعائلتي، وفوق هذا فقد انخسفت المرافق الصحية (البالوعة) وأنا هنا حارس، - وكانت (جواهر الكلام) يقرأ بها ويُحقّق ويدقّق -، أنا حارس لئلا يسقط فيها أحد الأولاد وكانوا صغاراً.

وسّيدنا الأستاذ الخوئي قُدّس سره، عاش في دار وقف لأفاضل أهل خوء، وقد حدب عمره كلّه على الدرس والبحث والتصنيف، حتى لقد تراهن جماعة من أهل الفضل أن الخوئي لا يرى إلا مدّرساً أو دارساً أو مؤلّفاً أو مباحثاً، فوجد مرةً ما في المدرسة الوسطى في محلة البراق، وهو ساهم مفكّر لا في درس ولا في تأليف، فقال أحد المتراهنين لقد كسبت الرهان، فالسيد هنا لا يدرس ولا يباحث ولا يكتب، قال أحدهم: دعونا نسأله، فسئل عن جلوسه، فقال: نعم أنا أفكر في حل المسألة الفلانية، ومع ضعفه وشيخوخته وشدة ابتلائه ألّف موسوعته الحديثية العظمى (معجم رجال الحديث) في أربعة وعشرين مجلداً، لم يستعن عليها بحاسبة أو جهاز الكتروني، وخرّج في مدرسته العلمية المتميزة فقهاً وأصولاً آلاف العلماء حتى عُدّ بجدارة فائقة: أستاذ الفقهاء والمجتهدين.

وقد عاصرتُ كلاً من السيد عبد الأعلى السبزواري والسيد علي الحسيني السيستاني والسيد محمد سعيد الحكيم والشيخ اسحاق الفياض وسواهم، ولاحظت في تفصيل كبير حياتهم العلمية الفائقة بكثير من النضال المعرفي الذي

لا يعرف هـوادة ولا استقراراً في أحلك الظروف وأشدها، وهم يحملون الأسفار ويتأبطون الأسانيد، ويخفقون في الفقه والأصـول، ويصاحبون حياة الحديث والرجال وعلم الدراية، مع ضنك في العيش، واعتياد على الفقر، وتوطن على الفاقة والاحتياج، حتى أن أحدهم ليسدّ رمقه بما تيسر دون ضجر أو تأفف، وما هي إلا حياة الزاهدين العابدين، فهو تمثيل صادق لمن سبقهم ودرج من الأعاظم كالسيد عبد الهادي الشيرازي والشيخ محمد رضا آل ياسين والسيد محسن الحكيم والسيد محمود الشاهوردي، والسيد جمال الدين الكلبايكاني والشيخ حسين الحلي وأستاذهم الأعظم الميرزا محمد حسين النائيني الغروي.

إن هذه اللمسات التي ألمحتُ لها: عبقاتٌ من نفحات الأئمة، وشذرات من نضال علماء الأمة، ويبدو واضحاً فيها النضال العلمي مقترناً بالنضال النفسي، في مكافحة الهوى، وصدّ الأمـاني، وترويض الذات على أبرز الصفات، ومحمود السيرة، ونقاء السريرة.

هذه نماذج مما وعيت وتذكّرت، ولست بإزاء استيعابها ولكني بصدد ذكر أمثلتها، لترى نضال المرجعية العلمي من أجل إعلاء منار العلم الإلهي.

النضال السياسي

وماذا أتحدّث إليك عن النضال السياسي، وقد بدأ في حياة الأئمة الطاهرين، ودرّبوا عليه تلامذتهم وأولياءهم، فكان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجباً دينياً يصطدم بأرادة السلاطين، ويتعارض مع فراعنة العصور، فُزجّ بالعلماء في غياهب السجون والمعتقلات، والسعيد منهم من أصبح جليس بيته وجلس داره، وقد تعرّضوا لأصناف الضغوط وأشتات المغريات، فما استلان الجانب، ولا وهن العضد، ولا تلكأت المسيرة.

كان النواب الأربعة مثلاً سائراً للنضال السلبي حيناً، والإيجابي حيناً آخر؛ يؤدون الأمانة ويبلّغون الرسالة، مناهضين ومجازفين وصابرين، يتحملون المشاقّ الهائلة، ويتكبدون الخسائر الفادحة في المال والجاه والأتباع، يسلكون التقّية الهادفة وصولاً إلى المراد، ويتجرّعون الغصص المضنية تحقيقاً للآمال، ولا أمل إلاّ رضا الله، ولا هدف إلى النهوض بعبء الرسالة، لو أرادوا الدنيا لأرخت عليهم بزبرجها، وضمّهم زخرفها، ولكنهم قضوا حياة قصيرة مليئة بمكافحة الإرهاب والطغيان والعنت والإكراه، حتى تسلّمها مراجعنا الأعلون شرفاً، والأسمون مكاناً ومنزلة، فكان الجدّ والمثابرة واليقظة والتطلّع، قد يجاملون السلطان ولكن لا يخضعون له، وقد يخالطون الحكّام ولكن لا يسمحون بأدنى تدخل في إدارة الشؤون المرجعية، وهم بغنى عن صلات الدولة وأعطياتها وليسوا بحاجة إلى مخصّصات مالية، فلا رواتب ولا هبات ولا مغريات، استقلوا بما يدرّ الحق الشرعي لتيسير الركب، والإرساء به على سواحل الأمان وشواطئ الاطمئنان.

إن غمار الصراع السياسي الذي خاضه الفقهاء الإلهيون من مراجعنا العظام قد امتد خلال عصور القهر والاضطهاد ابتداءً من العصر العباسي فالسلاجقة فالمغولي والعثمانيين، وعهد الاستعمار الفرنسي في لبنان، والاستعمار البريطاني في العراق والاستعمار الروسي والأمريكي في إيران، وحتى اليوم في مجابهة أساليب الأستعمار المتعددة.

لقد دفع علماؤنا ثمن هذا الجهاد في التصدّي للطغاة والظالمين نفوساً ونفيساً وراحةً واستقراراً فأبلوا البلاء الحسن، وما تعرّض له الشهيدان في لبنان، وعلماء النجف الأشرف والحلة وكربلاء والكاظمية وسامراء إلا جذوة من هذه الشعلة الوقّادة، وهي تناوئ مخططات الجور والظلم والإرهاب الدموي.

وما الأسماء اللامعة من المراجع الذين وقفوا ضد الحملات الاستعمارية إلا أمثلة على هذا المنحى من الجهاد السياسي، وما الوقوف ضد الهجمات الإسرائيلية في فلسطين،

والروسية في إيران، والإنكليزية في العراق، والإيطالية في المغرب العربي إلا دليل ما نقول تأكيداً للحقائق الصّادعة التي لا ينكرها أحد، لقد أفتى العلماء وكتبوا وحرروا وسيروا الاحتجاجات تلو الاحتجاجات ضد الممارسات اللاإنسانية التي سلكها الغزاة والمستعمرون، حتى إذا طفح الكأس بما فيه لجأوا إلى النضال المسلح كما سيأتي بيانه، وإليك بعض النماذج:

١. منحت الحكومة الإيرانية لبريطانيا امتياز التنباك، وكان التنباك ظاهرة شائعة مترسّخة في إيران، وإعطاء هذا الامتياز يعني بداية التغلغل الإنكليزي في إيران، وقد أدرك المرجع الديني في عصره المجدد السيد محمد حسن الشيرازي (ت ١٣١٢هـ) خطورة هذا الاتجاه، فحرّم التنباك وتناوله وشربه وإعداده، وسرت الفتوى سريان النار في الحطب الجزل، وفشل المخطط برمته، وسحبت إيران امتياز التنباك عن بريطانيا، بعد أن أصرّ السيد الشيرازي على موقفه، فضاعت فرصة بريطانيا في نفوذها المغلّف في ظل التنباك.

٢. حينما تأسّست الحكومة العراقية بالنداء بفيصل الأول ملكاً على العراق، كان واضحاً أنها حكومة إنكليزية بوجوه عراقية، فالحاكم الأصل والأساس هو المندوب البريطاني، والحاكم البريطاني العام في العراق، والسفارة البريطانية بكوادرها ليس غير. فحرّم العلماء الأعلام الالتحاق بالمجلس التأسيسي والاشتراك في الانتخابات، وكان على رأسهم الشيخ مهدي الخالصي (ت ١٣٤٣هـ -١٩٢٥م) فقامت الدولة من خلال وزير الداخلية عبد المحسن السعدون بنفيه إلى الحجاز، ومنها إلى إيران، وتوفّي في مشهد الإمام الرضا عليه السلام غريباً، ودُفن في حرمه الشّريف، فتضامن معه علماء النجف وفي طليعتهم الشيخ محمد حسين النائيني الغروي(ت ١٣٥٥هـ) والسيد أبو الحسن الأصفهاني (ت١٣٦٥هـ)، وهدّدوا الدولة بالسفر إن لم يعدّل القرار، ويعود الشيخ الخالصي إلى وطنه بل إلى بلده الكاظمية المقدّسة، فلم تستجب

الحكومة للنداء وسفّرت حملة العلماء بما فيهم النائيني والأصفهاني قُدّس سرهما، ومعهم العشرات من اساتيذ الحوزة العلمية في النجف وكربلاء والكاظمية.

٣. حينما احتلت الجيوش البريطانية جنوب العراق/ البصرة/ ونزلت الشعيبة، أبرق المرجع الأعلى السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي إلى الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمرة البرقية الآتية، يحرضه فيها على الحفاظ على بيضة الإسلام، والدفاع، وملازمة الثغر، وهذا نصّها:

سلام على السردار الأرفع معزّ السلطنة الشيخ خزعل دام إجلاله.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفي أن من أهم الواجبات المحافظة على بيضة الإسلام والدفاع بالنفس والنفيس عن ثغور المسلمين ضدّ مهاجمة الكفّار.

وأنت في ثغر من تلك الثغور، فالواجب حفظ ذلك الثغر عن هجوم الكفار بكل ما تتمكن، كما يجب ذلك على سائر العشائر القاطنين في تلك الجهات، واللازم عليك تبليغ ذلك إليهم، كما أنه يحرم على كل مسلم معاونة الكفار ومعاضدتهم على محاربة المسلمين، والأمل همّتك وغيرتك إذ تبذل تمام جهدك في دفع الكافرين، والله يؤيدك بالنصر على أعدائه إن شاء تعالى[1].

١ محرم الحرام ١٣٣٣هـ = تشرين الثاني ١٩١٤م

محمد كاظم الطباطبائي

(١) ظ: مصطفى النجار/ التأريخ السياسي لإمارة عربستان/ ٣٠٢/ طبع القاهرة/ ١٩٧١.

كما أرسل بقية المراجع كشيخ الشريعة، والسيد الداماد، والسيد مصطفى الكاشاني برقية مماثلة تطلب منه الدفاع عن ثغر البصرة.

وكان السيد اليزدي قُدّس سره يؤكد على جهاد الإنكليز وقد أرسل ولده لثغر البصرة، وقد أجاب الشيخ شعلان العطية وأهالي عفك، وأهالي الشطرة برسائل توجب ذلك، جاء في الأولى:

فانهضوا بتوفيق الله إلى جهاد عدوكم وعدو نبيكم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، فقد أعلنا بوجوب الدفاع عن حوزة المسلمين وبيضة الدين، وقد فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد كاظم الطباطبائي اليزدي

١/ ذو الحجة/ ١٣٣٣هـ=١٩١٥م

وجاء في الثانية:

السلام على كافة إخواننا في الشطرة وفيما حولها ورحمة الله وبركاته.

غير خفيّ عليكم أنّا أبرقنا غير مرة لكم ولغيركم، وكتبنا حتى كلَّ القلم، وشافهتُ حتى اضطرب اللسان، حثاً على الدفاع، وإلزاماً بحفظ الثغر المهاجم، وأقول الآن عوداً على بدء: يجب عليكم حفظ بيضة الإسلام فبأيّ عذرٍ بعد اليوم تعتذرون ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

محمد كاظم الطباطبائي اليزدي

---

(١) حسن شبر/ تأريخ العراق السياسي المعاصر ٢/ ٤١٧٤٢١. دار التراث العربي/ بيروت/ ١٩٨٩م.

٤. لدى غزو إيطاليا لطرابلس الغرب سنة (١٩١١م) قامت القيامة في النجف الأشرف، واجتمع المراجع العظام بقيادة الشيخ ملا محمد كاظم الخراساني زعيم الأحرار (ت١٣٢٩هـ) وأصدروا فتوى المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى كافة المسلمين الموحّدين، وممّن جمعتنا وإياهم جامعة الدين، والإقرار بمحمد سيّد المرسلين.

السلام عليكم أيها المحامون عن التوحيد، والمدافعون عن الدين، والحافظون لبيضة الإسلام.

لا يخفى عليكم أن الجهاد لدفع هجوم الكفّار على بلاد الإسلام وثغوره مما قام إجماع المسلمين وضرورة الدين على وجوبه. قال الله سبحانه: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

هذه كفرة إيطاليا قد هجموا على طرابلس والغرب التي هي من أعظم الممالك الإسلامية وأهمها، فخرّبوا عامرها، وأبادوا أبنيتها، وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها، ما لكم تبلغكم دعوة الإسلام فلا تجيبون، وتوافيكم صرخة المسلمين فلا تغيثون، أتنتظرون أن يزحف الكفار الى بيت الله الحرام، وحرم النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام؛ ويمحوا الديانة الإسلامية عن شرق الأرض وغربها، وتكونوا معشر المسلمين أذلّ من قوم سبأ، فالله الله في التوحيد، الله الله في الرسالة، الله الله في نواميس الدين، وقواعد الشرع المبين، فما بعد التوحيد إلا التثليث، ولا بعد الإقرار بمحمد ﷺ إلا عبادة المسيح، ولا بعد استقبال الكعبة إلا تعلّق الصليب، ولا بعد الأذان إلاّ قرع النواقيس، فبادروا إلى ما افترضه الله

عليكم من الجهاد في سبيله، واتفقوا ولا تتفرّقوا، واجمعوا كلمتكم، وابذلوا أموالكم، وخذوا حذركم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. لئلا يفوت وقت الدفاع وأنتم غافلون، وينقضي زمن الجهاد وأنتم متثاقلون ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد ذُيّل هذا الكتاب الكريم بأسماء المراجع والعلماء كالآتي:

١. محمد كاظم الخراساني؛ ٢. عبد الله المازندراني؛ ٣. شيخ الشريعة الأصفهاني؛ ٤. علي رفيش؛ ٥. محمد حسن القمشة؛ ٦. حسن صاحب الجواهر؛ ٧. علي التبريزي (الداماد)؛ ٨. مصطفى الحسيني الكاشاني؛ ٩. محمد آل الشيخ صاحب الجواهر؛ ١٠. محمد جواد الشيخ مكشور (الحولاوي)؛ ١١. جعفر الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي؛ ١٢. محمد سعيد الحبوبي.

٥. لدى دخول الإنكليز العراق وجعله محميّة تحت ظل الانتداب البريطاني، قام الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي قائد ثورة العشرين، وخليفته شيخ الشريعة الأصفهاني بإرسال كتاب إلى الرئيس الأمريكي ولسن، يطلبان فيه مساندته في دعم العراقيين بإقامة دولة عربية مستقلة إسلامية، يرأسها ملك مسلم مقيّد بمجلس تشريعي.
أرسلت هذه الرسالة بمناسبة انعقاد مؤتمر باريس[١]، وهذا نصّ الرسالة:

لحضرة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية المحترم.

ابتهجت الشعوب جميعها بالغاية المقصودة من الاشتراك في هذه الحروب الأوربية من منح الأمم المظلومة حقوقها وإفساح المجال لاستمتاعها بالاستقلال حسب الشروط

(١) ظ: محمد علي كمال الدين/ ثورة العشرين في ذكراها الخمسين/ ١٨٢، طبع بغداد/ ١٩٧١م.

المذاعة عنكم، وبما أنكم كنتم المبدأ في هذا المشروع، مشروع السعادة والسلام العام، فلا بد أن تكونوا ملجأ في رفع الموانع عنه، حيث قد وجد مانع قوي يمنع من إظهار رغائب كثيرة من العراقيين على حقيقتها بالرغم مما أظهرته الدولة البريطانية من رغباتها في إبداء آرائهم. فرغبة العراقيين جميعهم والرأي السائد-بما أنهم أمةٌ مسلمة - أن تكون حرية قانونية واختيار دولة جديدة عربية مستقلّة إسلاّمية، وملك مسلم مقيّد بمجلس وطني.

وأما الكلام في أمر الحماية فإن رفضها أو الموافقة عليها يعود إلى رأي المجلس الوطني بعد الانتهاء من مؤتمر الصلح.

فالأمل منا حيث أنّا مسؤولون عن العراقيين في بثّ آمالهم، وإزالة الموانع عن إظهار رغائبهم، بما يكون كافياً ليطلع الرأي العام على حقيقة الغاية التي طلبتموها في الحرية التامة، ويكون لكم الذكر الخالد في التأريخ بحرية العراق ومدنيته الحديثة.

في ١٢/ جمادي الأولى/ سنة١٣٣٧هـ

شيخ الشريعة الأصفهاني

محمد تقي الحائري الشيرازي

٦. وأصدر الشيخ محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين نداءً إلى العراقيين كافة قبيل انطلاق الثورة بشهر واحد حثّهم فيه على الاتحاد وجمع الصفوف والحفاظ على الأمن ومراعاة ذوي الديانات الأخرى، ومؤيداً المظاهرات والاحتجاجات السلمية مطالبة باستقلال العراق، وهذا نصّ النداء[١]:

(١) ظ: عبد الرزاق الحسني/ العراق في دوري الاحتلال والانتداب/ ١/ ٩٧/ صيدا/ ١٩٣٥م.

إلى إخواني العراقيين:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أمّا بعد:

فإن أخوانكم في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء وغيرها من أنحاء العراق قد اتفقوا فيما بينهم على الاجتماع والقيام بمظاهرات سلميّة، وقد قامت جماعة كبيرة بتلك المظاهرات مع المحافظة على الأمن، طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق إن شاء الله بحكومة إسلامية، وذلك بأن يُرسل كلّ قطر وناحية إلى عاصمة العراق بغداد، وفداً للمطالبة بحقّه متفقاً مع الذين يتوجهون من أنحاء العراق عن قريب إلى بغداد، الواجب عليكم، بل على جميع المسلمين الاتفاق مع إخوانكم في هذا المبدأ الشريف، وإياكم والإخلال بالأمن، والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض إن ذلك مضرٌ بمقاصدكم، ومضيّع لحقوقكم التي صار الآن أوان حصولها بأيديكم، وأُوصيكم بالمحافظة على جميع الملل والنحل التي في بلادكم في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا تنالوا أحداً منهم بسوءٍ أبداً، وفقّكم جميعاً لما يرضيه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٠ رمضان ١٣٣٨هـ= ٢٩ أيار/ ١٩٢٠م

محمد تقي الحائري الشيرازي

٧. وكتب الشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة الأصفهاني برسالة حاسمة إلى الحاكم البريطاني العام في العراق، رداً على انتهاك الإنكليز للحرمات، وكذبهم في المواعيد، وارتجالهم للقرارات، وذلك قبل ثورة العشرين بخمسة أيام ٨/ شوال/ ١٣٣٨هـ و٢٥/ حزيران/ ١٩٢٠م[1]، وهذا نصها:

---

(١) ظ: حسن شبر/ تأريخ العراق السياسي المعاصر/ ٢/ ٤٠٢ وما بعدها/ دار التراث العربي/ بيروت/ ١٩٨٩م.

إلى حضرة الأجل الحاكم الملكي في العراق عمّت معدلته

بعد تقديم الاحترامات اللائقة:

أبدي: أنكم قد عرفتم وجربتم في هذه المدّة الطويلة التي حدثت فيها هذه المظاهرات والاجتماعات، أن أهل العراق سالكون سبيل السلم والهدوء والسكون، ويطالبون بما يريدون في حقوقهم، حسب مواعيدكم من أول الأمر، وبموجب ما تقرّر لدى الدول المعظمة من حرية الشعوب، وكان طلبهم على وجه المعقول المشروع خالياً من القلق والمشاغبات، خالصاً من إثارة أي فتنةٍ أو فساد، وذلك بمقتضى سجيتهم، ومتانة عقولهم، وسلامة فطرتهم، ونصح عقلائهم، مؤكداً كل ذلك بما برز قولاً وكتباً كراراً ومراراً من آية الله الشيرازي علت بركاته، ومن بقية العلماء الأعلام من إيجاب السكون العام عليهم، وإلزامهم بترك كل ما فيه من الإخلال بالأمن، لهذا أفتينا بوجوب السكون وحرمة الثورة والفساد. وقد برهنوا في حركتهم ومظاهراتهم المتواصلة على تمسكهم بالنظام والقانون والانقياد لفتاوى العلماء.

إلا أنه بلغنا خبر عجيب كان يصعب علينا تصديقه حتى تحقق من القبض على نجل آية الله الشيرازي [الشيخ محمد رضا نجل قائد ثورة العشرين] وجماعة من أهالي كربلاء والحلة، ولا ذنب لهم إلا مطالبة ما يطالبه إخوانهم، ومسّ كرامة الروحانيين، وتأذى من هذه الجسارة كل المسلمين، وعن قريب يعم كل أهالي إيران والهند والقفقاس، وكل بلدة وقصبة يسكنها المسلمون، وهذا عمل هادم لكلّ ما بنت فيه من قديم الزمان أولياء الدولة الفخيمة من إشاعة العدل والإنصاف وهو يورث سوءَ الظن جميعَ الأمم في الحكومة البريطانية، وبالجملة فقد تشوشت الأفكار، وتبدلت الظنون ويكاد يؤدّي [ذلك] الى الإخلال بالنظام الذي تريدون حفظه.

وأرى أن الأصح أن تقرّ بفكهم سريعاً قبل أن ينجرّ لما يخرج علاجه عن مقدرتنا، ولا أدري كيف خفي عليكم هذا الأمر غير المناسب لهذا الوقت والزمان، وأنتظر الجواب سريعاً إن شاء الله.

شيخ الشريعة الأصفهاني

والرسائل والبيانات بين شيخ الشريعة والحاكم البريطاني العام كثيرة ومتتابعة استمرّت حتى الثورة وما بعدها، أشار لها من كتب في تأريخ العراق السياسي الحديث.

٨. وفي عصرنا خاض الإمام السيد محسن الحكيم أعلى الله مقامه، غمار النضال السياسي في كثير من الأبعاد الأساسية، فقد نصح الحكومات المتعاقبة على العراق، وأكّدَ إشاعة العدل والمساواة، وحرّم سفك الدماء وأحكام الإعدام، ودعا إلى الحرية، واستنكر الممارسات أللاإنسانية، وشجب الأساليب الطائفية، وحارب الظلم والطغيان، ورفض مقابلة رؤساء الحكومات الجائرة، وحرّم المبادئ الهدّامة، ونعى على المسؤولين تسيّبهم، وأنكر الباطل والإكراه، وحقّق العدالة الاجتماعية، وناصر القضية الفلسطينية، ودعم حركات التحرر والاستقلال في الوطن العربي، ووقف ضد الاستعمار بكلّ مظاهره، والتزم الضعفاء والبائسين والمحرومين، ودوّى صوته عالياً في كل مؤتمر وندوة ومهرجان، وأمر بإقامة الاحتفالات في المناسبات الدينية، وجعلها منبراً حرّاً للمطالبة بالحقوق وإشاعة السلام، وضحّى بالغالي والنفيس من أجل إعلاء كلمة الحق، وقد انتقم الطغاة منه بعد وفاته، فأعدموا أبناءه البررة، وخمسين من اسرته.

٩. وقاوم سيدنا الأستاذ السيد أبو القاسم الخوئي تحرّكات الظالمين، وتصرفات المستبدين، ونصب نفسه علماً شاخصاً لنصرة المسلمين، وصرّح وكتب وألّف

فيما له العلاقة بالكفاح اللساني والإنكار الجناني، وشجب بشدة علاقة شاه إيران بإسرائيل، وعرّى المخططات الصهيونية لغزو الفكر والاقتصاد والسياسة، وواجه نزعات الانحراف العقائدي، وقابل التصرفات الشاذة، وكان وراء الشعور الدائم بمسؤولية المرجعية، وساند القضية الفلسطينية، وبارك جهاد المغرب العربي، وحيّا بطولة الفدائيين، ودعا إلى الوحدة الإسلامية وتقارب الأمة ونعى دعاة الفرقة والتخلف المذهبي، وعاش كريماً ومات شهيداً، بعد إعدام ثمانمائة من أعلام الحوزة العلمية عام ١٩٩١م.

١٠. ومن قبل هذا كان التحرك النضالي لعلماء النجف الأشرف من خلال ظاهرتين مهمتين:

الظاهرة الأولى: تأسيس جمعية النهضة الإسلامية في النجف الاشرف في ١/ذي الحجة/ ١٣٣٥هـ تشرين الثاني ١٩١٧م، وهي تنظيم سياسي إسلامي وجد لمحاربة الاستعمار الإنكليزي، وتحرّك لتحرير العراق سياسياً، وسعى لاستقلاله حثيثاً، وقد قام بتأسيسه السيد محمد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الجزائري، ومعهما الشيخ عباس الخليلي والشيخ محمد علي الدمشقي، وانضمّ إليها جملة من العلماء والعاملين في الحقل السياسي في طليعتهم كاظم صبي زعيم محلة البراق، وعباس علي الرماحي من زعماء النجف، وآل كمال الدين، وآل عدوة، وآل الشبيبي، وآخرون.

وكان رئيسها الشيخ محمد الجواد الجزائري، ونائبه السيد محمد علي بحر العلوم، والآخرون أعضاء في الجمعية، وكان غرضها إنقاذ العراق من الهيمنة البريطانية، والمناداة باستقلال العراق سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وفكرياً.

وله جناح عسكري بقيادة الزعيم كاظم صبي، والزعيم عباس علي الرماحي، وهذا هو الجناح الأول وقعه شباب النجف. وجناح آخر بقيادة الحاج نجم البقال زعيم ثورة

النجف ضد الاستعمار البريطاني عام ١٩١٨م، والجناح الثالث بقيادة كريم الحاج سعد الحاج راضي وأخوته زعماء محلة المشراق.

وتُعتبر هذه الجمعية بأصولها الدينية والعشائرية النجفية الركيزة الأولى لمظاهر التحرّر والانطلاق، وهي الشرارة الأولى التي أشعلت ثورة النجف (١٩١٨م) وثورة العراق الكبرى (١٩٢٠م).

الظاهرة الثانية، تشكيل جماعة العلماء في النجف الأشرف ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م بقيادة العالم الرباني الشيخ مرتضى آل ياسين قُدّس سره، ومشاركة كوكبة من العلماء الأعلام كالشيخ محمد طاهر الشيخ راضي والشيخ مجتبى اللنكراني والشيخ حسين الهمداني والسيد إسماعيل الصدر والسيد محمد صادق الصدر والسيد محمد باقر الصدر والشيخ ملا صدرا البادكوبي، ومحمد جواد الشيخ راضي، ومحمد حسن الجواهري، ومحمد رضا المظفر، السيد مرتضى الملخالي، والسيد موسى بحر العلوم، والشيخ خظر الدجيلي، يدعمهم الشباب النجفي من رجال الدين وسواهم.

لقد أصدرت هذه الجماعة بيانات دورية خلال عام واحد، كافحت فيه المبادئ الهدّامة، والعقائد الفاسدة، والنزعات المستوردة، وأكّدت التزام الشعب المسلم بعقائده وتعاليمه مما كان له الأثر الفاعل في الحفاظ على المعتقدات والشعائر والمرتكزات الأساسية للإسلام، وقد جوّبهت هذه الجماعة بالإرهاب والأذى والترويع من قبل الفئات المنحرفة، ولكنها صمدت صمداً رائعاً في صد التيارات والرياح الحمراء.

النضال العسكري

وفي طلائع القرن العشرين كان النضال العسكري متأطّراً بإطار الدفاع عن الوطن، وذلك حينما غزت الجيوش البريطانية العراق، ودخلت ثغر البصرة في التاسع من تشرين الثاني (١٩١٤م) فالتهب الشعور الوطني، وعلت صرخات الاستنفار من كل الجهات، وادّرع السيد محمد سعيد الحبوبي بالثبات، فشهر السيف وأغمد القلم، وقاد جماهير المتطوّعين للجهاد من العرب والأكراد في العراق، وأصدر المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي فتوى (ت ١٣٣٧هـ) الجهاد للدفاع عن بيضة الإسلام، وبعث نجله السيد محمد ممثلاً عنه في مواكب المجاهدين، وكانت قيادة النجف الدينية قد تمثّلت بالسيد محمد سعيد الحبوبي، فانطلق من الصحن الشّريف بعد زيارة أمير المؤمنين عليه السلام معلناً جهاد الإنكليز بما أوضحناه في عمل مستقل[1].

كان مسير السيد الحبوبي للجهاد مظاهرة علنية يدعمها الشعور الديني الفيّاض والحماس الوطني المتلهف، ومعه كوكبة من الأعلام في طليعتهم السيد محسن الحكيم والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ محمد رضا الشبيبي وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد علي الداماد، والتحق بهم من الكاظمية الشيخ مهدي الخالصي والسيد مهدي الحيدري مع أعلام الكاظمية، ومن كربلاء السيد هبة الدين الشهرستاني، وبعث الشيخ محمد تقي الشيرازي ولده الشيخ محمد رضا للإلتحاق بالركب في الكاظمية، وكان السيد

---

(١) ظ: تفصيلات ذلك في/ هكذا رأيتهم وتحت عنوان(السيد محمد سعيد الحبوبي مجاهداً) لكاتب هذه السطور. دار العارف/ بيروت/ ٢٠٠١م+ قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الاشرف بعنوان(السيد محمد سعيد الحبوبي قائداً)مؤسسة البلاغ/ بيروت+ الشيخ محمد رضا الشبيبي وطنياً في المصدر نفسه.

إسماعيل الصدر الكاظمي قد قلّد القائد العثماني للجهاد سيفاً ذهبياً مرصّعاً بالجواهر الكريمة إيذاناً بالجهاد.

وكانت مواكب العلماء قد قادت حركة الجهاد في ثلاثة محاور رئيسية، هي جبهة الشعيبة، وجبهة الكوت، وجبهة العمارة والأهواز والأهوار، وسار العلماء يحتضنون الزحف المقدس تجاه هذه المحاور الثلاثة، وقد التحق بهم جمع من رجال الدين البارزين، الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والسيد إسماعيل اليزدي، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والشيخ حسين الصغير، والسيد عبد الرزاق الحلو، والشيخ جعفر الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي، والشيخ رحوم الظالمي، والشيخ محمد باقر الشبيبي والشيخ باقر حيدر وأضرابهم من العلماء العاملين.

وقد توجّه الركب في السفن الشراعية من الكوفة بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي، وتوقّف في الشامية وغماس، والشنافية لتحريض العشائر فالتحق به الآلاف، ثم عرّج على السماوة والخضر حتى ناصرية المنتفك، وبعث برسله الى مشايخ القبائل ورؤساء القصبات فاستجاب له الكثيرون، وتكاملت التعبئة العامة، وكان لخطب السيد محمد سعيد الحبوبي الثورية الأثر الفاعل في تهيئة المناخ الجهادي، وكان لمبعوثيه في الأصقاع وديار العراقيين الأساس في التحريض على الجهاد والالتحاق بالسيد وموكبه المهيب.

وقد ذكر المحقّق الثبت الشيخ أغا بزرك الطهراني ويدعمه الشيخ محمد حرز الدين أنّ عدد المجاهدين الذين التحقوا بالسيد الحبوبي قد بلغ خمسة عشر ألف مجاهد. في حين يذكر الأستاذ حسن الأسدي النجفي أن الذين التحقوا بالسيد الحبوبي قد بلغ عددهم ثلاثين ألف راجل، وعشرة آلاف فارس(١).

---

(١) ظ: حسن الاسدي/ ثورة النجف/ ٩١/ طبع بغداد/ ١٩٧٤.

وأنا أميل الى هذا العدد لأمرين: الأول: إن أحاديث السيد محسن الحكيم والشيخ محمد رضا الشبيبي التي سمعتها منهما تؤكّد أن العدد كبير جداً من خلال مصارف بيت المال على المجاهدين، وكان أمين بيت المال السيد محسن الحكيم نفسه.

الثاني: إن الأستاذ حسن مرزه الأسدي قريب من الأحداث، وهو معاصر لها غلاماً، وقد سمع التفصيلات ووعاها.

ومهما يكن من أمر، فقد كان المجاهدون في الطليعة الواعية من الأحداث وبذلوا كل ما في وسعهم وطاقتهم، وتوجهوا نحو ميدان القتال بحسب تقسيم القيادة العثمانية.

فجبهة الشعيبة بقيادة السيد محمد السعيد الحبوبي وجماعته. وجبهة الأهواز والحويزة والعمارة بقيادة الشيخ مهدي الخالصي وبقية العلماء.

وجبهة القرنة وما ولاها بقيادة السيد مهدي الحيدري وشيخ الشريعة الأصفهاني ومن حولهما من العلماء.

وكانت المعارك دائرة على جبهة الشعيبة وهي قاعدة الحملات العسكرية وفيها القائد التركي المنتحر سليمان عسكري، وقد اشتدت المعارك الحربية بين الإنكليز وبين المجاهدين فيها بين ١١ الى ١٤ نيسان عام ١٩١٥م حيث أسفرت عن سقوط ثلاثة آلاف شهيد من المجاهدين(١).

وكان الأمر في هزيمة المجاهدين يعود الى أسباب:

١. القوّة الإسلامية غير متكافئة مع القوّة الإنكليزية وكذلك المعدات الحربية، فعدة المجاهدين ٧٦٠٠ من الجيش النظامي، و١٨ ألفاً من المجاهدين العراقيين.

(١) ظ: علي الوردي/ لمحات اجتماعية من تأريخ العراق الحديث ٤/ ١٤٨.

٢. التقنية الحربية غير متكافئة فلدى الإنكليز المعدات والمدافع والرشاشات بينما لدى المجاهدين مدفعان وعدة بنادق وسيوف[١].

٣. خيانة أمير الكويت مبارك الصباح، فقد أرسل بقوات تُساند الشيخ خزعل أمير المحمرة ضد العشائر المنادية بالجهاد ضد الإنكليز، وكذلك خيانة أمير المحمرة الذي لم يستجب لرسالتي السيد اليزدي وشيخ الشريعة لمساندة المجاهدين، فكان الموقف السلبي لهما تجاه حركة الجهاد مما عرفه الخاص والعام، مع أن السيد اليزدي قد أفتى بحرمة التعاون مع الكفار الإنكليز[٢].

٤. خيانة بعض زعماء القبائل العراقية لا سيما رؤساء محافظة العمارة، فالناصرية، فقد ملئت غرائرها بأموال الإنكليز، وقد أسلموا المجاهدين عند الوثبة، مما أدّى إلى شل حركة الجهاد وانهزام المجاهدين، وفشل المعركة.

وانسحب السيد الحبوبي إلى الناصرية، وكان يُردّد كما يروي ذلك مولانا الإمام السيد محسن الحكيم مراراً: (الحمد لله الذي عرّفني تكليفي).

وقد مات السيد الحبوبي غمّاً وهمّاً وكمداً في أول شعبان (١٣٣٣هـ) وشيع إلى النجف الأشرف، ودُفن في مقبرته بجوار أمير المؤمنين في الصحن الحيدري الشريف.

أما بقية الجبهات فقد انتصرت نصراً مؤقّتاً لم يدم طويلاً بعد انهزام جبهة الشعيبة، وكانت جبهة الأهواز قد أبلت بلاء حسناً بقيادة السيد عيسى كمال الدين الذي استجابت له العشائر العربية في عربستان خلافاً لرغبة الشيخ خزعل أمير المحمرة، فقطعت أنابيب النفط، واستولت على مخازن شركة النفط البريطانية[٣].

---

(١) ظ: عبد الله فهد النفيسي/ دور الشيعة في تطور العراق السياسي/ ٨٩/ بيروت/ دار النهار/ ١٩٧٣م.

(٢) ظ: عبد الحليم الرهيمي/ تأريخ الحركة الإسلامية في العراق/ ١٦٩ بيروت/ ١٩٨٥ .(رسالة ماجستير في الجامعة اللبنانية).

(٣) ظ: الرهيمي/ المصدر السابق/ ٨٨.

ولكنها حركة مذبوح سرعان ما أجهضت، وكذلك الحال في جبهة الكوت.

وينبغي التأكّد: أن جهلة الجيش العثماني كانوا وراء الهزيمة أيضاً، فالقائد العسكري سليمان بك مسجّى في ملحفته. فكيف يقود الحملة، والقائد التركي حسين رؤوف كان يُهاجم قبائل الفرات الأوسط ويقتلهم وينهبهم ويسلبهم الأموال، ويعتدي على الأعراض، والقائد التركي أحمد بك أوراق كان ينادي بأنه لو فتح الشعيبة يبقى عليه واجب آخر هو فتح العراق والفرات بخاصة والعشائر لأنهم خونة.

وكانت مذبحة الحلة على يد القائد العثماني عاكف بك، من أسوأ الأمثلة الهمجية على ذلك، يضاف إلى هذا كلّه غطرسة قائمقام النجف بهيج بك، وحملته المسعورة ضد المواطنين في النجف في مايس (١٩١٥) في الوقت الذي يجاهد علماء النجف وأبناء النجف جنباً إلى جنب مع العثمانيين.

وهكذا كان، ولكن الأمر لم ينته بهذه الحدود، وإنما كان النذير الأعظم بقيام ثورة العشرين بقيادة الإمام الشيخ محمد تقي الدين الشيرازي، وقد سبقتها ممهدة ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني مما لقن الإنكليز درساً في التعميم والثبات على المبدأ، وإن عمل العملاء على تضييع الجهود، وإبادة المنطلقات، وتشويه الوجه المشرق للأهداف الإنسانية والإسلامية وراء ثورة النجف، وقد عرضنا جملة من أحداثها الضخام في عمل مستقل(١).

وقد قاد هذا الاصطفاف الجديد للمجاهدين العراقيّن بقيادة مراجعهم إلى تفجير ثورة العشرين بكلّ أبعادها النضالية والقتالية والمأساوية التي كتب عنها الكثيرون، والتي حقّقت بما يسمّى بالاستقلال الشكلي للعراق بدلاً من أن يكون محمية تابعة للهند، أو قطعة من المملكة المتحدة في الشرق الأوسط.

---

(١) ظ: محمد حسين علي الصغير/ ثورة النجف ضد الاستعمار البريطاني، وأثرها في الشعر النجفي المعاصر/ بحث/ ألقي في عدة مؤتمرات.

فقد وقع اختيار بريطانيا على (ولسن) وكيلاً للحاكم العام في العراق، وكان شديداً متهوّراً يعتقد أن العراق أصبح في قبضته الحديدية، وليس الأمر كذلك، فقد عارض العراقيون سياسته ومباده التي أعلنها على شكل استفتاء، ففي تحديد لموعد الاستفتاء على مستقبل العراق ما بين كانون الأول (١٩١٨) وكانون الثاني(١٩١٩) = ربيع الأول والثاني (١٣٣٧هـ)، وجهت في مؤتمر عام عقد في النجف في ١١/ ١٢/ ١٩١٨م:

١. هل ترغبون بحكومة عربية مستقلة تحت الوصاية الإنكليزية يمتد نفوذها من أعالي شمال الموصل إلى الخليج الفارسي؟!.
٢. هل ترغبون في أن يرأس هذه الحكومة أمير عربي.
٣. من يكون ذلك الأمير؟؟

وفشل الاستفتاء بقيادة المراجع إذ أفتوا بحرمة تولّي غير المسلم على المسلمين، وابتدر الشيخ محمد رضا الشبيبي ونادى بأن العراقيين يرون أن الموصل جزء لا يتجزأ من العراق، فغضب ولسن، وضرب المنضدة بيديه، وأراد استطلاع بقية الآراء، فأيد الجميع الشبيبي في قضية الموصل، وأجمعوا على استقلال العراق دون حماية، وكان المتكلّم باسم عشائر الفرات الحاج عبد الواحد الحاج سكر متفقاً مع الشبيبي. وهنا بادر الحاج محمد جعفر أبي التمن وقدم النجف الأشرف مبدياً وجهة النظر البغدادية في جمع نظر السنة والشيعة بغية توحيد الكلمة في اتخاذ القرار السياسي الموحّد.

وانتهى رأي العراقيين (أن يكون للعراق الممتدة حدوده من شمالي الموصل إلى خليج فارس، حكومة عربية إسلامية يرأسها ملك عربي مسلم) [1]، وكان هذا القرار نكسة للجهود البريطانية وخيبة لآمالها في كلّ من النجف الأشرف وكربلاء المقدّسة وبغداد.

---

(١) ظ: عبد الرزاق الحسيني/ العراق في دوري الاحتلال والانتداب/ ١/ ٧١.

ويرى الأستاذ حسن الأسدي أن الصيغة التي اتفق عليها الناس في المؤتمر الأصل هي (المطالبة بالاستقلال التام الناجز أو الثورة) دون ذكر الملك العربي أو أحد أنجال الشريف حسين حاكماً [1].

وفي هذا الخضم من الأحداث كان الرأي البريطاني تأسيس دولة عربية في ظل الانتداب، واستبعاد الطموح العراقي للاستقلال وهذا ما حدث فعلاً حينما وافقت بريطانيا على مقترحات (ولسن) في ١٩ أيار ١٩١٩/ ١٩ شعبان/ ١٣٣٧هـ، وهي في الضد عمّا أفتى به الشيخ محمد تقي الدين الشيرازي (ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطة على المسلمين) [2].

وهنا تدخلت المرجعية في صدّ جماح الإنكليز على المستوى العربي والدولي في مذكرات ورسائل واحتجاجات، تنادي باستقلال العراق، وشجب السياسة الإنكليزية، وتصوير مآسي الاحتلال.

وبعد أن ذهبت كل الجهود سدى توسل العراقيون بالقوة الدفاعية عن النفس وعن الوطن، والتحقوا إلى الثورة المسلحة، فأعلن عنها في ٣٠/ حزيران/ ١٩٢٠م = ١٤/ شوال/ ١٣٣٨ بقيادة الشيخ محمد تقي الدين الشيرازي بعد أن فشلت كل الطرق السلمية والاحتجاجات والمظاهرات والخطب والمقالات والبيانات التي قام بها الشعب لا سيما في العتبات المقدّسة، وبعد إهانة رؤساء العشائر واعتقال قسم منهم، وتسفير جماعة من العلماء إلى الهند وإلى إيران، وبعد تمادي الإنكليز بغطرستهم وسياستهم القمعية في جباية الأموال وفرض الضرائب وشراء الذمم، فأفتى الإمام الشيرازي بقوله:

---

(١) ظ: حسن الأسدي/ ثورة النجف/ ٣٦٦.

(٢) ظ: الحسني/ العراق في دوري الاحتلال والانتداب ١/ ٧٤.

(بسم الله الرحمن الرحيم: مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطاليبهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوصل بالقوّة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطاليبهم)[1].

وهنا حمل العراقيون السلاح، في الوقت الذي تشتد فيه المعارك بالرميثة بين الإنكليز وعشائر الرميثة، وأصبح الواجب الشرعي قائداً للجميع في ضوء الواجب الوطني، فالتقى الهدف الديني بالهدف الوطني، فقامت الثورة، واندلع لهبها.

وأطلقت الرصاصة الأولى لها في الرميثة في ٣٠ حزيران / ١٩٢٠م على أثر إلقاء القبض على زعيم الظوالم الشيخ شعلان أبو الچون رحمه الله في عملية قام بها أبناء عشيرته تعتبر غريبة في نوعها، وبإطلاقه عنوة من السجن أطلقت رصاصة الثورة الأولى.

وعلى أثر ذلك ابتدأت العمليات العسكرية للثوار، وحوصرت الحاميات البريطانية، واستجاب رؤساء العشائر للثورة في الشامية والسماوة وأبي صخير والمشخاب، وكان دور السيد علوان الياسري والشيخ عبد الواحد الحاج سكر بارزاً، وامتدّ لهيب الثورة إلى النجف الأشرف والكوفة وكربلاء والحلة، وبغداد في حدود معينة في بعض مناطقها.

وكانت معارك الرميثة حيث قطّع الاتصال التمويني بالجيش البريطاني بمهاجمة سكك حديد البصرة وتعطيل القطار، وقتل وجرح (١٤٨) من جنود الاحتلال البريطاني، وغنيمة أكثر من مائة بندقية، وسبعة رشاشات[2].

وتمّت هزيمة الجيش البريطاني في معارك الرارنجية في ٢٤ تموز ١٩٢٠م، وقضي فيها على رتل (مانشستر) بمعارك دامية سجلت فيها العشائر العراقية الغراء انتصاراً باهراً، يضاف إلى هذا الانتصارات المتلاحقة في الديوانية وما سجلّته العشائر الفراتية في

(١) نص فتوى الشيخ الشيرازي تذكرها كل كتب المذكرات وأحداث الثورة/ محبوبة+ فياض+ الصغير+ الوردي+ الشبيبي....الخ.

(٢) ظ: عبد الله الفياض/ الثورة العراقية الكبرى/ ٣٠٤.

معارك القطار مع الجيش البريطاني من نصر ساحق، حيث قلعت قضبان السكك الحديد قبل مجيء القطار، وبادر إليهم الهجوم المسلح من قبل الثائرين، وكان دور السيد كاطع العوادي فيها بارزاً ومشهوداً، ودور قبائل الأقرع وخفاجة وآل بدير وآل شبل، والجبور، والبو سلطان دوراً مشرفاً كبقية العشائر العراقية.

وفي النجف الأشرف قامت حكومة ذاتية باقتراح من اللجنة الجهادية العليا في النجف: الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد صاحب الجواهر والشيخ مهدي نجل المولى محمد كاظم الآخوند زعيم الأحرار، وقد قرروا أن يكون رؤساء المجلس التنفيذي رؤساء المحلات الأربع في النجف، إلى جنب مجلس تشريعي يضم ثمانية أعضاء، من كل محلّة عضوان. وكان ذلك في ٢٥ آب/ ١٩٢٠م=١٠/ ذي الحجة/ ١٣٣٨ هـ [١].

وفي أثناء الثورة توفي قائدها الشيخ محمد تقي الدين الشيرازي في ٣/ ذي الحجة ١٣٣٨هـ = ١٧/ آب/ ١٩٢٠م فانتقلت القيادة إلى شيخ الشريعة أعلى الله مقامه، فقاد الثورة حتى النهاية المعلومة التي استجاب فيها الإنكليز إلى تشكيل حكومة عراقية في الصورة والشكل لا في المحتوى والمضمون، فخابت آمال الثورة والثوار، وتسلم الحكم عملاء الإنكليز، ولا تزال هذه النقطة الفاصلة من تأريخ العراق السياسي، تنخر في جسم العراق حتى اليوم.

وبغية تحاشي أخطائها الفادحة فقد نهد المرجع الديني الأعلى السيد السيستاني دام ظله في تكليفه الشرعي في عصرنا الحاضر المليء بالمفاجئات والأحداث والأزمات السياسية الحادّة، فصمد في وجهها متأنياً صامداً ثابتاً، خبيراً بالأمر، بصيراً بالعواقب بما ينطبق عليه قولنا:

تتحدث الأجيال عنك بأنها ألفت زعيماً عالمياً مطلقا

(١) ظ: محمد علي كمال الدين/ معلومات ومشاهدات/ ٨٢ومابعدها.

فرغم كراهية السيد السيستاني للعمل السياسي، إلا أن أوضاع العراق الملتهبة بعد سقوط الطاغية في ٩/ ٤/ ٢٠٠٣ إضطرته الى التدخل المباشر وغير المباشر لحفظ الأمن، والاحتراز من سفك الدماء، وتوجيه الشعب العراقي نحو الإلتزام بالوحدة الوطنية الحقيقية، فهو أب لكل شرائح هذا الشعب، وموّجهٌ لفصائل هذا البلد الذي أعتبره بجداره رمزاً علمياً شاخصاً طيلة ستين عاماً من الإقامة في النجف الأشرف، مجاهداً ومناضلاً في سبيل وحدة الأمة، حتى آلت إليه المرجعية العليا في ٨/ ٨/ ١٩٩٢م = ٨/ صفر/ ١٤١٣هـ لدى وفاة سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي قُدّس سره.

هذا العَلم الشّاخص واللواء الخفّاق لا يفرق على الأطلاق بين مذاهب الأمة الإسلامية وطوائفها المتعدّدة، بل قد يذكر آراءهم العلمية في (البحث الخارج العالي) في الفقه والأصول، كما سمعت ذلك منه مشافهة عند منبر تدريسه العالي، وهو لا يمّيز بين طبقات الشعب العراقي وفصائله المذهبية والعرقية كافة، ويريد إقامة صرح العدل الاجتماعي الصادق في ضوء تعليمات القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهو يُريد تطوير العلاقات الاجتماعية المعمقة بين أطياف هذا التلوين الديني والقومي وأشكاله الأخرى للتعبير عن وحدة الأمة في ضوء وحدة القيادة الواعية، وهو يصدر في هذا المنطلق عن وعي سياسي متحضّر خارق يجمع به كلمة العراقيين في الألتفاف الذي يوحد صفوفهم، ولا يدع ثغرة للأستعمار العالمي ينفذ من خلالها لاختراق مقدرات الشعب العراقي والهيمنة على استراتيجية أبعاده المتشعبة ثقافياً ومالياً وفكرياً وتجارياً ونفطياً وهو الهدف الأول والأخير.

يتجلّى فكر هذا التصوّر الوطني عند السيد السيستاني دام ظله في عدة ظواهر:

١. إستقباله لأقطاب العمل السياسي من مختلف الأحزاب والتنظيمات دون التفريق بين جهة وأخرى أو الجنوح إلى فئة، أو التحيّز إلى فئة.

٢. إستيعابه لنظرات المناخ الأقليمي والجغرافي والتعدّدي لشرائح الشعب العراقي كافة، متمثلاً بتشرف الآلاف من وفود شمال العراق ووسطه وجنوبه، وذلك بمقابلاته فصائلهم، واستماعهم مبهورين إلى حسن التوجيه والنصح الكريم.

٣. تعزيز أهل هذا الملحظ بالذات باستقباله لوفد علماء أهل السنة في ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٧م حينما قالوا له أنت أبٌ للعراقيين كافة، فأجاب ببلاغته المعهودة (بل أنا خادم للعراقيين) فاستعظموا هذه العبارة من سماحته، وقابلوها بالإعجاب والإكبار، وتحدّثوا عن ذلك بوسائل الإعلام، وصرّحوا به علناً في مؤتمر علماء السنة والشيعة المنعقد في النجف الأشرف بالتأريخ نفسه.

٤. تأكيد سماحته مراراً عن رفض القول (إخوانا السّنة) إذ قال: (لا تقولوا إخواننا السنة بل قولوا: أنفسنا السنة) وقد كرّر هذه الجملة عشرات المرات.

٥. ومع وضعه الديني المتميز تتراءى مرونته السياسية - من أجل شعب العراق- باستقباله الأعلام من ممثلي الأمم المتحدة، ومجلس الأمن الدولي، ومبعوثي جامعة الدول العربية، والأخضر الإبراهيمي بالذات، وإستنكاره لاغتيال المقيم الموقت للأمم المتحدة في بغداد السيرجي دملو (s.g delmo) وشجبه لهذا العمل.

٦. رفضه لاستقبال كلّ المسؤولين الأمريكيين من السفير (بول برايمر) الحاكم السياسي في العراق إلى العسكريين والدبلوماسيين والمراسلين ووكالات الأنباء، وقد أشرت إلى كثير من هذه الحقائق في المقابلة التي أجرتها معي في دارنا في النجف الاشرف صحيفة (التايم الأمريكية) الصادرة في نيويورك في آب/ ٢٠٠٤، وبعد أن ترجمت الى اللغة الإنكليزية (النص العربي نشرته مجلة الموسم في هولندا)والذي أكّدت فيه على رفض السيد السيستاني أن يستقبل (مستر بوش) رئيس الولايات المتحدة وإعتذاره عن ذلك.

٧. ولبيان الحقيقة التأريخية وإستقراء البعد الوثائقي، فإن ما نشره السفير (بول برايمر) في كتابه (عام قضيته في العراق) من إدعائه أن هناك مراسلات عديدة بينه وبين السيد السيستاني موضوع لا أصل له على الإطلاق. والباحث يتحدّى برايمر أن ينشر أية وثيقة تأريخية أو رسالة شفوية من السيد السيستاني (دام ظله) في أي موضوع جزئي أو كلّي يدعم فيه دعواه في تلقيه عدة رسائل من السيد السيستاني، فذلك زوّر فيه برايمر التأريخ العراقي المعاصر بافتراء لا أساسَ له من الصّحة.

٨. تأكيد سماحته الاستمراري المكثّف على نبذ الدعوات الطائفية، ورفض المحاصصة في الوزارات والمناصب، والإصرار على إختيار ذوي الكفاءات العالية من العراقيين بغض النظر عن المذهبية الضيقة، وهو من الأسباب التي دعته إلى مقاطعة الحكومة العراقية بكلّ فصائلها القيادية وإغلاقه باب مكتبه عن إستقبال أي أحد منهم، لإرادته - دام ظله - أن ينعم الشعب العراقي بالأمن والطمأنينة وسيادة العدالة في الإسناد الوظيفي لمختلف مرافق الدولة. فلا يهمه أن يشغل المناصب العليا والسيادية من هو شيعي أو من هو سني، بقدر ما يهمه أن تتوافر الشرائط الوطنية والأخلاقية في الواجبات والحقوق، داعياً الى المساواة الفعلية لا الزائفة في كل شيء، وهذا ما لم تنّفذه الحكومة.

٩. مناداته جهاراً ونهاراً بإلغاء الامتيازات الظالمة في سلّم الرواتب للرئاسات الثلاث رئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس الوزراء ورئاسة مجلس النواب، وتخفيضها في ضوء ما يتسلمه رؤساء الدول في العالم، وفي الدول العربية والإسلامية دون هذه الملايين الهائلة التي تؤخذ من نفط العراق لقمة الشعب العراقي المظلوم، مضافاً إلى السيطرة الكاملة في إعطاء المناقصات لمشاريع الإعمار والذي يذهب أغلبها للرشاوى والمزايدات السرية في جيوب الحاكمين.

١٠. تأكيده على ضرورة الانتخابات وإجرائها في مواعيدها المحدّدة بشكل نزيه دون محسوبية أو منسوبية، ودون شراء الضمائر والتزوير في النتائج، وضرورة

التغيير في الأشخاص والقادة بعيداً عن الدكتاتورية المطلقة التي يمارسها الحاكمون وكان التأكيد على ذلك لئلا تتكرّر أخطاء ثورة العشرين التي إستثَمرت جهودها، وإغتنمت مكاسبها (أفندية بغداد) وسواهم ممن سار بركاب الانتداب البريطاني على العراق.

فـإذا الـغـريـب هـو الـقـريـبُ أصـالـةً　　وإذا الـقـريـبُ هـو الـقـصـي الأبـعـدُ

١١. وفي هـذا المـلـحـظ بـالـذات، فـلـلـتـأريـخ أقـول: إن السيد السيستاني، لم ينصّ في الأنتخاب على أية قائمة معينّة، وإنما قال بالحرف الواحد: (من إرتضيتم دينه ووطنيّته فأنتخبوه). وقد عاودته مراراً وتكراراً أن أصرّح بقوله هذا في الاجتماعات والأندية والمجالس، فقال: صَرّحْ به، فهذا هو تكليفي الشرعي.

١٢. وحينما لم تستمع الدولة وقادتها الى نصائح السيستاني المتكرّرة أغلق بابه، وحدث ما كنا نتوقعه من بوادر الحرب الأهلية في ظل تنمُّر الحاكمين، فقامت (داعش) باحتلال الموصل وقصبات الأنبار وتكريت، فأضطرت المرجعية الى إعلان الدفاع عن بيضة الإسلام، وقد كادت الدولة أن تنهار، فاستجاب الشعب العراقي بأكثر من ثلاثة ملايين متطوّع، عسى أن يستعيد العراق وعيه السياسي، وتعود الأخوّة بين فصائله و(الحديث شجون) والله المستعان على ما يصفون، والنازحون بمئات الآلاف يغادرون الموصل وقصباتها، ويفرّون من الأنبار وقتالها ويهربون من صلاح الدين وضواحيها، ويتجهون إلى شمال العراق في المناطق الكردية لحصانتها، وإلى النجف الأشرف وكربلاء المقدسة بمئات الآلاف تاركين ديارهم ومنازلهم ومقتنياتهم وما يملكون حفاظاً على أرواحهم ونفوسهم من القتل والإبادة الفردية أو الجماعية في أحكام ما أنزل الله بها سلطاناً من قبل التكفيريين الذين ابتدعوا الشعارات الجديدة في سفك الدماء، وهتك حرمة المسلمين، علماً بان هنالك الإجماع من قبل كلّ المذاهب

الإسلامية وحتى السلفية منها أن: (من نطق الشهادتين حقن ماله ودمه وعرضه) !!
والسؤال: هل حُقنت الدماء؟ وهل حفظت الأموال؟ وهل صينت الأعراض من الهتك والمنكر، وهل سلمت الفتيات من جهاد النكاح أو نكاح الجهاد؟ من قال من المسلمين والسلف الصالح بهذه الفصائح والمنكرات والبدع، أين هم من قول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . . ﴾[1]
وهل للتكفيريين بمختلف شرائحهم وتسمياتهم الحقّ في نصب (محاكم التفتيش) فينقبوا عمّا في القلوب والضمائر؟ ويصدرون أحكام الإعدام رمياً بالرصاص، أو قطعاً للأعناق، أو ذبحاً كما تذبح الخِراف..يالله وللمسلمين.

وفي النجف الأشرف اليوم ١٤/ رمضان المبارك/ ١٤٣٥هـ= ١٣/ تموز/ ٢٠١٤ أكثر من ثلاثمائة ألف نازح من الموصل وقصباتها وصلاح الدين وضواحيها، عدا آلاف العوائل المشرّدة، وقد تمّ إسكانهم في داخل النجف وخارجها في الحسينيات الممتدة من النجف حتى كربلاء، وهي بالمئات، وقد إنهالت عليهم التبرّعات من كل جانب ومكان، فأمر السيد السيستاني بإعطاء كل فرد خمسين ألف دينار مبدئياً، وقام التّجار والكسبة في النجف وبغداد بتوفير كل الحاجات اللازمة من الأطعمة والكسوة والفواكه والمياه الصحية والغطاء والوطاء بما تقدر تكاليفه بمئات الملايين، وهم الآن بين أهاليهم لا فرق بين سني أو شيعي أو مسيحي، فالكل عباد الله، وقى الله العراق الفتنة العمياء.

(١) سورة المائدة:٣٢

الفصل الرابع

عقباتٌ في طريق المرجعية

١. المناخُ السياسي.

٢. الفقهاءُ الرسميون.

٣. المَرَدَةُ المتطرّفون.

تمهيد

المرجع الحق هو الذي يبتعد عن مظاهر الأبّهة والكيان المصطنع، فالهيبة له من الله تعالى، والمكانة العليا ببركة الأئمة الطاهرين، وليس هنا من مراجعنا من يعمل لنفسه، وليس فيهم من يجرّ النار إلى قرصه، وما عليهم إلاّ أداء الأمانة وتبليغ الرسالة بكثير من الأعداد في الشعائر والطقوس والواجبات، حتى أن استيفاء الحديث عن هذا الجانب قد يُخرج الموضوع عن موضوعيته.

لقد أدركنا طائفة من المراجع كان السلوك الاعتيادي رائدهم، والتواضع شعارهم، والبساطة دثارهم، والترسّل ديدنهم، والإنابة والإخبات شغلهم الشاغل، والاندماج الكلّي بطبقات الناس هدفهم المركزي.

وكان هذا التعايش في المناخ السلوكي والعقلي للمراجع، قد أثّر في الشعبية الجماهيرية التي تنصت لأقوالهم، وتعمل بآرائهم، بعيداً عن الضجيج والإثارة، وكان تعلُّق أتباع أهل البيت بعلمائهم مضرب المثل حتى في الدراسات الأوربية والاستشراقية، كما هو مضرب المثل في المعادلة النوعية في القياس للحاكمين والمسؤولين ورجال السلطة، وهذا ما جعل الفروق المميزة بين الفصيلين متعدّدة الجوانب، فلا قوّة للمرجع إلاّ بالله عز وجلّ ولا عشيرة له إلا بالتفاف الناس حوله، هذان العاملان المهمّان هما مصدر السلطات لدى المرجعية، ولمّا كانت الحرية الفكرية متوافرة في الدرس والتحضير والتدريس كان البون متفاوتاً بالنسبة لطلاّب العلم وأعضاء الحوزات العلمية، فحرية اختيار الأستاذ، وحرية الانخراط في السلك الديني، وحرية الحضور في الأبحاث، كلّ أولئك أوجد بعض

المفارقات التي لا سيطرة عليها، ولا ضابط لأبعادها، ولا تحديد في مسؤولياتها، ولم يبق إلا الحاجز من تقوى الله لإقرار الحقائق والوقائع، فكم من مدّعٍ للعلم لا يحمل آلية، وكم من مدرع بلباس أهل الدين لا يعرف موقعه، وكم من متطاول على المقام الروحي ليس له رادع، وكم من متدخّل في شؤون العامة وليس هناك، وكم من يهرف بما لا يعرف، وكم من حامل علم لا يعمل به، وكم من جاهل يتقولب بإطار العلماء، وكم من إمّعة يتطفّل على محافل التحصيل، وكم من مغرور يتطاول إلى ما ليس له، وكم من حاقد يصبّ جام غضبه على المنصب المرجعي، وكم من مندسٍّ بين الصفوف يحاول الإيغال في الفتنة، وكم من أدعياء لا قَدم ولا قِدم لهم في الحوزة العلمية، وتعمل بعض الجهات المخطّطة أن تجعلهم في الصدارة والوجاهة، وقد يختلط الأمر على السّواد، ويغيب الوعي عن الأكثرية، فتفقد المقاييس، وتضيع الموازين، ويتسع الخرق، فيشتبه الصواب، ويران على الحقّ الصريح. وكم من متهوّر لا همّ له إلاّ الانتقاص، وكم من رقيع لا عدّة له إلاّ الاتهام، وكم من فارغ لا حليف له إلاّ الادعاء، والكل يتجاهل حدود اللياقة، ويتجاوز قدر الآداب المرعيّة، متناسين قوله عليه السلام: (ما هلك أمرؤ عرف قدره) كل أولئك قد يشكّل عقبات في طريق المرجعية، يصعب كبح جماحها مالم تتظافر الجهود للتخفيف من غلوائها.

وفي ضوء ما تقدّم يمكن القول بأن أبرز العقبات كالآتي:

أولاً: المناخ السياسي

على الرغم من تركيب المرجعية الخاص وانفصاله عن السلطة، فهو لا يرتبط مالياً بالسلطان، ولا اتفق أن قبل مساعدة من هذا النوع، ولا طلاب الحوزة بموظفين في الدولة، والدولة غير مسؤولة عادة عن معايشهم والإنفاق عليهم، ولا هم بسائرين بركاب الوظيفة والمنصب الرسمي، رغم كلّ هذا فإن المناخ السياسي يُمارس شتّى

الضغوط على المرجعية، محاولاً جرّها إلى متاهات لم يسلكها أحد مراجعنا على الإطلاق، يحاول المسؤولون السياسيون أن تستجيب لهم المرجعية في الرغبات والطلبات، وهم قد يثقلون عليها بما لا تتحقّق معه الاستجابة، فالمرجعية كيان مستقل قائم بذاته غير قابل للتأثر من قبل الحاكمين إلاّ في قناعات مسبقة تمليها المصلحة العليا. قد تُسنّ بعض القوانين الجائرة ويُراد من المرجعية إقرارها، وقد تشرع بعض الأنظمة المخالفة لصريح القرآن ومبادئ الرسالة الإسلامية ويراد من المرجعية تأييدها، وقد يتصرف المسؤولون تصرفاً شاذاً أو يراد من المرجعية إمضاءه، وقد تضايق المرجعية إسفافاً في إرادة مقابلات تلفزيونية لا اعتياد لها عليها، أو برقيات دعائية لا مسوّغ لإبرامها.

وقد تضايق أتباع المرجع ملاحقة ومحاسبة دون سابق إنذار، وقد تُوجَّه التهم الرخيصة بآليةٍ مبرمجة بقصد الإيقاع وإثارة المشكلات التي لا أول لها ولا آخر. وعادة ما يخضع رجال الدين للخدمة العسكرية جزافاً، ولا يعفون كونهم حملة الرسالة المحمدية، بينما يعفى آخرون لميزات مذهبية أو طائفية. وقد يحرج المرجع فيراد إقحامه بمواضيع وقضايا ومسؤوليات لا ناقة له فيها ولا جمل. وقد يحدد تصرفاته دون مسوّغ قانوني، وتُفرض عليه رقابة دون تشريع ينهض بتبريرها، وقد يُحمل على عمل ليس من رأيه ولا من قراره ولكنه لا يفعل. وأمثال هذا كثير لا نريد الخوض في عباب تيّاره، وعلى السياسة أن تدرك واعية ومتبصّرة أن المرجعية ليس منصباً قابلاً للعزل، ولا هي وزارة محتملة السقوط، ولا هي بوظيفة تُناط بأحد ويعفى منها أحد، وليس هو بكيان يؤثر عليه بشيء، وإن من العقل بمكان تركها وشأنها، ما زال هدفها البناء العلمي وتشييد الصرح المعرفي، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. إن الدول لتفتخر أن من بين فصائل شعوبها العلماء والفقهاء والمثقفين والأساتذة وجهابذة الفنون، فما بالنا لا نفتخر بهذا الكيان المستقل ونعتزّ بعائدية أعماله العلمية المبتكرة التي تواكب الأجيال وتساير العصور؟؟

ما تحدث تأريخ المرجعية، وهو يمتد أكثر من ألف عام، بأنه شايع السلاطين أو تابع الحاكمين، أو خضع لإرادة خارجة عن دائرة تُخصّصه، ولا انفتح على رغبات آنية أو مستقبلية ليست من شؤون إدارته، ولا استجاب لآراء تناقض قناعته، ولا أفتى بما يوافق جور الجائرين أو هوى المسؤولين، وإنه نسيج وحده، وثمار جهده، لا ولاية لأحد عليه لاستقلاليته في المسار والمنهج. إذا أدرك هذه الحقيقة ذوو الاتجاه السياسي فعليهم الكفّ عن الإصرار والإلحاح في تطلب ما ليس لهم، وتصيَّدُ ما ليس بمقدورهم.

والتسديد الإلهي هو الكفيل وحده بمسيرة الركب المرجعي.

عادة ما يلجأ السياسيون الى المرجعية في صدّ الطوارئ وحلّ الأزمات، وهذا أمر لا مانع منه ولا غضاضة فيه، أمّا جرّ المرجعية إلى متاهات لا تؤمن بقطع مجاهلها، ولا هي من مجالات تعاملها، فأمر مرفوض جملةً وتفصيلاً، أما انقياد الشعب لهذه المرجعية فليس شأناً جديداً وإنما هو موروث عقائدي لا يجد عنه منهج أهل البيت بديلاً، ولن تجد لسنّته تحويلاً، فالمبدأ العام قائم على قيادة الأئمة الاثني عشر ثم النواب الأربعة السفراء عن الحجّة عجّل الله فرجه، ثم العلماء الذين يُحلّلون حلال محمّد ويحرّمون حرام محمدﷺ. وهم مراجع الأمة ونواب الأئمة، فما أوقعوا المسلمين في ضلال، ولا غرروا بهم في شبهات، ولا جانبوا طريق الرشاد، فكانوا الحجّة على الناس، ففي توقيع المهدي المنتظر أرواحنا فداه يقول: (وأما الحوادث الواقعة؛ فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجّتي عليكم، وأنا حجة الله [عليهم])[١].

وإرجاع الأئمة إلى العلماء في مثل هذا الحديث الشريف إنما هو تأسيس لمبدأ المرجعية، فرجوع الناس إليهم لا عن كلالة، وإنما هو تراث أصيل.

---

(١) الحر العاملي/ وسائل الشيعة ١٨/ ١١+ الكليني + الصدوق + كتب حديثة اخرى.

ثانياً: الفقهاء الرسميوّن

بلي الإسلام منذ عهد مبكر بوعّاظ السلاطين والفقهاء الرسميين، يزيّنون للظالم تجاوزه المقررات، ويُجنّدون للحاكم تطاوله على الحدود، حتى نشأت مقالة الجبر وشاعت مسألة الإرجاء بوحي من الحاكمين، وتأييد من الولاة والقضاة، فكان الحاكم ظلّ الله في الأرض، وإن ظلم عباد الله، واستحلّ حرمات الشرع، وأكل مال الله، فالخلافة أمر مقدور، والمنصب شأن إلهي، فرض على الناس فرضاً، ويستقبله العباد حتماً، فلا رادّ ولا مانعَ، ولا منكر ولا وازعَ، ما دام الحاكم يحكم باسم الله قدراً ومشروعاً، ونظاماً مفروضاً، أما دعوات المصلحين ولفتات الواعين فهي صيحة في واد، لا يستمع إليها أحد، ولا يجيز الواضع في أحكامه العرفية الاستماع لأصدائها، فقامت المظالم، وعُطّلت الشّريعة، وخولف القرآن. إن الأنظمة الجائرة بحاجة إلى تبرير أعمالها وتوسيع مخططاتها، وتنفيذ برامجها، ولا أنفذ للقلوب من شعار الدين والحكم بإفتاء الناس في ضوء الشرع، فنشأت طبقة من السائرين بركاب السلطان، يزيّنون له المخالفات، ويدعمون وجهات النظر، والسواد بين مصدّق موافق ومتردّد منافق، وهنا يسود الزيغ والانحراف عن المنهج الرسالي. لقد اتُهمت حركات الإصلاح بالارتداد، ووصُمت لمحات التغيير بالزندقة، ومُنيت مشاريع التصحيح بالهزيمة، فما دام الحاكم يتأبّط بحفنة تتكلّم باسم الدين، وتحكم بخلاف ما أنزل الله، ولها الأموال، ولديها الجاه، ومعها النفوذ، فإن الجهود تعود سدى، وتتلاشى معالم الحق المبين.

والحق أن بدعة الفقهاء الرسميّين من أفكار معاوية بن أبي سفيان، ففي الوقت الذي نجده يضطهد كلّ دعوة دينية، نراه يؤيد عقيدتي الأرجاء والجبر، ويقرّب القائلين بهما، مظلّه تحتضن الإطار الديني الرسمي لحماية نظامه بإضفاء صبغة الشريعية عليه، فانطلق فقهاء هاتين العقيدتين يبيحان لمعاوية التصرّف أنّى يشاء، وسمحتا

للسلطان أن يرتكب أعظم الكبائر جريرةً، ولا يقدح ذلك بالحاكم، لأنه السلطة الشرعية حتى وإن خالف أحكام الله، وتلاعب بدين الله وكان ذلك تثبيتاً لدعائم الحكم الأموي، فما دام الحاكم يشهد الشهادتين، فلا يعزله إسراف؛ ولا يغيره فسقٌ أو فجور، من هنا نشأ الفكر الديني المنحرف عن الإسلام في ظل السلاطين يُبرّر كل تصرفاتهم، ويبيح لهم التسامح بالفرائض والسنن، ولا يمانع في قتل المعارضين وسفك دم الرافضين، فالحاكم ينبغي أن يكون مسلماً فحسب، وليس من شأن أحد أن يطالبه بإقامة المناخ الديني أو أن يحكم على عمله بشيء من النقد الموضوعي. واستمر هذا البرنامج في خلق طبقة من المتكلّمين والفقهاء والقضاة، فسار عليه حكّام العصر الأموي والعباسي والعثماني وحتى القرن العشرين، وفي هذا الاتجاه سقطت حملة من الأسماء اللامعة، وانهارت شخصيات مهمّة، وتدهّورت معالم التحصيل العلمي نحو بلاط الحاكمين وموائد الخلفاء وأصحاب السلطان، ولا أريد أن أضرب لذلك أمثلة في طول التأريخ وعرضه، فالأسماء كثيرة، والأعلام معروفون، فاختلط الحابل بالنابل، إلا أن الناقد البصير يمّيز هذه الفصائل، ويفرز بين هذه الشرائح، وعلى الناس الاستنارة برأيه. امتد هذا المناخ الهزيل ليطال الأئمة في عصورهم، والمراجع من بعدهم، فما استطاع أن يغيّر من الواقع شيئاً، وإن استطاع أن يضفي صفة الشرعية على مفارقات السلاطين وأضاليل الفراعنة.

لقد عمد الإنكليز في العراق، والفرنسيون في لبنان إلى خلق مثل هذه الطبقات، حتى أفتى منهم من أفتى ببقاء الإنكليز على رأس الحكم، ونادى بضرورة سيطرة فرنسا على الشام، وقد أغدق المستعمرون على أذنابهم من هؤلاء بالأعطيات الضخمة والصلات الجزيلة، وتواصلوا خيراً بأبنائهم فكانوا السادة الوزراء، والقادة الأمناء، وحُرّم المناضلون من أجل الموقف وكلمة الحق. وعادت سنَّة تدخل الفقهاء الرسميين بشؤون الدين والدنيا، ولكنها سنة سيئة ظاهرة

أوزارهـا، إلاّ أن التيقّظ لدى الشعوب الإسلامية في طلائعها الواعية رفض السير بركاب هؤلاء المرتزقة، وأشار بيده إلى أساطين العلماء وفحول الفقهاء، فسقط الخيار أمام الانتهازيين، وعادت الصفقة سبةً وعاراً وشناراً، إن إضفاء الصفات البرّاقة على سقط المتاع لا يغني عن الحق شيئاً، وإن الجهلة بما يحملون من افتراءات وأضاليل لا يمكن أن تغيّر جوهر الإسلام، ولا تصدّ الشعب المسلم عن اتباع الأمثل فالأمثل. والأغرب من هذا كلّه، أن هؤلاءِ الأدعياء لا أنارة من علم في جعبتهم، ولا لمح من تقوى في سيرتهم، ولا أتباع لهم إلا أصحاب الطمع والجشع، هياكل من ورق، وبيوت من ثلج، سرعان ما تذروها الرياح، وتذيبها أشعة الشمس، يخادعون أنفسهم والناس بالتلّبس بمنصب ليس لهم، والبروز بمظهر غريب عليهم، فهو وهم في تناقض وتضادّ، وكأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

ولكنهم كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: (بلى والله قد سمعوها ووعوها ولكنهم حليت الدنيا بأعينهم، وراقهم زبرجها).

ثالثاً: المَرَدَةُ المتطرّفون

وهم لفيف من غوغائي الناس، بين مؤلّف فاشل، وصحفي خامل، ورجل دين بلا مسمّى، وثرثار مهذار همّه التنطّع في البيان، ولّي اللسان، فهؤلاء المؤلفون، ممن بلي بهم الإسلام، وليس لهم ذمة ولا وجدان، غير صادقين في الأحاديث، وليسوا موثوقين فيما يسطرون، أضاليل وأباطيل لا أول لها ولا آخر، تحرّكهم الأجهزة العالمية، ويدفعهم حبّ الظهور، وتملأ غرائرهم بالمال الحرام والسحت المعلوم، باعوا الآخرة واشتروا الدنيا

(١) القصص: ٨٣

في إعلام مضادّ للمسيرة العلمية، وقداسة المراجع العظام، فهم لا يبرحون يكذبون ويكذبون (أكذب وأكذب حتى تصدّق) ولكن لم يصدقهم أحد:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهِنهَا ... فلَمْ يضرْه وأودَى قرنَهُ الوعلُ

لم يسلم منهم أحد، كأنهم موكلون بثلب المراجع العظام وأئمة الدين، وفي الآونة الأخيرة شُنّت الحملات الظالمة على الإمام السيد محسن الحكيم والإمام السيد أبو القاسم الخوئي، كيلاً للسباب والشتم، وتطرّفاً في الانتقاد وأكل لحوم العلماء، وتشفياً غريباً في الانتقاض من المقام الروحي الأسمى، وإيغالاً في الفتنة وإشاعة الفحشاء في الذين آمنوا، ليس لهم من الله رادع، ولا من الدين وازع، ولا من النفس تحرج عن الثلب والسب ولغة الاتهام.

يروي أحدهم أن شاه إيران كان يرسل إلى الإمام السيد محسن الحكيم مليون دولار في الشهر.. لا يسند ذلك إلى ثقة، وتكذبه وقائع الأحداث، فقد أرسل السيد محسن الحكيم إلى ولده السيد يوسف الحكيم أن يوافيه إلى مستشفى ابن سينا إلى بغداد، وسلّمه مفتاح خزانة بيت المال، فتسلمه السيد يوسف بعد تردد، وجمع لجنة مؤلفة من الأثبات والثقات، وفتحوا الخزانة، وكان كلّ ما فيها خمسة وثلاثين ألف دينار، فتسلّمها وجعلها تحت تصرّفه لإعالة الفقراء، وسد احتياجات الحوزة. ولو كان الإمام الحكيم ملياً لما كان هذا كل ما في بيت المال، ولم يخلّف غيرها لا صفراء ولا بيضاء، وكان الناس في أيامه في عوز شديد وضائقة مالية، ولم تكن رواتب الحوزة كافية لسد الرمق، فهجرها كثيرون واتجهوا إلى الوظائف، فأين هذه المليون دولار المدعاة؟؟ إنه التزوير والتلفيق وخيانة الأمّة، وسيجتمع المُتهِم والمتهَم بين يدي الله، وسيرى الكاذب لمن الفلج. وثمة اتهامات أخرى تُريد من المرجع أن يخالف مبناه الفقهي وخطّه الاستدلالي فيما يوافق أهواء الأغمار والأغرار، كأن المرجع في أيديهم لعبة يديرونها حيثما شاؤوا.

إن التجريح والتعريض من قبل هؤلاء وسواهم بأئمة الإسلام، لا عائديه معه إلا التضليل والإيهام، وإرادة الانحراف عن سبيل أهل البيت ومحجتهم البيضاء.

وهؤلاء الأقزام الصغار ممن تزيّا بهيئة رجال الدين، وهم ما بين عميل للاستعمار (علماء الأوفيز) وبين موظف في الأجهزة، وبين شرطي في الأمن، وهذه الفصائل مقصود إليها في هدف مزدوج يعنى بتشويه سمعة أهل العلم تارة، ويستعان به على الاستهانة بالمراجع العظام تارة أخرى، ولا همّ لهم إلا تسفيه آراء الفقهاء، وإثارة الشبهات حول مسيرتهم المقدّسة، والطعن في الأحساب والأنساب، والمعارضة لكل ما هو مشروع وسديد. فإذا سألت عن الدواعي لهذا الزيغ المعتمد، والنزعات الطائشة، ذكروا الحواشي بالقول المقذع، وتناولوا المستشارين للمرجع بالشتيمة وفارغ الكلام، وقالوا أيضاً: أين تُبدَّد هذه الأموال؟ وأين مصارف الحقوق الشرعية؟ وكأنهم القيّمون على بيت المال، والمحاسبون القانونيون لمستندات الصرف!!

هذه الشبهات التي لا أصل لها، إنْ بدّدتها شعاعاً وفرّقتها أيادي سبأ، ودافعت عن الكيان المرجعي، فسدّ عليهم الطريق بالدلائل الناصعة وأُلقموا حجراً في الحجاج والمناظرة، قالوا إنك متعصبٌ للمراجع، كأن قول الحق من التعصب والهوى، وإثبات الحقائق من العصبية لا الالتزام، وإذا أوقفتهم على أخطائهم وتهوّرهم، كثر اللغط والكلام المقيت، وخرجوا إلى موضوعات هامشية وأحداث جانبية، ليبدّدوا الموضوع الأصل، ويثيروا الإشكاليات الباهتة، وضربوا لك مثلاً بأشباه الرجال ولا رجال، واستشهدوا بالمشاريع الفاشلة ولا مشاريع، وطالبوا بما فوق طاقة المرجعية، وحاولوا إثارة المشكلة السياسية في إنقاذ الناس، وكأنما لا شغل للمرجعية إلا المضاربة في السياسة، أو الانخراط في سفك الدماء، أو الارتماء في أحضان المناصب والسلطان، وثمّة ثغرات أخرى لا صلة لها بالتقويم النوعي للذوات والأشخاص، فقد يضخّمون من لا أثر له في الاصطفاف العلمي، ولا معرفة له في فن من الفنون، وقالوا لك أليس هؤلاء من العلماء الأعلام،

فلماذا لا تؤيدون خطواتهم، ولا تتابعون نشاطهم؟ فإذا نظرت إلى النماذج المضروبة لك مثلاً، وجدتهم بين لصّ محترف، وبين أميّ لا يعرف أي طرفيه أطول، وبعضهم لا يحسن قراءة سورة الفاتحة بحركاتها وقواعدها العربية، وتخرج بقائمة من الأحداث والمغررين:

بين محبنطئ بعمامة فارهة، ومتطاير بجبة فضفاضة، ومتوّقر بحزام عريض، ومتحلقٍ بخواتم زبرجد وعقيق وفيروزج وياقوت ودرّ وحديد صيني، في بريق يخطف الأبصار، ليلعب بالعقول البائسة الساذجة، ومن ثم قد تجد بعضهم مفترشاً المساجد محلاً، والمشاهد المقدّسة مكاناً والأضرحة الشريفة موئلاً في كل من العراق وسوريا وإيران، فتجد الإفتاء بغير ما أنزل الله، وترى احتجان الأموال من طرقها غير المشروعة، وترى استلاب حقوق الفقراء والمحتاجين، وترى التنطّع في الكلام، والصلف في السلوك، والاختيال في الهيئة، وارتفاع الأصوات، وزعيق الجهلة، وأنت في حيرة من تسافل الأوضاع، وتدهور المقاييس.

وهناك صبيةٌ من صغار القوم ممن لا يعي مقدّمات العلوم، يتحرك تحرّك الكبار، ويتحدث بلغة الشيوخ، لم يتمتع بثقافة تؤهله، ولم يتزود بمعرفةٍ تُرشّحه، يفرض نفسه فرضاً في محافل العلم، ويبدأ الثرثرة، والناس بين مستغرب ومتعجّب، وساخط وناقم، وأهل الحل والعقد لا حول لهم ولا طول؛ أنّى بلغ الاسفاف هذا الحد اللامعقول؟ وهؤلاء الذين ينازعون الفضل ذويه، من ذوي السوابق الشريرة، وأصحاب التأريخ الوضيع، نصبوا أنفسهم شواخص مقصودة في غفلة من الزمن، وتأييد من السلطات، وهم يدّعون ما ليس لهم منزلة ومنصباً، ويحاولون تبوّأ المركز الأول دون أية دراية أو فضيلة أو ميزان، وإنما هو الاستخفاف بعقول الأمة، والامتهان لكيان الأئمة، وقد يحصل من الرعاع من يسألك عن مبلغ علمهم، ومدى إدراكهم، وصلاحية التصدي لقضايا الفكر والشرع، والجواب لا يحتاج إلى كثير من التأمل، فهم أمّيون بكل معنى الكلمة، ولكن السواد مع ذلك يضعهم في الموقع الكريم، وقد يدفعون لهم الحقوق الشرعية

يصرفونها في سخط الله وغضبه، وقد يبجّلون بعضهم تبجيل العلماء العاملين، وهذه هي الكارثة بعينها أن يختلط الحابل بالنابل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وهؤلاء الأيفاع المغرورون ممن شأنه التواجد في حلقات الدرس الأولية كالعربية والمنطق والبلاغة، يقفزون بلا عدّة كافية، إلى البحث الخارج، فلا يفهمون ما يقال، ولا يمتلكون أدنى مقوّمات الإفادة والوعي والإنصات، فهم يتصرّفون في غياب المسؤولية، ويتطلّبون المجد الزائف، وهم كالأنعام أو أضل سبيلاً. صحيح أن الدرس الحوزوي لا يخضع لمواصفات القبول في الجامعات أو الدراسات العليا، ولكنه التزام نفسي وعقلي وعُرفي يخضع للمعرفة التامة بالسطوح العالية، والمقدّمات الراسخة، ومن شأنهما الترشيح في ضوء الضوابط العلمية إلى درجة أعلى في الحضور التدريسي، أما الطفرات اللامشروعة فهي تزييف لواقع العلم، واعتداء على تراث أهل البيت عليهم السلام.

وهؤلاء الضائعون في متاهات اللجوء السياسي في أوربا والبلدان العربية، يتنطعون بمعرفتهم فيما يجري على الساحة، ويدّعون إدراك الأحداث الدولية، والخبرة بالسياسة الخارجية، والإلمام بأمراض المجتمع، والدراية بأزمات الشباب، ودعاوى فارغة كثيرة على هذا السياق.

ونحن لا نعارض من يدّعي المعرفة بالأزمات والحوادث وقضايا الساعة، فلكل تجربته الخاصة، وأولاعه المتعدّدة في فهم مفارقات الحياة، ولكن الذي نعارضه عند هؤلاء طيش الشباب والانفعال المنفلت، فهم يدّعون لأنفسهم كل هذا، ويدّعون أن المراجع العظام في غفلة من التفكير، ويغيب عنهم الكثير، ولا يعلمون من مشاكلهم شيئاً، ولا يفكّرون في إصلاح أوضاعهم، فهم يريدون من المرجع كلّ شيء، وهم لا يقدمون له أيّ شيء، وهم يريدون من المرجع أن يتفرّغ للشؤون السياسية تاركاً الواجب الأساسي

في حفظ حوزة الدين، ورعاية شؤون المسلمين؛ يريدون واجبات إضافية لا ينهض بها الكاهل المثقل بهموم الرسالة الغرّاء، ولا يسمحون لأنفسهم بممارسة واجباتهم الأخلاقية في التصّدي للإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا جبهتهم بأننا نعرف كل شيء عنكم، ولا تعرفون أي شيء عنّا، ثارت الثائرة، وفقدوا لسان الصواب.

هذه المفارقات التي تقدّم سردها والإشارة لها، هي بعض العقبات في طريق المرجعية، وهي كالأشواك التي تدمي من يمّسها، ولا يسلم منها من يلمسها.

وما تقدّم ذكره بعض نماذج الابتلاء الذي أخذ يزداد بعداً عن حضيرة الدين، وليس هو على سبيل الإحصاء والاستقصاء، ولك أن تستدّل بها ذكرناه على ما لم تذكره، وتضيف إليه ما هو مطروح بقارعة الطريق.

ولو أن الناس تركوا الأطماع، وانصاعوا لداعية الحق، وأنصتوا لنداء الضمير، وعاودوا نفوسهم في البحث عن الحقيقة، والالتجاء إلى ركن وثيق، لأضربوا صفحاً عن هذه المتاهات، ولنأوا جنباً عن الافتعال والتصّنع، ولرجعوا إلى الصراط المستقيم، يقوّم أودّهم، ويوجه ركبهم، ولعرفوا أن مسار المرجعية العليا إنما هو امتداد لمسيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأن الهدي هديهم، وأن المنهج منهجهم، وهل بعد الهدى إلا الضلال.

***

الفصل الخامس

اقتراحاتٌ على المرجعية

١. قضايا الإعلام:

أ- التصدي للإعلام المضادّ.

ب- الإعلام الإيجابي.

٢. هيأة الرقابة المالية.

٣. مؤسّسة النشر والطباعة والتوزيع.

قضايا الإعلام

كان الإعلام ولمّا يزل من الوسائل المشروعة التي تجسّد حقائق الأشياء، ولا نريد بذلك الإعلام السياسي الكاذب، وإنما نُريد الإعلام الشرعي الصادق، فالتنويه عن الأعمال، والإشادة بالمشاريع، والتصدي للإعلام المعاكس، وبيان التوجّه المرجعي، وإعطاء الصورة الرائعة للعمل الحوزوي، والتوجّه نحو الأفضل في التخطيط، والانفتاح على الجديد، كل أولئك مما يسوّغ للمرجعية الاهتمام بشؤون الإعلام، لا سّيما وأننا بين بعدين سلبي وإيجابي.

فالسلبي هو ما تنشره وسائل الإعلام نفسها من اتجاه آخر بدافع سياسي أو اجتماعي أو استعماري أو اقتصادي ضد الخط المرجعي معزّزاً بالافتراءات والمبالغات والدسّ الصريح، بغية تشويه الوجه الناصع، وترويج الادعاءات المضلّلة، لينشطر أتباع أهل البيت تجاه المرجعية بين مؤيّد ومفنّد، فيسود الهرج والمرج وتعمّ الفوضى دون دليل مرشد أو توجيه صحيح.

والبعد الإيجابي يتمثل بالوقوف عند صادق الأعمال، وواقع المنجزات، وبيان الحال، دون إضافة أو تزّيد أو مبالغة، وإنما هي الأرقام تتكلّم، والمشاريع تتحدّث، والحقيقة تفرض نفسها.

وفي هذا الضوء سوف أتحدَّث عن الجانبين:

الاول: التصدّي للإعلام المضاد

وهو مهمّة أساسية في مثل هذا الزمان الذي كثر فيه الانحراف، وتحفّز فيه الباطل، يثلب المنصب المرجعي، ويشكك الشّاب في السلوك القيادي الديني، ويعطي المبررات باقتراح الحلّ الخيالي، وهذا ما ينبغي التصدي له بكل قوّة وبمختلف الأساليب، والأمر ليس جديداً علينا، ففي روايات أهل البيت المزيد من الإشارة بل التصريح إلى معالم الانحراف المرتقب، وإلى الارتطام بالفتنة، وإلى التعرّض للابتلاء في الدين. ففي حديث المفضّل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أما والله ليغيبن إمامكم سنيناً من دهركم، ولتمحصنّ، حتى يقال مات! قتل! هلك! بأي واد سلك! ولتدمعن عليه عيون المؤمنين، ولتكفأن كما تُكفأ السفن في أمواج البحر، فلا ينجو إلاّ من أخذ الله ميثاقه، وكتب في قلبه الإيمان، وأيده بروح منه... قال: فبكيت، ثم قلتُ: فكيف نصنع؟

فنظر إلى الشمس داخلة في الصفة، فقال: يا أبا عبد الله ترى هذه الشمس؟ قلت: نعم، فقال: والله لأمرنا أبينُ من هذه الشَّمس[1].

وأمثال هذه الأخبار كثيرة، وإذا كان أمر أهل البيت أبين من الشمس، فتنكّبُ الجادّة إذن من الضلال والعناد، والالتجاء إلى الشبهات والتشكيك إنما هو من الانحراف المتعمّد الذي يسعى في ضوء حملاته المشبوهة إلى تشويه الواقع، وتضليل الشعوب، وهذا من المحن المشار إليها في أحاديث الأئمة أيضاً، فعن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام: (... يا بنيّ إنه لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة، حتى يرجع

(١) ظ: الكليني/ الكافي ١/ ٣٣٦.

عن هذا الأمر من كان يقول به، إنما هي محنة من الله عز وجلّ امتحن بها خلقه..) [1].

وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فما علينا إلا اليقظة والحذر، والعهدة إلى أهل الفن من المثقفين والواعين، أن ينبروا للتطويح بكل ما من شأنه القدح في المقام المرجعي، والانتقاص من الكيان الروحي. فلقد تسابقت إلينا في الغرب وفي بلاد العرب الدعوات الفجّة الظالمة التي لا تحسن إلا السباب والشتم بأئمة الدين، وأساطين العلم، في حملة منظمة مسعورة أُستأجر لها المؤلّفون الصغار، والصحفيون المشبوهون، والأقزام المتمردون، وأتباع كل ناعق، فقاموا مجتمعين ومتفرّقين بإطلاق التهم وإعلان المفتريات، وادّعاء التفريط بشأن الأمة، وعزلة المراجع عن شؤون الناس، وقسّموا المرجعية إلى ناطقة وإلى صامتة، والمراجع إلى قابع وإلى صادع، وأمثال هذا من الأباطيل التي لا تستند إلى دليل.

والعكس في كل ما قيل هو الصحيح، فالمرجع منفتح على طبقات الناس كافة، وهو في الواجهة الأمامية من مشكلاتها وأزماتها، وهو الحامل لأعبائها ومسؤولياتها، ولولا ذلك لعاش كبقية الناس في دعة وأمان واستقرار، ولولا التصدي لهذه الأمور لما كانت هذه الحملات. المرجع يقف درعاً حصيناً للناس، فهو الذي يراقب مسيرتهم الاقتصادية فينعشها، وهو الذي يفكُر في شؤونهم وشجونهم فيعالجها، وهو الذي ينظر في أمور دينهم فييسّرها، وهو الذي يقضي حياته بين هموم القلم والإصلاح والمطالبة بحقوق الناس، وهو المواسي لهم في الأفراح والأتراح، وهو المفزع في الملمّات، متى وجد المرجع للراحة سبيلاً؟ ومتى تهرَّب من مسؤوليته وواجباته الصحيحة؟ إنه الهذر الذي لا طائل معه، ولكن لا بد لهذا الإسفاف من التصدي والمواجهة، والوقوف بوجه هذا السيل الجارف من الدعايات بالتكذيب والردّ والتعقيب.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة.

إن الصحف العملية، والكتب الظالمة، والمؤلّفات الرخيصة، تتلاحق على الساحة، ولكن اللعبة لا تنطلي، والركب لا يتوقّف، والمرجعية لا تتلكأ.

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(١).

أن قيام لجنة عليا بإشراف الثقات تتصدّى لهذه الموجَات من النزع والزيف والزيغ، أمرٌ تحتمه الضرورة الشرعية بمثل هذه الأمور، لا سيما وأن الدعايات أخذت تتوالى هدامةً، والمؤلفات أخذت تتابع تضليلاً، والصحف ما زالت تنفث سمومها قاتمة. إننا نحاذر على الشباب ممن هو على فطرته وسلامته، ولا بد من إضاءة الأحداث بين يديه، ليكون على بصيرة من أمره، فالمادة الخام قابلة للتكيف والتقولب، والسيطرة خير من الانفلات، واليقظة خير من الغفلة.

إن التوكل على الله في مثل هذه الأحوال لا يكفي وحده بل يضاف إليه التشمير عن جد، والوقوف بحزم، والاعتداء بقوة.

وهذا ما أمرنا به الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

الثاني: الإعلام الإيجابي

الشباب المعاصر قد لم يسمع بالمشاريع الضخمة التي أقامتها المرجعية الدينية على امتداد عمرها الشريف، وقد يجد في نفسه حرجاً كبيراً جرّاء ضغط القوى المضادة فيتساءل: ماذا قدمت المرجعية في تأريخها الطويل؟

---

(١) الإسراء: ٨٤

(٢)آل عمران: ١٠٤

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من القول أن الإعلام الإيجابي ضرورة تقتضيها المصلحة الشرعية، وهذه الضرورة تدفع بالعسر والحرج عن النفوس السليمة التي لم تجد حلاً لمشكلتها الرئيسية نتيجة الضغوط المؤثرة، وإشاعة ما حققّته المرجعية من مكاسب على المستوى العملي والتي يجب أن تشق طريقها إلى التقنية الحديثة لتعميمها على العالم أجمع، لقد ذهب الدور الذي تتعامل به المرجعية مع الظروف الموضوعية فتقيم أعمالها دون ضجيج أو ضوضاء، فقد اخترقت المؤسسة العامرة بالعناصر المعادية التي تستهدف هذا الكيان، ولا يسعدها الدور الرئيسي لها في قيادة الأمة، فبدأت تكذب وتجرح وتفتري، وقد لا يجدي الردّ والنقاش لما تقدم ذكره، ولكن الأعمال الناطقة، والخدمات الشاخصة هي الردّ المنطقي على كل التقولات والأطاريح الظالمة، وهي السبيل الوحيد لسد الفجوات والثغرات نتيجة عدم الإصحار بها، مما جعل الباب مفتوحاً أمام التحوير والتزوير والتجديف العائم فاستبدلت المفاهيم القائمة بالفعل بمحاولات الإنكار الباهت، وشعارات الإصلاح الكاذب، وكان حصيلة هذا التكتيك والتفكيك انطماس معالم المثل العليا، والتغطية المبرمجة على إنجازات المرجعية.

وأمامنا التأريخ المعاصر لمآثر المرجعية وجهودها الجبّارة وهي تُساير العصر، وتحتضن الجيل، وتعمل قدر المستطاع ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

١. قليلٌ من الجيل المعاصر من يعرف أن بطل العلم المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي(١٣٣٣هـ) له اليد الطولى في تأسيس المدارس الجعفرية في العراق.

٢. وقليل من يعرف أن الإمام الشيخ محمد رضا آل ياسين كان من المشجّعين والمؤيدين لتأسيس جمعية منتدى النشر في النجف الأشرف، بل هو على رأس الهيئة المشرفة الأولى على مشاريعها المتعدّدة في العراق، الكلية، المجمع الثقافي، المدارس الثانوية، المدارس الابتدائية، المجلات العلمية، المهرجانات الموسمية حركة النشر والتجديد.

٣. وقليل من لا يعرف أن الآية الكبرى السيد محسن الأمين الحسيني العاملي الشقرائي، قد أسّس المدارس الأهلية المعترف بها في دمشق الشام، وكان يدرس فيها على شيبته وعلو مقامه، وكان معنياً بالعنصر النسوي فأشرف بنفسه على تربيته والاهتمام به.

٤. وقليل من يعرف أن الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين قد قام بتأسيس الكلية الجعفرية في لبنان، وعمد إلى إنشاء معاهد للبنات وفق منهج مقرر، يأخذ بلباب العلم، ويطرح قشور الانحراف الأوروبي. ومدينة (صور) بما تضمّ في رحابها شاهدة على ذلك.

٥. وثمة حقيقة معروفة عند القلّة، وهي أن أكثر من مائة وخمسين مدرسة دينية، ومؤسسة اجتماعية، قام مراجعنا بتشديدها في كل من النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء ودمشق وبيروت وقم ومشهد ولندن ومدن أخرى.

٦. وأن سبعمائة مؤسسة علمية أو تبليغية أو مكتبة للرواد، في العالم، قد أسّسها المغفور له السيد محمد الشيرازي، وهي لا تحمل سمه. وأن الملايين تُصرف لإنعاش الفقراء، وإغاثة الملهوفين، وإعانة المرضى، على أن القدرات محدودة، والإمكانات على قدر، وما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه.

٧. هل احيطت علماً بأن مرجعية السيد السيستاني تبذل مئات الملايين في سبيل الأغراض المتقدّمة دون الإعلان عنها، هناك مشاريع عظمى حبذا لو عُرّف بها، وصدرت كراسات بأنشطتها، وعُمّمت نشرات بإنجازاتها، والعصر عصر الكومبيوتر والانترنت، ولا صعوبة في أي عرض، ولا معوّقات عن أي إعلام. لقد أحسن صنعاً سماحة الأخ العلامة السيد جواد الشهرستاني حينما أصدر كراساً أنيقاً بنشاطات مكتب سماحة السيد السيستاني دام ظله، فقد عرفنا الكثير مما كنا نجهله

عرفنا الكثير مما كنا نجهله أو نجهل قسماً كبيراً منه، فأعاد نبض الحياة في النفوس المتعطّشة الى استقراء الحقائق واستكناه المجهول، فكان عملاً مشرّفاً له مؤشراته البيانية في تصاعد المدّ المرجعي في شتّى المستويات.

ومشروع بناء المدرسة العلوية في كل عوالمها المتحظرة التي مهد السيد السيستاني بأنشائها في النجف الاشرف ستكون حديث الشارد والوارد بما تضّم من احياء سكنية، وحياة جديدة في مستوى المشاريع العلمية الكبرى تخطيطاً وهندسة ومرافق متعددة سيعرفها الناس عند إكمالها.

٨. وما نهدت به مرجعية السيد محمد سعيد الحكيم من إقامة المؤسسات والمشاريع الضخمة، والعلاقات الخارجية في الدول والاقاليم، وسوى ذلك، مما يعتبر صفحة مشرفة في جبين الدهر، وهكذا تلوح مصداقية القول: إن التحرك في هذا المجال يضفي أشعة كاشفة يتبصّر بها المسترشد طريقه، وترتقي بها الأعمال الجبارة إلى ذروة الاستشراف العالمي، وهي نوع من الدعوة الى سبيل الله سبحانه وتعالى، ونموذج من الإبرام لإحصاء النشاط المرجعي في خدماته الإنسانية؛ وليس القصد منه الدعاية لشخص أو ذات أو مرجع معين، فالفكر الإمامي أسمى من هذا التقوقع جانباً وأعلى مقاماً، وأنصع اتجاهاً، وإنما هو اهتمام بما تقدمه القوى العاملة والحوزوية تقرباً إلى الله تعالى، وقياماً بالواجب المقدس للمنصب والمقام الذي يمثل أهل البيت عليهم السلام، وفي ذلك ما يظهر الطاقات ويكثّف العمل في تبليغ حقيقي يصل إلى كل أحد.

يضاف إلى هذا كله أنه يشفي صدور قوم مؤمنين، ويسدّ الطريق على المنتقدين والبطّالين، وذوي العاهات المتجذرة.

هيئة الرقابة المالية

يقول سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام في أحرج لحظات حياته: الناس عبيد الدنيا والدين لعقٌ على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحُصّوا بالبلاءِ قلّ الدّيانون)، وهذا هو عين الواقع المرير.

القضية المالية إحدى ابتلاءات المرجعية التي لا مناص منها، تصل للمرجع الحقوق والهبات والصلات وردّ المظالم، وأجور الصلاة عن الأموات والصيام كذلك، وتتوافر لديه الزكوات والصدقات والمبرّات الأخرى، ودفع هذه الأموال لا يتم للمراجع مباشرة في أجزائه الكبيرة، وإنما يتم عن طريق وكلائه الأمناء في العالم، والناس لا تمسك ألسنتها، والقوى المشبوهة تستغل كل شاردة وواردة، والسّواد أتباع كلّ ناعق، والحملات المسعورة - اليوم - قائمة على قدم وساق، وبغية قطع دابر التقوّلات والاتهامات ينبغي تشكيل هيئة عليا للرقابة المالية، تقوم بكشف الحسابات وتدقيق الواردات، وملاحظة جهات الصرف، ويتصدى الوكلاء الى تقديم قوائم حساباتهم في الوارد والصادر، ويرفع في كل ذلك تقرير للمرجع يطّلع عليه بنفسه أو من يخولّه، فينظر الفقرات جزئية جزئية، ويلاحظ الواردات جهةً جهةً، ويشرف على المصروفات مشروعاً مشروعاً.

إن هذا التوجه يُريح المرجع نفسياً، ويجب علينا جميعا تهيئة الظروف النفسية المثلى للمرجع، لأن هذا مما يُضاعف نشاطه، ويطمئن به على مسيرته؛ هذا أولاً.

وثانياً، يكمن في مثل هذا العمل ضبط النشاط ودقة العمل، فتخضع كل المشاريع بمختلف الأصعدة لرقابة تشرف على استيعابها وإكمالها واستمراريتها في جهد منظّم

وإمكانية عالية، مع ملاحظة الزمان والمكان في صلاحية الأنشطة وأهميتها علمياً أو ثقافياً أو أنسانياً أو روحياً.

وثالثاً: تنزيه الوكلاء عن الطعون الرخيصة، بحيث يكون كلٌّ في موقعه من المسؤولية، فيتلقّى ذلك بصدر رحيب وأفق واسع، فليس في هذا إتّهام له، بل توثيق لتصرّفاته وإقرار لمشاريعه، واحتواء لكل الأحاديث، وغلق باب الثرثرة من جهة، وباب الاستغلال لمشاعر البسطاء من جهة أخرى، وفي هذا التوجّه توحيد للكلمة، وإشاعة لمفاهيم العدل المجهولة لدى الكثيرين، وهو الحق و(ليس في الحق مغضبة).

إن أدنى مشروع مهما كان تشرف عليه لجنة من اللجان، فالحري بهذا المشروع المالي الضخم أن يكون عليه الإشراف متصلاً بالمرجع، ليعذر أمام الله والضمير والناس.

ولا يأبين أحدٌ عن تنفيذ هذا الاقتراح، ففيه خير كثير، ونفع عميم، ودفع للشبهاتِ، وتثبيت للذين آمنوا.

وبطبيعة الحال، فالوكلاء عادة من الأكفاء الأمناء، وقد يكون فيهم الشاذ ممن غيّر وبدّل، فالأمين يثبت في موقعه، ويُشكر على صنيعه، وهو يرحب بالدقّة وبها يبعث الاطمئنان ويزيد الوثوق، والخائن إنما يخون نفسه، ويخادع ربّه، فليس له إلاّ العزل والإقصاء، وهذا حق يمارسه المرجع عند الضرورة، وفي حالة الإخفاق الوكلائي في أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، وليس في ذلك كبير بأس، بل فيه تسجيل الموقف الصادق بين يدي الله سبحانه وتعالى.

وطالما عزل المراجع قسماً من وكلائهم بحسب ما تقتضيه الوظيفة الشرعية، بعيداً عن الهوى ونزوات النفس، ولا أريد ضرب الأمثلة، فقد شاهدت ذلك في المرجعيات التي عاصرتها، وإن كان النموذج نزراً قليلاً، ولكنه الإجراء الصارم، وآخر الدواء الكيُّ.

مؤسّسة النشر والطباعة والتوزيع

الطبقة الرسالية الواعية، لها ثقافتها الموسوعية، ولديها الفكر النيّر والقلم المرهَف النزيه، وهي قديرة على الموضوعية في البحث، والسيطرة على شؤون التأليف.

إلاّ أن عقبة النشر تقف حائلاً دون إنجاز كثير من المهمّات العلمية، فليس كلُّ ذوي الأقلام الرائدة أصحاب أموال يستطيعون من خلالها طبع مؤلّفاتهم، وإنما العادة الاتفاق مع دور النشر والمؤسسات المكتبية للنشر والتوزيع، ويتوقّف تنفيذ ذلك على مدى صدق الدار ومصداقيتها، فهم ليسوا سواء، منهم وهو النزر النادر من يكون عند قوله والتزامه، والأعمّ الأغلب لا يفون بما يعدون، ولا يحققّون ما يقولون، وهنا تبدأ المشكلات بين المؤلف والمؤسسة الملتزمة للطبع، وما أكثر ذلك وما أوسعها، حتى ليجزع أغلب المؤلفين من هذه المعاناة والمقاساة.

المفروض أن لا يفكر المؤلف بعد إكمال كتابه تأليفاً بأية تفصيلات ومعضلات من ناحية الطبع، فالمؤلّف الناجح ينبغي أن تكون مهمته إنجاز ما يكتب، لا التفكير في الشؤون الأخرى التي تصدّ من طموحه، وتعرقل من مسيرته؛ وما أكثرها في هذا الملحظ.

إن المسؤولية الرسالية يقتضي أن تقتسم في فرائضها بين المؤلف ومؤسسات النشر، إلاّ أن العبء الأكبر يقع على كاهل المؤلّف دون أية مساعدة تُذكر، وكأنه وحده المسؤول عن أداء الواجب واعتماد الأصلح.

ولا أطيل عليك الحديث في هذا المجال، وأختصر لك الطريق في ذلك على شكل نقاط:

١. إن دور النشر ومؤسسات الطبع والتوزيع هدفها المعلن هدف تجاري، فهي إنما تحاول تنفيذ مصالحها وإنجاح مشاريعها، وقد يتحقّق ذلك لها بكتب الجنس والأحلام والطهي وما شابه ذلك.

٢. إن الكتب العلمية والعقائدية قد تفرض نفسها فرضاً، ولكن التوجّه العام قد لا يساعد على انتشارها بالشكل المطلوب.

٣. إن قسماً كبيراً من دور النشر لا تتعامل مع المكتبات لأنها لا تضمن عائديتها المالية، فبعضهم مماطل، وآخر متهاون، وغيره لا يسددْ الحساب، وفي هذا الضوء يكون التعامل مع المعارض الدولية لأن تسديد الحسابات أضمن، وينظر المؤلّف ولا يرى كتابه معروضاً في المكتبات، ولا متداولاً بين الأيدي، فيصاب بالإحباط وخيبة الأمل، وتلاشي الاحلام في الانجاز ومسيرة التأليف.

٤. بعض دور النشر قد تتفق مع المؤلف على الطبعة الأولى، وتسدد له حقوق التأليف بنسبة ١٠٪ أو ١٢٪ أو بشكل مقطوع، ولكن الدار لا تكون عند التزامها، فتكرّر طبع الكتاب، فيكون الربح لها، ويقف المؤلف صفر الكفّين من ثمار جهوده وأتعابه:

ولا أريد أن أتحدّث عن المعاناة الشخصية التي تعرَّضت لها خلال طبع كتبي، وهي كتب تخدم المنهج العام للقرآن العظيم وأهل البيت عليهم السلام والمرجعية الدينية الموّقرة، ويكفي أن قضيت للآن من هذا العام ستة شهور خارج العراق لمتابعة طبع مؤلّفاتي وتصحيحها وتسويقها، وليس هذا من شأني ولا من ممارساتي، فإنه يصطدم بصميم العمل العلمي، وفيه تبذير للوقت وهدر للجهود بلا طائل ولا نائل، حتى صممت أن لا أطبع كتاباً إلاّ على نفقتي الخاصة ولو أدّى ذلك إلى بيع داري وهو كلّ ما أملك في هذه الحياة الفانية.

لقد أسمنت دور النشر وبشمت على حساب المؤلفين، والمؤلف بين همّ دائم، وفكر موزّع، وألم نفسي، وجهد ليس من تخصّصه في سبيل إنجاز مهمته، فالوزر على ظهره، والمهنأ لغيره، وهكذا.. وكل عامٍ وأنتم بخير.

إن المهمة العلمية الهادفة مهمة صعبة لا يتوافر عليها إلا القّلة من ذوي الخبرة والثقافة الموسوعية، والعطاء الفكري المتميز.

وإذا سلّمنا بهذه المقدّمة، فعلينا أن نهيّئ المناخ المناسب لذلك، ونقدم التسهيلات المشّجعة لإنجاح المشاريع العلمية الأصلية، والعالم يرحب بكل ما هو أصيل ومبتكر، فلنضع مشاعرنا مرهفة في هذا الاتجاه، ولنحتضن الفكر المبدع، ونستقبل القلم المرهف، ونستلهم الكلمة المعبّرة.

إن الفكر لا يقابل إلاّ بالفكر، والفلسفة لا تردّ إلا بفلسفة مثلها، والإيغال بعداء الفكر الديني لا يقابل بالتهريج والإسفاف، بل بالردّ الموضوعي والاصطفاف العقائدي، والزمن زمن محنة وفتنة وإبتلاء، ولا بد للأقلام النزيهة من التصدّي والوقوف بوجه الحملات المشبوهة ضد الوعي الديني والتوجه الشرعي والمدّ المرجعي.

وما على المرجعية العليا إلا أن تنظر إلى الأخطار الفكرية نظرة دقيقة جادّة، وأن تترصّد المبادئ الوافدة والمستوردة بمنظار المجابهة عسى أن تُخفّف من غلوائها، وأن تلاحظ عن كثب البعد الثقافي والمعرفي الذي يقيّم أود هذه الأمة، ويصقل المواهب والمشاعر، فتدعم تطلعاته، وتؤيد توجهاته، وليس هذا بعزيز عليها، ولا غريب عن مبادئها.

إنني أرى - من خلال فهمي لهذه المضاعفات - أن إنشاء مؤسسة للطبع والنشر والترجمة والتوزيع ضرورة شرعية تمليها الظروف الحالكة التي يعيشها الإنسان المسلم، وإن تأسيس مثل هذه الديار لا يحتاج إلى كبير تفكّر أو كثير عناء، فإن المؤسسات هذه

تموّل نفسها ذاتياً، وتحقق أهدافها فورياً، وتبدو صفحاتها وجهاً لوجه مع المسؤولية التأريخية فتزيدها إشراقاً ونصاعة.

إن مؤسسة مثل هذه تدعم الفكر الإنساني والتوجه المرجعي في نشر ما هو إبداعي ومشروع، وبذلك نريح ونستريح.

لو قُدّر لنا تنفيذ هذا العرض، لكانت الأيدي الأمينة على إنجاحه متواجدة، والمناخ المناسب متوافراً، والعمل الصادق ناجحاً.

إن لجنة عليا من المثقّفين البارزين تشرف على انتقاء الكتاب الأصيل، فتقرّر من خلال خبرتها ومعرفتها طبعه ونشره وتوزيعه، وتعطي المؤلف حقوق جهود التأليف لتقويم أودّه، وتشجيع عمله، فيجد نفسه ملتزماً، ويكون ذهنه مهيّأ للإنجاز والإبداع والمتابعة.

قد يُقال بأن الأهواء والآراء الشخصية قد تتدخل فتقرّ طبع ما لا يناسب هذا الاهتمام الخالص، فنقول قد يحصل هذا، وقد يتفق أن يصدر كتاب ليس في المستوى الى جانب كتب كثيرة هي في المستوى الرفيع، وهنا ينتصر الأهم على المهم، ويتحتم بقاء الأصلح.

إن نشر الكتاب الموضوعي يُحقّق الهدف الموضوعي فتتجلّى ثقافة الأفكار الناهضة فتُسيطر على الموقف المعرفي، ويحلّ النتاج المتكامل مكان النتاج الهزيل الذي يغزو الأسواق ويشيع في المكتبات.

ومن جهة أخرى صريحة، وقد تكون بديهية، أن الكيان المرجعي إنما توّطد وترسّخ واستقام بالإفاضات العلمية المتخصّصة، يُضاف إليها العلوم التكميلية المساعدة، وإذا كان الأمر هكذا؛ فمن الضرورة إشاعة العلم النافع بين الطبقات، وتهيئة المناخ الأكاديمي الصالح للشباب، وملء الفراغ الفكري والعقائدي بأفكار ناضجة متطوّرة تصبّ في

رافد أهل البيت عليهم السلام، وتستقي من مصادرهم ومواردهم ما فيه شفاء للصدور، وإحياء للتراث.

﴿وَقُلِ أعمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالمُؤمِنُونَ﴾[1].

صدق الله العلي العظيم

* * *

(١) التوبة: ١٠٥

الباب الثاني

عصور المرجعية العليا في النجف الأشرف

١. الفصل الأول: إستمرارية مدرسة النجف في العطاء حتى نهاية القرن العاشر الهجري.

٢. الفصل الثاني: تصاعد الأمداد المرجعي في النجف الأشرف في القرن الحادي عشر الهجري.

٣. الفصل الثالث: مرجعية النجف الأشرف / بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري.

٤. الفصل الرابع: عمالقة المرجعية العليا في النجف الأشرف في القرن الرابع عشر الهجري.

٥. الفصل الخامس: صدى المرجعية العليا في قصائد مختارة للمؤلف.

الفصل الأول

إستمرارية مدرسة النجف الأشرف في العطاء حتى نهاية القرن العاشر الهجري

١. علماء القرن السابع الهجري.
٢. الأسر العلمية النجفية في القرن الثامن.
٣. مدرسة النجف العلمية في القرن التاسع.
٤. إزدهار القرن العاشر في الأعلام الثلاثة:

- المحقق الكركي.
- إبراهيم القطيفي.
- المقدسّ الأردبيلي.

علماء القرن السابع الهجري

ليس بالإمكان الحكم بأن مدرسة النجف الأشرف العلمية قد ضعف مركزها، أو وهن عزمها، أو إنفرط سلكها في حلول القرن السابع الهجري وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، فتلك مقولة قد تبتعد عن الدقة والتأني في معطيات القرار لها أو عليها.

لا شكّ أن الحلة الفيحاء قد إستقطبت كوكبة من الفقهاء بعد وفاة حفيد الشيخ الطوسي الشيخ أبي نصر محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن الطوسي، إذ بزغ نجم ثلاثة من الأعلام الفحول في الحلة، وهم على التوالي:

١. الشيخ محمد بن أدريس الحلي (صاحب السرائر) (ت ٥٩٨هـ).

٢. المحقق الحلي، أبو القاسم، جعفر بن الحسن (ت ٦٧٦هـ).

٣. العلامة الحلي جمال الدين، الحسن بن يوسف (ت ٧٢٦هـ).

لقد أثرى هؤلاء الأعلام العظام الحياة العلمية فقهاً وأصولاً في الحلة، وتسّنموا سدة المرجعية العليا؛ لا شكّ في ذلك.

ولكن النجف الأشرف في هذه الفترة الزمنية لم تفقد أصالتها ولا دبّ إليها الانهيار والضياع، ولم تتلفّع أبراد الخيبة والخمول، إذ بقيت منابعها العلمية والفكرية والتراثية تصبّ في روافد الحوزة المباركة للإمامية ولغير الإمامية حتى ذهب إبن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) أن الشيخ إبراهيم بن محمد المؤيد بن حمويه الجويني الشافعي الصوفي (ت ٦٢٢هـ) قد توّجه الى النجف لغرض الدراسة على يد أعلامها[1].

(١) ظ: إبن حجر / الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة / ١/ ٦٩ / مطبعة المدني / القاهرة / ١٣٢٥هـ.

ولا شكّ أن السيد رضي الدين علي بن طاووس (ت ٦٦٤هـ) والسيد محمد بن محمد القاضي الآوي قد أستقر مسكناً ومواطنة في النجف الأشرف لغرض الدرس والتدريس ومتابعة شؤون الحوزة العلمية وتنمية حركتها[1].

لا نغالي بالقول: إن طائفة من العلماء الأعلام قد نبغت في النجف الأشرف.. وقد مسكت بزمام المبادرة لأستمرارية مرجعية النجف الأشرف وإستقلاليتها بالمنهج العلمي الرتيب في ضوء ما أسسّه الشيخ الطوسي، وفي طليعة هؤلاء في القرن السابع على سبيل النموذج لا الإحصاء:

١. الحسين بن عبد الكريم الغروي (ت ٦٧٧هـ).
٢. الحسين بن قطب الدين الأسترابادي كان حياً عام (٦٨٠هـ).
٣. الشيخ زين الدين المازندراني / كان حياً عام (٦٩٩هـ).
٤. السيد عبد الحميد بن السيد محمد الحسيني (ت ٦٦٦هـ).
٥. الشيخ خضر بن محمد الجابري / كان حياً عام (٧٠٠هـ).
٦. السيد إبن طاووس / صاحب كتاب (زوائد الفوائد).
٧. كوكبة أخرى من آل عبد الحميد وآل المختار.
٨. الشيخ علي الغطاوي / من أعلام القرن الثامن الهجري.
٩. المؤرّخ الشهير النسابة إبن الطقطقى.
١٠. الشيخ نجم الأئمة / محمد الرضي بن الحسن الغروي الأسترابادي (٦٨٦هـ) صاحب الشرح الكبير على كافية إبن الحاجب، وقد ألفه في النجف الأشرف إجماعاً وفي الروضة الحيدرية، وقد أثنى عليه المحقق الشيخ عباس القمي ووصفه بأنه:

---

(١) ظ: محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٧/ ٢١١/ مطبعة الأنصاف / بيروت.

عالم، محقّق، مدقّق، سعيد [1].

ووفاءً لشخصيته، وإعداداً بعمله فقد أمر سماحة الآية الكبرى السيد علي الحسيني السيستاني بتشييد مدرسة علمية كبرى للحوزة العلمية في النجف سنة ١٤٣٤هـ وأسماها: (مدرسة نجم الأئمة).

وقد بحث هذا الموضوع جملةً وتفصيلا في مجلدات ضخمة من (المفصل في تأريخ النجف الأشرف الدكتور حسن عيسى الحكيم رئيس جامعة الكوفة السابق)، وقال عن هذه الحقبة:

(أخذت النجف تُحافظ على وجود المدرسة بأعلام فقهاء، وأدباء ونّسابة.. وقد شدت الرحال الى النجف الأشرف في هذه الفترة على الرغم من تفوّق مدرسة الحلة فقيهاً وأصولياً)[2]، وقد لا نوافقه جزئياً، فالمدرستان: فرسا رهان.

وقد أخذت مدرسة النجف الأشرف بالتوسّع والأزدهار في القرن الثامن على أيدي علماء الأمة من الأسر النجفية العريقة، ذات الأثر العلمي والأجتماعي والرئاسي، وفي طليعتهم: آل الآوي، وآل طباطبا، وآل الخرسان، وآل العتائقي، وآل الأعرجي، وآل الأفطس، وآل الحسيني، وآل المشهدي، وجمهرة من الحليّين وسواهم من الركب العلمي والمعرفي الأصيل.

يُضاف الى هذا تلك الجمهرة الصالحة التي قصدت النجف للدراسة العلمية من المذاهب غير الإمامية لا سيما علماء الشافعية.

---

(١) القمي الفوائد الرضوية / ٤٦٣/ طبع إيران/ ١٣٢٧هـ.

(٢) ظ: موسوعة العتبات المقدمة / قسم النجف الأشرف / ٢/ ٥٤ إصدار الأستاذ الكبير جعفر الخليلي صاحب الهاتف.

وربما لقيت مدينة النجف في هذا القرن عناية خاصة من السلطان المغولي محمد خدابنده، وولده السلطان أبي سعيد، وفي عهدهما بُنيت مدرسة للعلوم الدينية في النجف الأشرف كما ذكر ذلك فخامة الدكتور السيد محمد بحر العلوم في بحثه القيّم (الدراسة وتأريخها في النجف الأشرف)[١].

ويبدو للبحث أن حكومة السلاطين الجلائريين قد إقتفت آثار خدابنده وولده فيما يخصّ الخدمات العلمية وبناية العمارات والمؤسسات في النجف الأشرف، وذلك مما يُشّجع تنامي الحركة العلمية والفقهية، وإستمرارية العطاء الفكري في حاضرة النجف الأشرف.

وقد أعدّ الأستاذ حسن الحكيم مسرداً تأريخياً دقيقاً لجمهرة علماء النجف في هذا القرن بالذات بدءاً بالشيخ جمال الدين أحمد بن محمد بن الحداد الحلي، وإنتهاءً بالسيد يوسف السيد ناصر الحسيني الغروي (ت ٧٢٧هـ).

مع تراجم مختصرة مفيدة لكل منهم، وكان عددهم خمسة وعشرين عالماً[٢].

ويبدو لي أن هذا العدد يمثّل أساتيذ الحوزة العلمية.

وكان القرن التاسع الهجري حافلاً بمآثر وآثار شيخ فقهاء عصره: المقداد بن عبد الله السيوري الأسدي (ت ٨٢٦هـ) فقد أسّس مدرسة علمية في الصحن الحيدري الشريف الى جنب المكتبة الغروية للمشهد العلوي، وإنتسب إليها وعاش فيها جمهور من الحوزة العلمية سكناً ودراسة بما هو متعارف عليه في مدارس النجف الحوزوية.

يقول الأستاذ الشيخ علي الشرقي: (وفي غضون القرن التاسع والعاشر للهجرة

---

(١) ظ: المفصل في تأريخ النجف الأشرف ٤/ ١٠٨-١٣٣.

(٢) ظ: المفصل في تأريخ النجف الأشرف ٤/ ١٠٨-١٣٣.

كانت في النجف طائفة كبيرة تنتسب الى الرماحية، وهي مدينة دارسة من مدن خزاعة في الفرات الأوسط تقع بين النجف والسماوة.. وإستقرت المركزية العلمية لها في النجف، وأصبحت هذه المدينة (النجف) جامعة علمية ضمنها كليات عديدة، ولكن بصورة غير منتظمة.. منها كلية للآداب، وكلية للغة، وكلية للرياضيات، وكلية للفلسفة، وكلية لعلم الجدل الذي يسمونه اليوم علم الكلام، وكلية لعلم الأخلاق، وعلم الفقه، وعلم (الأصول): أصول الفقه، وعلم الفلك، وعلم المنطق.. وكل الدراسات في هذه الكليات تنصب في الوجهة الدينية [1].

والحق أن ما أشار إليه الأستاذ الشرقي رحمه الله تعالى دقيق في حدود، ومناقش في حدود أخرى، إذ كانت الدراسة العلمية في النجف منتظمة وليست مبعثرة، فلكل من طلّاب الحوزة العلمية المباركة لهم مرحلتهم الدراسية والمدة الزمنية، والأساتيذ المتخصّصون، نعم إذا أراد بقوله أنها غير منتظمة كالجامعات الرسمية فالأمر كذلك، إذ برامج الجامعات الحديثة ومناهجها مفروضة فرضاً رسمياً لا اختيار فيها للطالب، ومدار النجاح بها ما تقرره درجات الامتحانات الفصلية والسنوية، أما كليات النجف الحوزوية فلطلابها حق اختيار الأستاذ، ونجاحهم مقرون بما يستوعبونه من العلم، وما يقدمونه من إنجاز، فلا يعطي تلك الشهادات في ضوء العرف الجامعي، بل هو الذي يعرف نفسه في الانتقال من مادة الى أخرى، ومن مقرّر دراسي الى سواه، فلا رقيب عليه إلّا نفسه، ولا دخل لتلك المميزات في الشهادة الورقية التي تصّح حيناً، ولا تصح حيناً آخر في ضوء النزعات الإنسانية وأهواء الأساتيذ، أماّ الحوزة فلا تخضع لهذه المقاييس، وعلى المتفوق في علومها أن يثبت ذلك بنفسه، والدليل عليه أن هذه الحوزة طيلة عشرة قرون أو تزيد قد تخرّج فيها آلاف المجتهدين ممن لم يتطلبوا شهادة الاجتهاد، فسيدنا الأستاذ الإمام أبو القاسم الموسوي الخوئي تخرج في مدرسته مئات المجتهدين طيلة

---

(١) علي الشرقي / الأحلام / ٤٤ الطبعة الأولى.

تدريسه في البحث الخارج العالي لمدة ستين عاماً، أجاز بالاجتهاد علمين من طلابه وهما:

١. المرجع الديني الأعلى السيد السيستاني دام ظله.

٢. العالم الرباني الشيخ علي الفلسفي رحمه الله في خراسان.

ثم قرر عدم إعطاء إجازة الاجتهاد إذ المجتهد يثبت اجتهاده بنفسه من خلال أطاريحه ومناقشاته وتقريرات بحوث المراجع العظام، وإبتكارته في مجال تخصّصه الفقهي والأصولي في ضوء الكتاب والسنة والأجماع والعقل.

نعم هنالك الإجازة بالرواية، فقد يُجيز من له إضطلاع في علمي الدراية والرواية والرجال والأسانيد أن يروي عنه بروايته عن شيوخه وأساتيذه حتى تتصل بالمعصوم عليه السلام، لهذا كثرت الإجازة بالرواية للآلاف من أهلها، وأما دقة ما ذكره الأستاذ الشرقي فيتمثل بمجموعة التخصصات في كليات الحوزة العلمية، وإفادته بتنوعها فيما يخص خدمة القرآن العظيم ودين الإسلام القويم، مضافاً الى تنبيهه السليم كمركز (الرماحية) في تصدير رجاله الى الحوزة في النجف بغية الدراسة، وقد أستدل بما ذكر عما لم يذكر، فكل مدن العراق تبعث بأبنائها الى النجف الأشرف بغية التحصيل العلمي، وحتى اليوم فكل رجال الدين العراقيين من أصول عشائرية وقبائل عربية عدا المهاجرين من بلاد الإسلام العرب وغير العرب، على أن التدريس في الحوزة يشترط اللغة العربية إلا نادراً.

وعوداً على بدء فأن المقداد السيوري (ت ٨٢٦هـ) كان في طليعة العلماء المجدّدين في القرن التاسع الذي أطل على القرن العاشر بكوكبة رجاله، وقد وصف الخوانساري المقداد السيوري: (بالإمام العلامة الأعظم)[١].

(١) الخوانساري / روضات الجنات ٧/ ١٧٥.

وقال عنه الحر العاملي أنه (كان عالماً، فاضلاً، متكلّماً، محققاً مدققاً)[1]. وقد بنى مدرسته الشهيرة بأسمه كما أسلفنا، ويقول عنها الشيخ جعفر آل محبوبة، وقد أدركته رحمه الله، وجلست أليه، وأستمع الى نماذج من قصائدي المبكرة بين عامي ١٩٥٦و١٩٥٧م في أيوان السيد الحبوبي في النجف عند مرقده في الصحن الحيدري الشريف، أو في بيته في محلة الحويش بجلسته الأسبوعية، يقول:

(وما زالت هذه المدرسة ماثلة الى اليوم، ولكن تغيّر إسمها الى (المدرسة السليمية) نسبة الى مجددها سليم خان)[2].

وقد نهض بعبء المرجعية إذ تخرّج في مدرسته طائفة كبيرة من أجلّة العلماء والمجتهدين، وقد تفرّغوا للنهوض بالحوزة الى الذروة في عصري الظلام والجمود.

وكان للمؤلفات القيمة التي تركها السيوري في موضوعاتها المتعددة، وتخصصاتها المتداولة بين أهل العلم الشرعي الأثر المهم في سريان شعلة الإصلاح والنهوض الفكري.

فقد ألف في التفسير، وعلوم القرآن، وآيات الأحكام، والفقه وأصول الفقه، والقواعد الفقهية، والحديث الشريف، والفلسفة، وأصول الدين، وعلم الكلام، وعلم الهيأة والفلك، والأدب وعلم البيان، وأدب الدعاء، وقد استقريت المصادر والمراجع التي ذكرت كتبه، فكانت حوالي ثلاثين كتاباً موسوعياً، ووسطاً، ومختصراً ومفصلاً.

يقول الدكتور حسن الحكيم: (وإذا كانت مدرسة النجف الأشرف قد بلغت في القرن التاسع الهجري دور الإزدهار فإن القرن العاشر الهجري قد شهد إزدهاراً أكبر على يد ثلاثة أعلام كبار وهم:

---

(١) الحر العاملي / أمل الآمل ٢/ ٣٢٥.

(٢) جعفر آل محبوبة / ماضي النجف وحاضرها ٣/ ٣٧٨.

١. الشيخ علي الكركي العاملي (ت ٩٤٠هـ).

٢. الشيخ إبراهيم بن سليمان القطيفي الغروي كان حياً (٩٤٤هـ).

٣. الشيخ أحمد بن محمد الأردبيلي النجفي (ت ٩٩٣هـ)[١].

ونقف عند هؤلاء الثلاثة وقفه متأمّل على نحو الإيجاز:

الأول: الشيخ علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي، وكان يعدّ مجدد القرن العاشر الهجري حتى عبّر عنه الشهيد الثاني بأنه: (الإمام المحقق، نادرة الزمان، وتتمة الأوان)[٢].

وأعتبر أيضاً شيخ الطائفة في زمانه، وعلامة عصره وأوانه، ولقب بالمحقق الثاني، وبالشيخ الأعلائي، وبالمولى المروجّ[٣].

وقد قاربت مؤلفاته المائة مجلد أو تجاوزت هذا الرقم، وهو من القائلين بولاية الفقيه العامة، وعلى صلة عظمى بالشاه عباس الصفوي، وكان يبعث إليه وهو في النجف الأشرف سبعين ألف دينار ذهبي، لينفقها في تحصيل العلم، ويفرقها في جماعة طلّاب الحوزة[٤].

وكان يقيم الصلاة في مسجده الواقع على جبل النور وهو المعروف بمسجد آل الطريحي في البراق الآن[٥].

(١) ظ: حسن الحكيم / المفصل ٤/ ١٦٠١٦١ وأنظر مصادره.

(٢) ظ: البحراني / لؤلؤة البحرين / ١٥١+ محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤١ / ١٧٤+ الكنى والألقاب ٣/ ١٤٠ وسواها.

(٣) ظ: البحراني / لؤلؤة البحرين / ١٥١+ محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٤١ / ١٧٤+ الكنى والألقاب ٣/ ١٤٠ وسواها.

(٤) ظ: محسن الأمين / أعيان الشيعة ٤١ / ١٧٧.

(٥) ظ: آغا بزرك / طبقات أعلام الشيعة ١/ ١٧٦.

الثاني: الشيخ أبراهيم بن سليمان القطيفي: هاجر من القطيف في أول شبابه الى النجف الأشرف وتفرّغ للدرس والتدريس حتى تخرج على يديه مئات العلماء والفقهاء والفضلاء في جامعة النجف الأشرف وأبقى ذكراً سائراً وثروة هائلة من المصنّفات والمؤلّفات الجليلة في الحديث الشريف، والفقه وأصوله، وعلم الكلام، والفلسفة والإلهيات، والرواية والدراية والأسانيد وسواه بما يربو على ثلاثين مجلداً، ومؤلفاته بحاجة الى الطبع الجيد والتحقيق.

وفي ضوء ما تقدم فأن الشيخ القطيفي الموصوف بأنه: (الإمام الفقيه، العالم الفاضل، الكامل المحقق المدقق المعاصر للشيخ علي الكركي، وكان زاهداً عابداً ورعاً مشهوراً تاركاً للدنيا برمتها)[1].

وكان بينه وبين المحقق الشيخ الكركي إختلاف شديد حول ولاية الفقيه، ولكنه يروي بالإجازة عنه على الرغم مما كان بينهما من مناظرات في الموضوع[2].

قال السيد محسن الأمين قُدّس سره: (والعجب مع كونه يروي عن الشيخ علي الكركي كان له معارضات ومناقضات)[3].

أقول: والقضية العلمية شيء، واختلاف الرأي شيء آخر، فهو يروي عن المحقق الكركي، وهو يخالفه في الرأي، في قضية أشغلت الفكر الإمامي حتى اليوم، يقول أحمد شوقي:

وإختلاف الرأي لا يفسدُ في الودّ قضيَّه

(١) محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٥ / ١٨٢.

(٢) ظ: عباس القمي / الكنى والألقاب ٣ / ٦٦.

(٣) ظ: محسن الأمين العاملي / أعيان الشيعة ٥ / ١٨٢.

الثالث: المقدّس الأردبيلي الشيخ أحمد بن محمد النجفي (ت ٩٩٣هـ) وكان قائداً محنّكاً، ومرجعاً أعلى، ومسدّداً في القول والعمل، وقد إنطلقت النجف الأشرف بقيادته الى ذروة الجهاد العلمي الرفيع بخطوات كبرى، وقد وصُف بأنه: (كان عالماً فاضلاً مدققاً، عابداً، ثقة، ورعاً، عظيم الشأن جليل القدر)[١].

ووصف أيضاً بأنه (عالم رباني، وفقيه محقق صمداني)[٢]. والحق أن المقدس الأردبيلي فوق ما وصف في ذاته ونفسه، ونقائه وصفائه، وعلمه وحلمه، ودرسه وتدريسه، ويؤكد الشيخ القمي أعلى الله درجته الحديث عن المقدس الأردبيلي بالقول: (وأمره بالثقة والجلالة، والفضل والنبالة، والزهد والديانة، والورع والأمانة.. أشهر من أن يُحيط به قلم، أو يحويه رقم، كان متكلّماً فقيهاً، عظيم الشأن، جليل القدر، رفيع المنزلة)[٣].

والواقع الملموس والمحسوس بل والمجمع عليه: أنه كان مثال التقوى الحقيقية التي لا يشوبها شيء، ورمز الورع الواقعي الذي لا يداخله ريب، وله في ضوء هذا قصص وروائع وكرامات تناقلها السلف عن الخلف، فقد قالوا: (ونسبت إليه كرامات كثيرة في الحضرة العلوية الشريفة، وروي أنه لم يمدد رجليه في النوم أربعين سنة)[٤].

إن هذه الكرامات السائرة في الآفاق، والفضائل الغيبية المتواترة في النقل والرواية، قد لا يتسع لها فكر الجيل المعاصر إستيعاباً لأبعادها، أو سبراً لأغوارها !!

فمن يصدّق اليوم أن أبواب الحرم العلوي تفتح له تلقائياً؛ وهي محكمة الأغلاق والرتاج؟

---

(١) الحر العاملي / أمل الآمل ٢ / ٢٣.

(٢) عباس القمي / الفوائد الرضوية / ٢٣.

(٣) القمي / سفينة البحار ١ / ٣٠٤.

(٤) ظ: البحراني / لؤلؤة البحرين / ١٤٩+ الخوانساري / روضات الجنات ١ / ٨٤.

ومن يصدّق اليوم أن المقدس الأردبيلي يكلّم الإمام في الروضة الحيدرية المطهرّة، ويستمع هو الجواب؟

وهو مع هيبته.. وطلاقة محياه، وبهاء سمته، وروعة هيأته؛ قد يعتقد به الفقر المدقع لبساطة ملبسه، ورثة ثيابه، وكأنه فرد من أفراد الجياع والبائسين، وليس الأمر كذلك؛ بل يريد مواساة المحرومين من الناس في النظرية والتطبيق.

وله في هذا الملحظ حكايات ووقائع روى بعضها الأمين الحسيني العاملي في الأعيان، والخوانساري في روضات الجنات، والقمي في جميع مؤلفاته مؤكداً أنه: أعبد أهل زمانه وأورعهم وأتقاهم، وسوى هؤلاء من المشاهدين القدامى لغزير فيوضاته.

وعن المجلسي أنه قال: (والمحقق الأردبيلي في الورع والتقوى والزهد بلغ الغاية القصوى، ولم أسمع بمثله في المتقدمين والمتأخرين، جمع الله بينه وبين الأئمة الطاهرين)[(١)].

وقد روى المجلسي ما أخبره به جماعة عن السيد الفاضل أمير علاّم التفريشي، من فتح الحرم العلوي له تلقائياً، وكلامه مع الإمام علي عليه السلام في مسألة مشكلة، فأحاله للإجابة عن سؤاله الى صاحب الأمر المنتظر عجل الله فرجه، فذهب الى الكوفة وألتقى به فأعطاه جواب المسألة في حديث طويل[(٢)].

وكان من سيرته العلمية، وتعمّقه في المسائل الفقهية، وإذا ظهر له حل مسألة فقهية يتطاير فرحاً ويقول: (أين الملوك وأبناء الملوك عن هذه اللذة)[(٣)].

---

(١) ظ: عباس القمي / الكنى والألقاب ٣/ ١٧٤.

(٢) ظ: المرجع نفسه ٣/ ١٧٤-١٧٥.

(٣) محمد رضا شمس الدين / حديث الجامعة النجفية / ٣٠ / المطبعة العلمية / النجف الأشرف ١٣٧٣هـ.

وكان من فضل الله على المقدّس الأردبيلي وتوفيقه عزّ وجل له أن تخرج في مدرسته، وفي ظل عنايته جمهرة كبيرة من علماء ومجتهدين في طليعتهم الشيخ حسن بن الشهيد الثاني (صاحب المعالم) (ت ١٠٣١هـ) والمولى عبد الله التستري النجفي والأمير علاّم التفريشي، والسيد محمد العاملي (صاحب المدارك) وأضرابهم من الفحول الذين يعدّون بالمئات.

وقد أبقى المقدس الأردبيلي ثروة هائلة من المصنفات والآثار في التفسير وآيات الأحكام وأبرزها: (زبدة البيان في فقه القرآن) وقد وُفق أحد طلبتنا في كلية الفقه لدراسة جهود الأردبيلي فيه، وكنت رئيس لجنة مناقشة الرسالة، والذي حصل على درجة الدكتوراه.

وله أكثر من عشرين مؤلّفاً في الفقه والأصول وعلم الكلام والإلهيات والعقائد، وأصول الدين.

وهنا تنبغي الإشارة أن القرن العاشر الهجري ببركة الأعلام الثلاثة: الكركي، والقطيفي، والمقدّس الأردبيلي حفلت النجف بمختلف المجتهدين والفقهاء والعلماء والشعراء والفلاسفة والمؤلفين بما تجاوز الخمسين مجتهداً، ومثله أئمة الجماعة وأساتذة الحوزة العلمية، واذا كان هذا العدد في المجتهدين وحدهم !! فما بالك في فضلاء وتلامذة وطلاب الحوزة العلمية.. وكلهم من النجفيين الأصلاء أو المهاجرين المجاهدين، أو المجاورين لطلب العلم وحده.

وبعد حياة حافلة بالبر والتقوى، توفي المقدّس الأردبيلي في النجف الأشرف في شهر صفر عام (٩٩٣هـ) ودفن بالحجرة المتصلة بالخزانة الأثرية العظمى لضريح ومرقد أمير المؤمنين في المشهد العلوي متصلة بالرواق الشريف، وكانت الخزانة مغلقة طيلة حياتنا السابقة لمكان (الخزانة العلوية) منها، وهي بين المنارة الجنوبية والأيوان الذهبي الكبير.

وقد فتحت هذه الحجرة بجهود الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدّسة عام (١٤٣٣هـ) ويزينها باب ذهبي كبير في أرقى طراز وتصميم، وعلى يسار الداخل مشبك خشبي على مرقد المقدّس الأردبيلي رضوان الله عليه.

وقد أدركنا من سيرة مراجعنا العظام والفقهاء والعلماء وأهل الدين ورجال العلم حينما يدخلون لزيارة الإمام عليعليه السلام فأنهم يبدأون بقراءة سورة الفاتحة للمقدّس الأردبيلي وحينما يزورون ويودّعون الإمامعليه السلام فأنهم يختمون ذلك بقراءة سورة الفاتحة للعلامة الحلي (ت ٧٢٦هـ) المدفون في الحجرة المؤدّية الى الرواق قرب المأذنة الشمالية، ومرقده الطاهر بينها وبين الأيوان الذهبي، وما وصف به مرقد المقدّس جارٍ على مرقد العلامة من فتح الحجرة وصنفها أيضاً.

ومنذ أن أدركت الإمام السيد محسن الحكيم قدس سره يؤدي هذه المراسيم في منتصف القرن العشرين التزمت بها وهي عادتنا بتوفيق الله عز وجل، وأدعو لذلك شبابنا وطلاب الجامعات والثانويات ومن بلغ سن الرشد الإلتزام بقراءة الفاتحة لهذين العلمين، فإن لهما منّةٌ في رقبة كل مؤمن ومؤمنة بها قدّماه.

***

الفصل الثاني

تصاعد الإمداد المرجعي في النجف الأشرف

في القرن الحادي عشر الهجري

- الأعلام.
- الأسر العلمية في النجف الأشرف / أنموذجاً.

الأعلام

وهنا يطلّ علينا القرن الحادي عشر الهجري لنجد فيه النجف الأشرف معقلاً للفقهاء وأهل العلم، ومؤئلاً للرحّالة والمهاجرين، يقول علّامة العراق الشيخ محمد رضا الشبيبي (ت١٩٦٥م) (في هذا القرن خرّجت النجف الأشرف جماعة من العلماء والمجتهدين الذين آثروا الإقامة فيها من علماء النجف وطلابها، ولاسيما على عهد (آل طريح) الرماحيين حتى قصدها الناس وتطلعوا الى زيارتها)[١].

وسوف يقتصر البحث على ما خرجت من مراجع أفاضوا على النجف روافد علومهم المتأصلة، وحدبوا على تطوير الحوزة العلمية فيها، وإن هاجروا عن النجف، ولكنهم عادوا اليها بأشخاصهم وعصارة أفكارهم وخيرة طلابهم، وأبقوا من الآثار ما خلد مع الإعصار، وسيكون حديثنا عن مفخرة القرن الحادي عشر متمثلة بالأعلام:

» أبن الشهيد الثاني الحسن بن زين الدين الجباعي العاملي (ت١٠١١هـ) (صاحب المعالم).

» السيد محمد بن السيد علي بن الحسين بن أبي الحسن الموسوي الجباعي العاملي (ت١٠٠٩هـ) (صاحب المدارك).

» الشيخ البهائي، محمد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني(ت١٠٣١هـ).

(١) الشبيبي/ الرماحية / بحث علمي في مجلة لغة العرب / إصدار الأب أنستاس الكرملي / السنة الثالثة / ج٩/ ص٤٦٣.

» السيد الداماد، محمد باقر بن السيد شمس الدين الحسيني (ت١٠٤١هـ) (صاحب الرواشح).

» المجلسي الأول، المولى الشيخ محمد تقي بن مقصود بن علي، المعروف بالمجلسي الأول(ت١٠٧٠هـ).

ومن ثم نعطي معجماً ببلغرافياً بالأسر العلمية التي أسّست مجدها في هذا القرن، واستمر اغلّبها بالعطاء حتى نهاية القرن الرابع عشر، وواكب بعض أفرادها الأكثرين القرن الخامس عشر الهجري، وهو القرن الحالي، كما أتسع نطاق التجمهر العددي في أفراد هذه الأسر لاسيما آل الحكيم.

١. وكان في طليعة علماء النجف ومراجعها العظام: الحسن بن الشيخ زين الدين (الشهيد الثاني) المعروف باسم (أبن الشهيد الثاني الجباعي العاملي النجفي).
ولد في (جباع) في السابع عشر من رمضان عام (٩٥٩هـ).

٢. وكان زميله في الدرس والتحصيل في النجف الأشرف أبن أخته السيد محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين الموسوي الجبعي، واليه تنتسب اليوم في لبنان أسرة آل أبي الحسن، وكبيرهم اليوم صديقنا العلامة المفضال السيد فخر الدين أبو الحسن أمدّ الله في عمره.

والحق أن ابن الشهيد وصاحب المدارك متقاربان في الدراسة كتقاربهما في السن، وينبغي والحالة هذه أن لا نفصل بينهما فهما فرسا رهان، ورضيعا لبان، وقد تتداخل ترجمتهما والله المستعان، فقد أخذا نصيباً وافراً من العلم، وأتفق لهما الفوز بالدراسة عند المقدّس الأردبيلي الشيخ أحمد بن محمد، والمولى عبد الله اليزدي، والأخذ منهما، فكانا مجتهدين عادلين، ومرجعين يُشار اليهما من قبل أساتذتهما، وهما في النجف. فعن حدائق المقربين أنهما لما قدما العراق، وأقاما للدراسة في النجف الأشرف، وردا على المقدّس

الأردبيلي - وهو المرجع الأعلى آنذاك - وسألاه أن يعلمهما ما له دخل في الاجتهاد، فأجابهما الى ذلك، وعلمهما أولاً شيئاً من المنطق وأشكاله الضرورية، ثم أرشدهما الى أصول الفقه، وقال لهما: إن أحسن ما كتب في هذا الشأن هو:(شرح المختصر العضدي) غير أن بعض مباحثة ليس له دخل في الإجتهاد، وتحصيله مضيّع للعمر، فكانا يقرآنه عليه، ويتركان تلك المباحث.

ومما هو معروف عنهما؛ أنهما قالا للمقدّس الأردبيلي قدس سره، نحن لا يمكننا الإقامة مدة طويلة، ونريد أن نقرأ على وجه نذكره لكم؛ إن رأيت ذلك صلاحاً!! قال الأردبيلي: ما هو؟ قالا: نحن نطالع، وكل ما فهمناه لا نحتاج معه الى تقرير أو تدريس أو شرح!! بل سماحتكم تقرأ العبارة ولا تقف!! وما يحتاج الى البحث والتقرير نتكلم فيه!! فأعجبه ذلك، فلما قرأ عليه مدة قليلة على هذا النحو؛ كان جمع كبير من تلامذة المقدّس الأردبيلي يهزأون بهما لذلك!! فقال لهما المحقق الأردبيلي، وكان ينظر بنور الله، والمؤمن ينظر بنور الله، ومن أولى بهذا من الأردبيلي: قال: عن قريب يتوجهون الى بلادهم، وتأتيكم مصنفاتهم، وأنتم تقرأون في (شرح المختصر) فكان الأمر كذلك، فأنهما لما رجعا صنف الشيخ حسن بن الشهيد الثاني (معالم الدين وملاذ المجتهدين) في الأصول، وكتاب (المنتقى في الفقه).

وألف السيد محمد بن أبي الحسن (جد أبيه) كتاب (مدارك الأحكام) ووصل بعض ذلك الى النجف الأشرف قبل وفاة المقدّس الأردبيلي الذي أصبحا مرجعين من بعده.

والمشهور عن المقدّس الأردبيلي أنه عند قرأتها عليه؛ كان مشغولاً بشرح الإرشاد، فكان يعطيهما أجزاء منه، ويقول: انظرا في عبارته، وأصلحا ما شئتما.

وهذا منتهى الوثوق من الأردبيلي بعلمهما واجتهادهما، بل وحكم بصحّة ما يصلحاه، بل أمرهما بذلك (وأصلحا ما شئتما).

وما زلنا بهذا الصدد، فأن ابن الشهيد الثاني الشيخ حسن (قدس سره) لما عزم على الرجوع الى بلاده، طلب من أستاذه المرجع الأعلى الأردبيلي أن يكتب له (تذكره ونصيحة) فكتب له بعض الأحاديث والمواعظ والنصائح، وكتب في أخرها: (كتب العبد أحمد لمولاه، إمتثالاً لأمره ورضاه)[١].

وكان صاحب الكنى قد ذكر بالقول: وأمره في العلم والفقه والتبحر والتحقيق وحسن السليقة وجودة الفهم، وجلالة القدر، وكثرة المحاسن والكمالات، أشهر من أن يذكر، وأبين من أن يسطر[٢].

ووصفه صاحب رياض العلماء قائلاً: (إنه الفقيه الجليل، والمحدّث الأصولي، الكامل النبيل، كان علّامة عصره، وفهامة دهره)[٣].

أما الشيخ القمي فقد أعطاه حقّه بالقول: (إنه شيخ المشايخ الجلة، ورئيس المذهب والملة، وحيد دهره، وأعرف أهل عصره)[٤].

وقد بقي رضوان الله عليه مقيماً في النجف الأشرف على دراسته وتحصيله بعد سنة (٩٨٣هـ) كما كتبه على ظهر كتاب (الجمهرة لابن دريد): (صار هذا الكتاب في نوبة العبد المفتقر الى الله سبحانه حسن بن زين الدين بن علي العاملي عامله الله بلطفه، ملكه بالابتياع الشرعي بالمشهد المقدس الغروي في أوائل شهر رمضان سنة (٩٨٣هـ))[٥].

وهذا التأريخ يدل على بقائه في النجف وتواجده فيها، ولا يمانع أن يكون قد أقام

---

(١) ظ: عباس القمي / الكنى والالقاب ٢/ ٣٥٥.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٣٥٤.

(٣) الأفندي/ رياض العلماء وحياض الفضلاء ٢/ ٦١.

(٤) القمي/ هدية الأحباب / ٨١/ المطبعة المرتضوية/ النجف الأشرف/ ١٣٤٩هـ

(٥) محسن الأمين الحسيني العاملي/ أعيان الشيعة ٢١/ ٣٩١.

بعده بالنجف مدة تقصر أو تطول، ولكنها -قطعاً- كانت قبل وفاة أستاذه الأردبيلي، لأن الأردبيلي أجازه عند عزم مغادرة النجف، والثاني أن بعض مؤلّفاته وصلت الى النجف والى الأردبيلي والى الحوزة قبل وفاته.

وكان فيما عرف عنه دقيقاً فيما يكتب، وأنيقاً فيما يشكّل ويعرب، وينقل عنه أمران مهمان: علمي وزهدي.

فالأول أنه كان يظهر إعراب ألفاظ الحديث الشريف فيما يكتبه، ويقول: أن الإحتياط في ذلك لما رواه الكليني رحمه الله تعالى عن الصادق عليه السلام أنه قال: (إعربوا أحاديثنا فإنا قومٌ فصحاء).

الثاني: ما نقله في الدر المنثور حفيده الشيخ علي بن الشيخ محمد بن الشيخ حسن (المترجم له): أن جده هذا الشيخ حسن قد بلغ من التقوى والورع أقصاهما، ومن الزهد والعبادة منتهاهما، ومن الفضل والكمال ذروتها وأسناهما، وكان لا يجوز قوت أكثر من اسبوع أو شهر، لشك مني فيما نقلته عن الثقات لأجل القرب الى مساواة الفقراء، والبعد عن التشبه بالأغنياء.

وقد أبقى من المؤلّفات القيمة التي لا يُعرف فضلها إلا ذوو الفضل، ما ينيف على الخمسين مجلداً في علوم شّتى أهمها: الحديث الشريف، الفقه والأصول، التشريع والآداب، علم الكلام، وله ديوان شعر كبير، ولكنه أشتهر شهره ذائعة الصيت بكتابه الأصولي (معالم الدين وملاذ المجتهدين) الذي فرغ من تأليفه عام (٩٤٤هـ) أي بعد وفاة الأستاذ الأردبيلي بسنة.

وتنطلق أهمية هذا الكتاب كونه غيّر المنهج الدراسي في النجف وجميع الحوزات العلمية الإمامية من كتاب (شرح المختصر) للعضد الأيجي الى هذا لكتاب، وكان هذا

الكتاب الى العهد القريب قبل نصف قرن هو مدار الدرس في أول دروس علم الأصول في الحوزة العلمية، ويترقى منه الى كتاب(قوانين الأصول) للمحقق القمي، ثم الى كتاب (كفاية الأصول) للآخوند الخراساني زعيم الأحرار.

ومما يؤسف له حقاً أن يهجر كتاب المعالم في أغلب الحوزات، وقد إستعيض عنه بالمعالم الجديدة للأصول (الحلقات) للشهيد الصدر، أو (بأصول الفقه) للشيخ المظفر.. وبهجران هذا الكتاب العظيم، فقد ثروة متطورة متيسرة للطالب الحوزوي نتيجة ما حصل من هذا الإعراض عن الكتاب إلا نادراً عند أهل الله.

وبعد عمر قصير بالعطاء المعرفي لم يتجاوز (٥٢عاماً) وفد على الله تعالى - فوالهفتاه عليه - في قريته (جباع) من جبل عامل سنة (١٠١١هـ) ودفن فيها بعد أن تخرّج على يديه فطاحل علماء جبل عامل وسواه.

وقد توّفي قبله أبن أخته السيد محمد صاحب المدارك وكانا مرجعين متعاصرين تنقل عنهما أطايب الأحاديث في الودّ والمصافاة والمؤاخاة والإيثار وإعتقاد أحدهما بالأخر جملة وتفصيلاً زمن الدراسة في النجف ونبوغهما فيه، وزمن تواجدهما في لبنان وذيوع أسميهما به، وإنتشار صيتيهما في الآفاق، وحينما توفي السيد محمد صاحب المدارك كتب خاله ابن الشهيد الثاني (صاحب المعالم) الآية القرآنية الشريفة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1].

وحسبك بصاحب المدارك أن يقول عنه صاحب الوسائل: (كان فاضلاً متبحّراً ماهراً محققاً، مدققاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، فقيهاً، محدثاً، كاملاً، جامعاً للفنون والعلوم، جليل القدر عظيم المنزلة)[2].

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٣.

(٢) الحر العاملي/ أمل الآمل ١/ ١٦٧

وكان السيد محمد قد قرأ على أبيه، وتلامذة جده لأمه الشهيد الثاني، وعلى مولانا أحمد الأردبيلي، وكان شريك خاله الشيخ حسن بن الشهيد الثاني في الدرس، وكان كل منهما يقتدي بالآخر في الصلاة، ويحظر درسه.

وقد أبقى ثروة علمية تطاول الأعناق شرفاً ومنزلةً وإفادةً وفي طليعتها (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) في ثلاث مجلدات ضخمات (طبعة حجرية موجودة لدينا) فرغ من تأليفه سنة (٩٩٨هـ) وهو من أروع كتب الاستدلال.

وله حاشية على الاستبصار، وحاشية على التهذيب، وهما لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) وله حاشية على ألفية الشهيد، وشرح المختصر النافع وغير ذلك[١].

وقد عَدَّلَهُ المحقّق أغا بزرك خمسة كتب فقهيه.

وذكر أن السيد محمد صاحب المدارك (قدس سره): (دوّن جملة من الرجال الذين وثقهم الشيخ الطوسي في رجاله مرتباً على الحروف)[٢].

ولئن إختلطت ترجمة الرجلين، وهما الخال وأبن أخته، وهما بعيدان عن الأثرة، قريبان الى الإيثار، يفدي كل منهما أحدهما بالآخر، وإنصاف أحدهما إنصاف للآخر فهما شريكان بكل مكرمة، وقائمان على كل فضيلة، ولما كانا فرسي رهان في الكرامة، فقد ذكر المحدث القمي أعلى الله درجته عن المحدث السيد نعمة الله الجزائري في الأنوار النعمانية، قال: (حدثني أوثق مشايخي: أن السيد الجليل محمد صاحب المدارك، والشيخ المحقّق صاحب المعالم الشيخ حسن، أنهما قد تركا زيارة المشهد الرضوي على ساكنه أفضل الصلاة خوفاً من أن يكلفهما الشاه عباس الأول بالدخول عليه مع أنه كان من أعدل سلاطين الشيعة،

---

(١) ظ: عباس القمي/ الكنى والالقاب ٢/ ٣٥٨ بإضافة وإضاءة منا.

(٢) ظ: اغا بزرك مصفى المقال/ ٤١٣/ الطبعة الأولى/ ١٩٥٩م.

فبقيا في النجف الأشرف ولم يأتيا بلاد العجم إحترازاً من ذلك المذكور)[١].

ونفيد من هذه الرواية أمرين: الأول: إرتفاعهم من الدنو الى الملوك والسلاطين كرهاً لذلك وزهداً فيه تطبيقاً للحديث الشريف (إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك، فقولوا بئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء، فقولوا نعم الملوك ونعم العلماء)[٢].

الثاني: قد يُستفاد من النص (فبقيا في النجف الأشرف) أنهما بعد مرجعيتهما جدّدا العهد بالنجف الأشرف زائرينِ أو مقيمينِ.

٣. وأماّ المرجع الثالث النابغ في النجف الأشرف وديار الإسلام فهو المجدد للدين في القرن الحادي عشر الشيخ البهائي (قدس سره)، وهو بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي، وقد ولد في بعلبك عند غروب الشمس يوم الأربعاء لثلاث عشرة بقين من ذي الحجة سنة (٩٥٣هـ).

وهاجر الشيخ البهائي الى النجف الأشرف، ولم تذكر التواريخ المتيسرة بين أيدينا تأريخ هجرته، ونعتقد جازمين أنها في عنفوان شبابه لأمرين:

- تخطيطه الجغرافي للصحن الحيدري الشريف في ضوء الجغرافيا الفلكية إذ صمّمه في الجهة الشرقية لمعرفة دخول وقت صلاة الظهر بدل البوصلة غير المتيسرة آنذاك، والشاخص الذي قد يُشوه روعة الصحن الحيدري، فعمد الى هندسة فلكية بحيث إذا بلغت الشمس حوالي الشبر في أرضية الإواوين الشرقية، حينذاك يدخل وقت صلاة الظهر في الفصول الأربعة.

---

(١) ظ: الكنى والالقاب ٢/ ٣٥٧.

(٢) ظ: المصدر نفسه ٢/ ٩٠

- خطط للقبة - كما يقال - الذهبية على حرم أمير المؤمنين عليه السلام من جميع جهاتها الدائرية بأن صمم شبابيك عديدة يدخل منها النور منذ طلوع الشمس الى غروبها، وذلك فيه ما فيه من دقة تفكير الشباب وحيويتهم، إن الشمس إذا أشرقت في النجف - كما لاحظناه قبل خمسين عاماً - حيث كانت البلدة صغيرة، ولا عمارات ولا مبانٍ حول الحرم، فإن الشمس كانت تشرق فيدخل نورها من عدّة شبابيك حزّمت بها القبة الشريفة الى أسفلها حيث أسسها المرتفعة الى أعلى الضريح بحوالي (١٥ متراً) ويستمر دخول ضوء الشمس آناء النهار وأطرافه حتى الغروب داخل القبة المطلّة على الضريح الطاهر، وذلك لانارة الحرم الشريف نهاراً.

وفي النجف ألّف كتابه (الجامع الغروي) وقد نصّ على ذلك، وصفه الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) وهو معاصر له بأنه: (كان رئيس العلماء) وريحانة الألبآء، وزهرة الحياة الدنيا[1].

وقال المحقق الشيخ عباس القمي (إنه عالم فاضل، نحرير، متبحّر، جامع خبير، حاوي فنون الفضائل، شيخ الإسلام والمسلمين، بهاء الملة والحق والدين)[2].

وقال عنه صاحب السلافة: علي بن أحمد الحسيني المدني ما ملخصه: إنه علّامة البشر، ومجدّد دين الأئمة عليهم السلام على رأس القرن الحادي عشر، إليه إنتهت رياسة المذهب والملّة، وبه قامت قواطع البراهين والأدلة، وجَمَعَ فنون العلم فأنعقد عليه الأجماع، وتفرّد بصنوف الفضل فبهر النواظر والأسماع، فما من فن إلاّ وله فيه القدح المعّلى، والمورد العذب المحلّى، إن قال لم يدع قولاً لقائل، أو طال لم يأتِ غيره بطائل، وإنتقل به والده الى فارس، وفوضت إليه أمور الشريعة على صاحبها الصلاة والسلام، وولي منصب شيخ

---

(١) ظ: شهاب الدين/ أحمد بن محمد/ ريحانة الألباء٢/ ٢٨٣/ مطبعة عيسى البابي الحلبي/ القاهرة/ ١٩٦٧م.

(٢) القمي / الفوائد الرضوية/ ٥٠٢.

الإسلام، وهو آنف من الأنحياش الى السلطان، راغباً في العزلة، عازفاً عن الأوطان، يؤمل العود الى السياحة.....[1].

وعلى الرغم من كونه من المراجع العظام، فقد زهد بكل الاعتبارات الزائلة، وترك بهارج الألقاب، ولزم السياحة للعظة والعبرة والدرس والإفادة في كل من العراق وفارس والإفغان وسوريا ومصر والحجاز وإستانبول وسواها، وتجول دارساً ومدرساً فيها، وهو يعاود العتبات المقدسة، فيجتمع حوله العلماء والفقهاء والأساتيذ، ناهلين من عباب علمه الزاخر، حتى قال السيد حسين بن السيد حيدر الكركي: (قرأت عليه في بغداد، والكاظمين والنجف الأشرف، وحائر الحسين، والعسكريين (سامراء) كثيراً من الأحاديث، وأجازني في كل هذه الأماكن جميع كتب الحديث والفقه والتفسير وغيرها)[2].

ومعنى هذا أن تلامذته يحفّون به ويتابعونه في أسفاره، وأن أسفاره هذه تتسم بالإقامة غير المؤقتة حتى تستوعب فيوضاته، مما أوجد حركة علمية متنقّلة سيّارة، وأثرى بلباب العلم مئات العلماء والفضلاء والدارسين من طلابه حتى أن الشيخ أغا بزرك وحده قد عدد في الذريعة منهم ما ينيف على عشرين مجتهداً، وكذلك فعل السيد الأمين العاملي في الأعيان وقد تبارى العلماء والمترجمون بالثناء عليه، ووفقاً لما ذكروه فهو من محاسن الدنيا، وعجائب الدهر، بما ملك من ذهن وقاد، وسليقه نادرة في العقليات ومآثر العلوم النقلية، مع حكمة في التدبير، وذكاء منقطع النظير.

وللتأريخ، فقد ترجم في كل من الكنى والألقاب، وشهداء الفضيلة والغدير، والذريعة، وأعيان الشيعة، ومصفى المقال، وأدب الطف وسوى ذلك، وقد ذكر هؤلاء له عشرات المؤلفات في: تفسير القرآن، وعلوم القرآن، والحديث الشريف، والفقه

(١) ظ: عباس القمي/ الكنى والألقاب ٢/ ٩١، عن السلافة للمدني.

(٢) حسن الصدر/ تكملة أمل الآمل/ ورقة/ ١٥٦.

والأصول، والحكمة والفلسفة، وعلم الكلام، وأصول الدين، واللغة والنحو، والأدب، والتراث، والأخلاق، والصرف، والفلك، والهيأة، والحساب، والجبر، والهندسة، والأدعية، والنوادر، والطرائف، وسوى ذلك بما يزيد على المائة مصنف ومؤلف وكتاب، وبعضها في عدّة مجلدات.

وحينما إستكمل مدته، وأستوفى عدة أيامه، لبّى نداء ربّه في ضوء روايتين يرويهما القمي النجفي في الكنى والألقاب عن مصادرهما: الأولى: عن صاحب السلافة قائلاً: وأخبرني بعض ثقات الأصحاب أن الشيخ البهائي رحمه الله قصد قبل وفاته زيارة المقابر في جمع من الأجلاء الأكابر، فما استقربهم الجلوس، حتى قال (البهائي) لمن معه: إني سمعت شيئاً؛ فهل فيكم من سمعه؟ فأنكروا سؤاله، وإستغربوا مقاله، فسألوه عما سمعه!! فأوهم وعمّى في جوابه، ثم رجع الى داره، فأغلق بابه، فلم يلبث أن أصاب داعي الردى فأجابه. وكانت وفاته لاثنتي عشرة ليلةً خلون من شوال المكرم سنة (١٠٣١هـ) بأصبهان، ونقل قبل دفنه الى طوس (مشهد) فدّفن بها في داره قريباً من الحضرة الرضوية على صاحبها أفضل الصلاة والسّلام والتحيّة.

أقول: وقبره الآن في أحد صحون الروضة الرضوية في مشهد بالقرب من مسجد (كوهر شاد) وقد وقفت عليه مراراً قارئاً الفاتحة له.

الثانية: حكي عن المجلسي الأول قال في ترجمة أستاذه الشيخ بهاء الدين أنه سمع قبل وفاته بستة أشهر صوتاً من أحد قبور الأجلاء، - وكنت قريباً منه - فنظر إلينا، وقال: هل سمعتم ذلك الصوت؟ فقلنا: لا!! فأشتغل بالبكاء والتضرّع والتوجّه الى الآخرة، وبعد المبالغة العظيمة؛ قال: إني أخبرت بالاستعداد للموت.

وبعد ذلك بستة أشهر تقريباً توفّي، وتشرّفت بالصلاة عليه مع جمع الطلبة والفضلاء وكثير من الناس يقربون خمسين ألفاً[1].

---

(١) ظ: عباس القمي/ الكنى والألقاب ٢/ ٩١-٩٢.

أقول: لا غرابة في ذلك فالشيخ البهائي من الأولياء والصلحاء الذين يتمتعون بمثل هذه الكرامة في الاستعداد للموت.

ومع علمه الغزير، وتفقّهه في الدين، ومكانته في المسلمين، وخدماته لشريعة سيد المرسلين، فقد كان شاعراً كبيراً لا يشق له غبار، وفي عقيدتي أنه يصنف في الطبقة الأولى من شعراء عصره، بل وبقيه العصور. ومن أروع قصائده قصيدته في صاحب الأمر الإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف ومطلعها:

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري عهوداً بحزوى، فالعذيب، وذي قار

وقد شرحها المنيني في مجلدين ضخمين، وحققها وطبعها قبل ستين عاماً تقريباً الشيخ جعفر نقدي، وكنت أحتفظ بهذا الشرح، وقد فقد على مرّ السنين والنكبات، وأسمها: قصيدة (وسيلة الفوز والأمان) وسنذكرها أخر الترجمة.

وقد أجمل الشيخ البهائي رأيه في أهل الدنيا، فأنصرف الى السياحة والعزلة بالقول: (لم يحصل لي من الاختلاط بأهل الدنيا إلا القيل والقال، والنزاع والجدال، وآل الأمر أن تصدى لمعارضتي كل جاهل، وجسر على مباراتي كل خامل)[1].

وهذا الأمر جارٍ في كل زمان ومكان، فالثرثرة والهذيان قائمان، ومعارضة الجهلة والخاملين للأعلام متلئبةٌ على قدم وساق، وهو ما ابتلينا به في هذا العصر.

واليك قصيدة الشيخ البهائي (قدس سره)، في مدح صاحب الزمان سلام الله عليه وعلى آبائه الطاهرين:

---

(١) البهائي/ كشكول البهائي / ديباجة الكتاب/ وأنظر السيد علي مكي العاملي/ بساتين الشريعة والدين/ ٦٥/ الأعلمي للمطبوعات / ١٤٣٥هـ / بيروت.

سرى البرقُ من نجدٍ فجدّد تذكاري عهوداً بحزوى[٢] والعذيب وذي قارِ
وهيّج من أشواقنا كلّ كامنٍ وأجّج في أحشائنا لاهب النَّارِ
ألا يا لييلات بالغُوَير[١] وحاجر سقيت بهامٍ من بني المزن مدرارِ
ويا جيرة بالمأزمَين[٢] خيامهم عليكم سلام الله من نازحٍ[٣] الدارِ
خليليّ مالي والزّمان كأنّما يطالبني في كلّ آنٍ بأوتاري
فأبعد أحبابي وأخلي مرابعي وأبدلني من كلّ صفو بأكدارِ
وعادل بي من كان أقصى مرامه من المجد أن يسمو إلى عشر معشاري
ألم يدر أنّي لا أزلّ لخطبه وإن سامني خسفاً وأرخص تسعاري
مقامي بفرق الفرقدين فما الذي يؤثّره مسعاه في خفض مقداري
وإنّي أمرؤ لا يدرك الدهر غايتي ولا تصل الأيدي إلى سير أغواري
أُخالط أبناء الزّمانِ بمقتضى عقولهم كيلا يفوهوا بإنكاري
وأُظهر أنّي مثلهم تستفزّني صروف الليالي بإختلالٍ وإمرارِ
وإنّي ضاري القلب مستوفر النهى أسرّ بيسرٍ أو أساء بإعسارِ
ويضجرني الخطب المهول لقاؤه ويطربني الشَّادي بعودٍ ومزمارِ
ويصمي فؤادي ناهدِ الثّدي كاعبٍ بأسمر خطّار وأحور سحّارِ
وإنّي أُسخي بالدموع لوقفه على طلل بالٍ ودارس أحجارِ
وما علموا أنّي أمرؤ لا يروعني توالي الرزايا في عشيّ وإبكارِ
إذا دكّ طور الصبر من وقع حادثٍ فطود اصطباري شامخٌ غير منهارِ
وخطب يزيل الروع أيسر وقعه كؤود كوخزٍ بالأسنّة شعّارِ

(١) حزوى: أسم موضع

(١) الغوير مصغراً: ماء لبني كلب ويحتمل أن يكون مصغر غار، ويناسبه الحاجر وهي الأرض المرتفعة.

(٢) المأزمَين - بفتح الميم بصيغة التثنية -: اسم موضع بين منى ومكة.

(٣) النازح: البعيد.

تلقّيته والحتف دون لقائه | بقلب وقور في الهزاهز صبّارِ
ووجهٍ طليق لا يملّ لقاؤه | وصدرٍ رحيبٍ في ورود وإصدارِ
ولم أبده كي لا يساء لوقعه | صديقي ويأسي من تعسّره جاري
ومعضلة دهماء لا يهتدي لها | طريق ولا يهدي إلى ضوئها السّاري
تشيب النواصي دون حلِّ رموزها | ويحجم عن أغوارها كلّ مغوارِ
أجلت جيادَ الفكر في حلباتِها | ووجّهت تلقاها صوائب أنظاري
فأبرزت من مستورها كلّ غامض | وثقّفت منها كلّ أصور موّارِ[1]
أأضرع للبلوى وأغضي على الـ | ـقذى وأرضى بما يرضى به كلّ مخوارِ[2]
وأفرح من دهري بلذّة ساعة | وأقنع من عيشي بقرص وأطمارِ
إذا لا ورى زندي ولا عزّ جانبي | ولا بزغت في قمّة المجد أقماري
ولا بلّ كفّي بالسماح ولا سرت | بطيب أحاديثي الركاب وأخباري
ولا انتشرت في الخافقين فضائلي | ولا كان في المهديّ رائق أشعاري
خليفة ربّ العالمين وظلّة | على ساكن الغبراء من كلّ ديّارِ
هو العروة الوثقى الذي من بذيله | تمسّك لا يخشى عظائم أوزارِ
إمام هدى لاذ الزّمان بظلّة | وألقى إليه الدهر مقود خوّارِ
ومقتدر لو كلّف الصمّ نطقها | بأجدارها فاهت إليه بأجدارِ
علوم الورى في جنب أبحر علمه | كغرفة كفّ أو كغمسة منقارِ

(١) موّار أي ميّال.

(٢) المخوار: الجبان والضعيف.

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ... ولم يعشه عنها سواطع أنوارِ
رأى حكمة قدسيّة لا يشوبها ... شوائب أنظار وأدناس أفكارِ
بإشراقها كلّ العوالم أشرقت ... لما لاح في الكونين من نورها الساري
إمام الورى طود النُّهى منبع الهدى ... وصاحب سرّ الله في هذه الدارِ
به العالم السفلي يسمو ويعتلي ... على العالم العلوي من دون إنكارِ
ومنه العقول العشر تبغي كمالها ... وليس عليها في التعلّم من عارِ
همام لو السبع الطباق تطابقت ... على نقض ما يقضيه من حكمة الجاري
لنكّس من أبراجها كلّ شامخ ... وسكّن من أفلاكها كلّ دوّارِ
ولا انتشرت منها الثوابت خيفة ... وعاف السرى في سورها كلّ سيّارِ
أيا حجّة الله الذي ليس جارياً ... بغير الذي يرضاه سابق أقدارِ
ويا من مقاليد الزمان بكفّه ... وناهيك من مجد به خصّه الباري
أغث حوزة الإيمان واعمر ربوعه ... فلم يبق عنها غير دارس آثارِ
وأنقذ كتاب الله من يد عصبة ... عصوا وتمادوا في عتوّ وإصرارِ
يحيدون عن آياته لرواية ... رواها أبو شعيون عن كعب أحبارِ
وفي الدين قد قاسوا وغاثوا وخبّطوا ... بآرائهم تخبيط عشواء معثارِ
وانعش قلوباً في انتظارك قُرّحت ... وأضجرها الأعداء أيّة إضجارِ
وخلّص عباد الله من كلّ غاشمٍ ... وطهّر بلادَ الله من كلّ كفّارِ
وعجلّ فداك العالمون بأسرهم ... وبادر على اسم الله من غيرَ إنظارِ
تجد من جنود الله خير كتائب ... وأكرمَ أعوانٍ وأشرف أنصارِ

بهم من بني همدان أخلص فتية — يخوضون أغمار الوغى غيرَ فكّارِ
بكلّ شديد البأس عبل شمر دل — إلى الحتف مقدام على الهول مصبارِ
تحاذره الأبطال في كلّ موقف — وترهبه الفرسان في كلّ مضمارِ
أيا صفوة الرّحمن دونك مدحة — كدرّ عقود في ترائب أبكارِ
يهنّي ابن هاني أن أتى بنظيرها — ويعنوا لها الطّائي من بعد بشّارِ
إليك البهائي الحقير يزفّها — كغاني ميّاسة القدّ معطارِ
تغار إذا قيست لطافة نظمها — بنفحة أزهار ونسمة أسحارِ
إذا رددّت زادت قبولاً كأنّها — أحاديث نجدٍ لا تملّ بتكرارِ

تمّت القصيدة الموسومة بـ(وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان سلام الله عليه وآبائه الطاهرين)، حرّرها ناظمها الفقير بهاء الدين العاملي عامله الله بلطفه الخفيّ ووعده الوفيّ.

***

٤. وكان خاتمة العلماء، ونابغة الحكماء، وأوحد الفقهاء، وأعجوبة الدهر في القرن الحادي عشر الهجري سيدنا المبجّل والأستاذ المعظم السيد محمد باقر بن السيد شمس الدين الحسيني الشهير بـ (الداماد) وهو الجد الأعلى للسيد السيستاني دام ظله.

تتلمذ في النجف الأشرف على الشيخ عبد العالي بن علي بن عبد العالي الكركي، وعلى السيد حسين الكركي، وتخرج عليهما علماً فذاً متميزاً[1].

(١) للتفصيل: ظ: أغا بزرك / الذريعة ١٥/ ١٦٧

وصفه القمي بأنه (المحقق، المدقق، العالم، الحكيم، المتبحّر، النقّاد، ذو الطبع الوقّاد الذي حلّى بعقود نظمه، وجواهر نثره عواطل الأجياد، وسبق بجواد فهمه الصافنات الجياد، سمي بالداماد لأن والده كأن صهراً للمحقق الثاني)[١].

حكي أنه لم يأوِ الى فراشه بالليالي للأستراحة إلا لماماً مدة أربعين سنة، ولم يفت منه (ره) نوافله مدة تكليفه.

وعن حدائق المقربين: أنه كان متعبداً للغاية، مكثاراً لتلاوة القرآن بحيث ذكر أنه كان يقرأ في كل ليلة خمسة عشر جزءاً من القرآن الكريم[٢].

وفي هذا الضوء نبصر شدة قداسته وبليغ تهجّده، وعظيم تقربه زُلفى الى الله تعالى، مع خلوص النية، ونقاء السريرة وطيب السيرة مما دعا أبن معصوم المدني أن يقول: (إنه سيّد وسند، وعلم علّامة، جبين الشرف، وقلاوة جيده، الناطقة ألسن الدهور بتعظيمه وتمجيده، باقر العلم ونحريره، والله أن الزمان بمثله لعقيم، وإن مكارمه لا يتسع لبثها صدر رقيم، وأنا برئي من المبالغة بهذا المقال)[٣].

وقد أبقى السيد الداماد (قدس سره) ثروة نفيسة لا تقدر بثمن من المصنّفات في شتّى المعارف الإسلامية، لاسيما تفسير القرآن الكريم، وعلم القرآن، والرواية والدراية من علم الحديث، والفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة والحكمة والتراجم والرجال والآداب بما يقارب سبعين مؤلفاً ومصنفاً كلّها من الدقة بمكان، ولكنه إشتهر شهرة مستفيضة بكتابه (الرواشح السماوية في شرح حديث الإمامية) وهو شرح لكتاب الكافي للشيخ الكليني (قدّس سره).

---

(١) عباس القمي/ الكنى والألقاب ٢/ ٢٠٦

(٢) ظ: الخوانساري / روضات الجنات ٢/ ٦٦+عباس القمي / الكنى والالقاب ٢/ ٢٠٧

(٣) سلافة العصر / ٤٨٥.

وقد نسب الداماد لهذا الكتاب، فقيل: (صاحب الرواشح).

وحينما بلغ الكتاب أجله، توفّي رحمه الله وقدّس سره عام (١٠٤١هـ) بين النجف الأشرف وكربلاء المقدسة، وحُمل نعشه، ودُفن في النجف الأشرف[١].

هذا رواية الخوانساري، وهو من أهل الفن والدراية بأحوال الرجال، بيد أن المشهور الذي يتناقله الناس وبين أهل العلم والسواد، أن السيد الداماد رحمه الله أوصى بأن يدفن بين الحرمين النجف وكربلاء، وهنالك في قضاء الحيدرية (خان النصف) بين كربلاء والنجف، قبر مشيّد ومطاف يُنسب إليهِ، والله العالم، فإن يكن نُقل الى النجف فيحتمِل أن يكون هذا موضع غسله وتكفينه، ومهما يكن من أمر فقد طويت صفحة مشرقة في أبعادها كافة، ولكن كتبه ومؤلّفاته لا سيما الرواشح السماوية تبقى خالدة مع الدهر.

وقد رأينا فيما سبق أن أساطين مراجع القرن الحادي عشر خمسة من العمالقة، كان ثلاثة منهم وهم صاحب المدارك، وصاحب المعالم، والشيخ البهائي، من شجرة عامليه باسقة، وأرومة لبنانية ممتدة، وإثنان وهما الداماد والمجلسي الأول من أرومةٍ أُخرى.

وقد اختصرنا الكلام في الداماد والمجلسي وما بعدهم لتواتر الأحزان وإنحلال الأبدان في أخبار غزو العراق من قبل العصابات التكفيرية، والله المستعان على ما يصفون.

* * *

٥. وكان من أعيان القرن الحادي عشر الهجري، المجلس الأول، وهو المولى الشيخ محمد تقي بن مقصود بن علي المجلسي والد محمد باقر المجلسي صاحب بحار الأنوار (ت١١١١هـ) والذي يأتي ذكره في أعلام القرن الثاني عشر.

(١) ظ: الخوانساري/ روضات الجنات٢/ ٦٦

والمجلسي الأول محمد تقي، هاجر الى النجف الأشرف قبل الستينات من القرن الحادي عشر قطعاً، لأنه كتب في النجف الأشرف إجازتين علميتّين في سنتي (١٠٦٠هـ) و(١٠٦٢هـ) للميرزا خوردار بن محمود التركماني الفراهي على ظهر كتاب (من لا يحضره الفقيه) للشيخ الصدوق، كما ذكر ذلك المحقّق الكبير آغا بزرك رحمه الله[١].

وفي النجف الأشرف تتلمذ المجلسي الأول على الشيخ جابر النجفي، وهو جابر بن عباس النجفي أحد الأعلام الذين ظلمهم التأريخ التدويني، وبقي في النجف مدّة لا يُستهان بها كما يقول الخوانساري[٢].

وتوفي المجلسي الأول سنة (١٠٧٠هـ) وأبقى أكثر من عشرين مؤلّفاً ذكرها الشيخ آغا بزرك في الذريعة في المصدر السابق نفسه.

وقد أحتلَ المجلسي الأول مكانه عظيمة في النجف الأشرف، وشهرة واسعة في الآفاق، فكان ممن أضاء الدرب بين السّالكين الى لباب العلم الشرعي في حاضرة أمير المؤمنين عليه السلام حتى وصفه الشيخ المامقاني (قُدّس سره) بأنه: (وحيد عصره، وفريد دهره، وأمره في الجلالة والثقة والأمانة، وعلوّ القدر، وعظيم الشأن، وسموّ الرتبة، والتبحّر في العلوم أشهر من أن يذكر، وفوق ما تحوم حوله العبارة)[٣].

ومآثر المجلسي الأول معروفة لدى أهل الفضل وهي كالشّمس في رابعة النهار، ولكنني عاجز في الوقت الحاضر عن تتبّع سيرته لمعوّقات المرض وإنشغال البال في كثير من الأزمات ونحن على شفا فتنةٍ لا أوّل لها ولا آخر.

---

(١) الذريعة ١٤/ ٢٢٥.

(٢) روضات الجنات ٢/ ١٢١.

(٣) المامقاني / تنقيح المقال ٢/ ٩٠.

ولما كان القرن الحادي عشر مزدحماً بجمهرة العلماء والفقهاء والمحدثين وذوي النبوغ المبكر، فقد تنكّر التأريخ لكثير من الأعلام، ولم يشر لهم إلاّ بإيماءات متواضعة حتى شمل ذلك بعض المراجع، فالشيخ المولى محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي كان كما وصف في المستدرك بأنه (عين الطائفة ووجهها)[١].

وأنه (عاد من مشاهير علماء الإمامية وأكابر المحدثين)[٢]، ويكاد التأريخ أن يهمله إهمالاً ملحوظاً، فلا نعرف الكثير عنه، إلا إشارات لا تُسمن ولا تُغني من الجوع، علماً بأن المبرمجين ببلغرافياً للمصنّفات والآثار والمؤلّفات ذكروا له أكثر من ثلاثين مؤلّفاً في علوم شتّى منها: تفسير القرآن وعلومه، والفقه وأصوله، والفلسفة والمنطق والأدب والاحتجاج[٣].

الأسر العلمية في النجف خلال القرن الحادي عشر

حفل القرن الحادي عشر بتمركز الأسر النجفية حصراً على نحو عالٍ جداً، وذلك أنّ تسلسلَ عطاؤها العلمي، وإستمرارية تواجدها الدراسي طيلة ثلاثة قرون، وأمتد بعضها الى القرن الخامس عشر الهجري، وهو القرن الحالي، وليس بالأمكان نتيجة مشكلات الزمان إستيعاب تلك الأسر وإستدراج تأريخها، إلا أننا - بعون الله تعالى- سنمرّ عليهم مرور الكرام بذكر أبرز الأسماء وأشهر الأعلام مع الضغط الشديد.

(١) المولوي / نجوم السماء ١/ ٦٤.

(٢) النوري / مستدرك الوسائل ٣/ ٤٠٩.

(٣) ظ: المصدر نفسه ٣/ ٤٠٩ + آغا بزرك الطهراني الذريعة الى تصانيف الشيعة ١١/ ١٩٩ وسواها.

١. أسرة آل الحكيم الطباطبائي:

وهي من أعرق الأسر العلمية في النجف الأشرف، ولها تراثها الضخم في إحياء معالم الدين حتى القرن الحاضر، وكان أشهرهم السيد أمير علي بن السيد مراد الطباطبائي، وهو الجد الأعلى لأسرة آل الحكيم في النجف الأشرف.

(وقد امتهن مهنة الطب، ووُصف بأنه جامعٌ لعلوم الأوّلين والآخرين)[1]، وقد توفي في منتصف القرن الحادي عشر سنة (١٠٥٢هـ) ودفن في النجف الأشرف، وتسلسلت ذريّته الطاهرة على نحوين:

الأول: خدم الروضة الحيدرية، ولديهم فرامين عثمانية قديمة في التعيين فيها.

الثاني: الأسرة العلمية الشّريفة، وكان قد نبغ فيها أعلام وفضلاء في القرن الثاني عشر، وفي طليعتهم والد السيد مهدي الحكيم، والسيد مهدي هو والد الإمام السيد محسن الحكيم الذي غمر القرن الرابع عشر بفيوضاته السبحانية، وجهاده الدائم حتى وفاته غاضباً على الحكّام والعملاء المأجورين عام (١٣٩٠هـ) وهو المرجع الأعلى في عصره، وكان والده السيد مهدي بعد دراسته في النجف طُلِب الى جبل عامل عالماً دينياً، وأبقى السيد محمود وهو الأخ الأكبر للسيد الحكيم، ويكبره بأثني عشر عاماً، وقام على تربيته لوفاة والده السيد مهدي، وكان مولد الإمام السيد محسن الحكيم عام (١٣٠٦هـ) وهو الزعيم خلال أربعين عاماً، والمرجع الأعلى طيلة ربع قرن.

وقد جعل من بيته وأبنائه وأسرته طلّاباً في الحوزة العلمية، حتى عاد أبناؤه وآله من العلماء الأعلام، حتى نكبتهم بالقبض عليهم جملة وتفصيلاً، صغاراً وشباباً وشيوخاً في

(١) محمد هادي الأميني / الدكتور/ معجم رجال الفكر في النجف الأشرف/ ١٣٠.

ليلة (٢٦/ رجب/ ١٤٠٣هـ) من قبل جلاوزة الطاغية وجرى عليهم ما جرى مما ليس موضعه هنا.

وهنالك فرعان آخران عدا فرع آل السيد مهدي، هما آل السيد أحمد والد أستاذنا المعظم السيد محمد علي الحكيم، وآل والد السيد سعيد الحكيم، وأولاده السيد سعيد والسيد ماجد، وأنجب السيد سعيد الأبناء الأبرار الشهداء السيد محمد حسين والسيد محمد تقي (عميد كلية الفقه) والسيد علي.

وهناك فرع السيد جعفر والد السيد محمد صادق الحكيم (قدس سره)، وهو والد العلمين الفقيهين المعاصرين: السيد محمد جعفر الحكيم والسيد محمد باقر الحكيم.

والماثل اليوم منهم المرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الحكيم نجل أستاذنا المعظم السيد محمد علي الحكيم، وهو سبط الإمام الحكيم، وستأتي ترجمته في موقعها من كتابنا (اساتيذ الحوزة العلمية العليا في النجف الاشرف)، وهو من الفقهاء الأكابر، والأصوليين البارعين الأعاظم، والقائم - اليوم- بأمور الدنيا والدين الى جنب المراجع.

وفي الأسرة اليوم: رمضان/ ١٤٣٥هـ أكثر من خمسين طالباً حوزوياً في سلك رجال الدين، وفيهم المجتهدون والأفاضل وأهل التحصيل، ومنهم أيضاً أكثر من ثلاثين يافعاً في طريقهم نحو التوجه الحوزوي، ولم يعتمروا العمامة بعد.

٢. أسرة آل البلاغي:

وهي من أعرق الأسر النجفية المعاصرة لثلاثة قرون من العطاء العلمي الثر، وقد برز منهم أكثر من عشرة أعلام، وكان أقدمهم علماً وتحصيلاً ومعارف، وأوسعهم معرفة وإطلاعاً، وأبرزهم أسماً وشهرة: الشيخ حسن بن الشيخ عباس البلاغي (ت١٠١٧هـ)

والشيخ عباس بن محمد علي البلاغي (ت١٠٨٥هـ) وإستمرت الأسرة بالعطاء العلمي الضخم حتى عصر الشيخ صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن النجفي (ت١٢٦٦هـ) حيث كانت (الندوة البلاغية) في أحداثها العلمية والثقافية ومعركتها الأدبيه، وقد نشرتها مجلة الغري في أربعينيات القرن العشرين على شكل حلقات متسلسلة، وهي تصدر تباعاً، وقد نشرها متكاملة في عام ٢٠١١م ومحقّقه تحقيقاً فريداً من قبل أحد تلامذتنا الأجلاء الأستاذ الدكتور علي خضير حجي (الندوة البلاغية) في ١٨٢ص عام ٢٠١١: فقلت مقرضاً للكتاب:

أحـــيـــيـــت نـــــدوة مـــعـــشرٍ   كـــانـــوا أســـاطـــين الـــفـــقـــاهـــة

وبـــعـــثـــتـــهـــم فـــأرتـــيـــنـــا   سرّ الأصـــالـــة والـــنـــزاهـــة

فـــاســـلـــم بـــجـــهـــدك يـــا (عـــلي)   فـــلـــم تـــزل رمـــز الـــنـــبـــاهـــة

٢٤/ ١١/ ٢٠١١م

٢٧/ ذي الحجة/ ١٤٣٢هـ

وكان خاتمة الجهد العلمي المتميز ببطل العلم المجاهد الشيخ محمد الجواد البلاغي (ت١٣٥٢هـ) والذي ترجمته مفصلاً في كتابنا (قادة الفكر السياسي والديني) وصهره الأستاذ الكبير محمد علي البلاغي صاحب مجلة الأعتدال الغّراء وكان عنوان الأسرة وابن النجف البار رحمه الله تعالى.

٣. أسرة آل الجزائري:

هذه الأسرة العربية العريقة التي انحدرت من الطبائح (الجزائر) في الجنوب الغربي من العراق بين أطناب العشائر، وعمائر القبائل، وقد بدأ نجمها بتلألأ بالشيخ المبرور الموفق: عبد النبي بن أسعد الجزائري (ت١٠٢١هـ) وهو من أهل العلم، وأمتدت هذه

الأسرة بالعطاء حتى القرن الرابع عشر الهجري، وكان الشيخ عبد النبي هذا: (علّامة وقته، كثير العلم، نقي الكلام، جيد التصانيف، من أجلّاء مجتهدي الطائفة).

وإزدادت شهرة هذه الطائفة بالعلم البارز، والمنار الشاهق، الشيخ احمد الجزائري قدّس سره صاحب(آيات الاحكام) في ثلاثة مجلدات، وقد توفق أحد تلامذتي بكتابة رسالة عنه في فقه القرآن، ونوقشت في كلية الآداب، كما وُفقت إحدى تلميذاتي بأعداد رسالة دكتوراه باللغة العربية وآدابها في كتابه (آيات الأحكام) بلاغياً ودلالياً.

وقد كانت شهرته تعني الانتساب اليه مباشرة كما كان يصنع العلم الحجة الشيخ محمد الجواد فإنه يكتب اسمه وإنتسابه هكذا: محمد الجواد آل الشيخ أحمد الجزائري، صاحب المؤلّفات الأنيقة في: فلسفة الإمام الصادقعليه السلام، ونقد الاقتراحات المصرية، وحلّ الطلاسم لأيليا أبي ماضي.

وقد توفّي (١٩٥٩م) أبان المدّ الفوضوي في العراق، فتحشّد الفوضويون لعرقلة مراسم تشييعه، وأعقبته بسنة وفاة أخيه الأكبر الحجة المجاهد، والعلم الوطني الخفاق الشيخ عبد الكريم آل الشيخ أحمد الجزائري عام (١٩٦٠م) وأقيم له مهرجان تأبيني عظيم في مسجد آل الجزائري، شارك فيه الشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ محمد مهدي كبه، والدكتور عبد الرزاق محي الدين والشيخ عبد الغني الخضري.

ورثاه كاتب هذه السطور بقصيدة أقامت الحفل وأقعدته ونُشرت ضمن ترجمتي له في كتابنا (قادة الفكر السياسي والديني في النجف الأشرف) ومطلعها:

فجعت بخطبك الجلل البلادا وأثكلت العقيدة والجهادا
لئن ظلموا علاك وانت حيٌّ فعند الموت قد ظلموا الجوادا

٤. أسرة آل الطريحي:

وبرزت أسرة آل الطريحي مكللّة بالغار في جمهرة من العلماء والأبرار والصالحين في القرن الحادي عشر الهجري إبتداءً من الشيخ المعظمّ محمود بن أحمد بن علي الطريحي (ت١٠٣٠هـ) وكان معاصراً للشيخ بهاء الدين العاملي الحارثي (ت١٠٣١هـ) وهو المرجع الأعلى، وإستمرت هذه الأسرة العريقة بالإفاضات العلمية والعطاء الثرّ أربعة قرون في التصنيف والتأليف، وإعلاء كلمة الله في الأرض، والذود عن شريعة سيد المرسلين وآله وصحبه الغرّ الميامين.

وقد إشتهر منهم شهرة ذائعة الصيت العالم الرباني والفقيه العملاق، ومفسر لغة القرآن العظيم، ذلكم هو الشيخ فخر الدين بن الشيخ محمد علي بن الشيخ أحمد الطريحي (ت١٠٨٥هـ) وله أكثر من مائة مؤلف في التفسير وعلوم القرآن والفقه والأصول واللغة والأدب والشعر والاحتجاج والفلسفة والآداب والفلك وفي أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكان ضليعاً ومتميزاً في علمي الحديث الشريف وأحوال الرجال.

وأشهر كتبه (مجمع البحرين ومطلع النيرين) جمع فيه لغة القرآن في معجم إحصائي ببلغرافي مستشهداً على كل مادة من اللغة بآية أو جزء آية، وبحديث أو أكثر فكان قاموساً لغوياً فريداً جمع بين حجية دلالة الألفاظ قرآنياً وحديثياً بما لم يُسبق إليه.

وقد أدركت من هذه الأسرة المرحوم المقدس الشيخ كاتب الطريحي (ولد ١٣٠٢هـ) وكان من أبطال معركة الجهاد ضد الإنكليز في الشعيبة مع بطل الجهاد والعلم والأدب السيد محمد سعيد الحبوبي (ت١٣٣٣هـ) وشارك في ثورة العشرين ضد الاستعمار البريطاني، وهو رجل قصير القامة، مشرق قسمات الوجه، جم التواضع، باسم الثغر، وكان يعتبرني أحد أصدقائهِ، وهو أكبر منّي بأكثر من خمسين عاماً وما ذلك إلّا من

تواضعه وإيمانه وأخلاقه العليا، وكان عالماً وأديباً وشاعراً، وإماماً لمسجده المعروف باسمه في سوق الكوفة الغراء قبل التعمير الحديث، وهو من المختصين بفقيد الشرق الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ) ومن المحبوبين سلوكاً وعواطف عند أكثر الناس في الكوفة والنجف الأشرف، وأنجب صديقي العزيز الأستاذ محمد كاظم الطريحي (ت ١٩٩٧م) مغترباً في أوربا، ونقل جثمانه الى الشام حيث دُفن في جوار عقيلة بني هاشم زينب بنت أمير المؤمنينعليه السلام وقد سرت في تشييعه باكياً متأثراً جداً، لم أتمكن من كتم عبراتي وجزعي عليه، وأقيم له حفل تأبيني كبير في هولندا ورثيته بكلمة إرتجالية منشورة في موسوعة (الموسم) التي يصدرها ولده الأستاذ الدكتور محمد سعيد الطريحي الذي خدم الأمة والعراق والتراث العربي الإسلامي في هذه المجلة السيارة التي أصدرها في خمسة وعشرين عاماً متواليه، بحلّة أنيقة، وإخراج جميل، وموضوعات قيمة في مختلف صنوف المعرفة.

والدكتور محمد سعيد عالم موسوعي وهو في ذروة شبابه وأول كهولته، وقد أغنى العربية ومكتباتها وتراثها بأكثر من مائة مؤلف في شتى الفنون والاغراض لاسيما في أحوال الرجال، ومتطلبات العصر، وإستقرارء المجهول، وإكتشاف الحقائق، فلّله درّه، وكثر الله أمثاله، فهو نسيج وحده علماً وأدباً وثقافة وموضوعيه وموسوعيه، وأخوته الأفاضل الدكتور محمد جواد الطريحي في إدارة العتبة العلوية المقدسة والأستاذ محمد حسين الصحفي والإذاعي المعروف، والشاب المتنور مهدي واخوه صادق سلمهم الله جميعاً، فقد أحيوا ذكر أبيهم وجدّهم بل وأجدادهم السابقين بكل ما هو أصيل ومبتكر.

إن مما يثلج القلب، ويحي الضمير أنهم يعملون بصمت وجدّية ونكران ذات لا يرجون إلا إعلاء كلمة الصدق في عصر فقدت به المقاييس إلا لماماً، وضاعت القيمّ إلا لواذاً وفقهم الله لما يحب ويرضى.

٥. أسرة آل أبي جامع:

وكانت أسرة آل أبي جامع الذين عرفوا مؤخراً بـ (آل محي الدين) فهم من أعرق الأسر العلمية في النجف الأشرف طيلة ثلاثة قرون متوالية، وكان جدهم الأعلى الشيخ الأجل الأكمل فخر الدين بن الشيخ نور الدين علي آل أبي جامع، أو أبن أبي جامع، مؤسس هذه الأسرة الشريفة في النجف الأشرف، وفي النبطية في لبنان على حد سواء كما ذهب الى ذلك السيد الأمين[1].

وقد توفّي الشيخ فخر الدين هذا بعد عام (١٠٢٥هـ) وفي القرن الثاني عشر ومنتصف القرن الثالث عشر كان في الأسرة أكثر من ثلاثين طالب علم، وشاعر، وأديب، وكلهم من رجال الدين.

وقد جمع أحوالهم وتراجمهم صديقنا وأستاذنا العلامة الدكتور عبد الرزاق محي الدين (ت ١٩٨٣م) في كتابه القيّم: (الحالي والعاطل) تكملة آمل الآمل، وترجم لأغلب افراد الأسرة أهل العلم، وعبر عنهم بـ (الحالي) والكسبة والتجار وعبر عنهم بـ (العاطل).

وكان الدكتور عبد الرزاق وهو شرف الأسرة في أيامه الأخيرة، رئيساً للمجمع العلمي العراقي، وأميناً للقيادة السياسية الموحدة بين مصر والعراق، ووزيراً للوحدة والدولة، وأستاذاً في كليه التربية والفقه، وقد إحتفلت النجف الأشرف في مهرجان أقيم في قاعة جامعة الكوفة بجهودنا وإشرافنا بمناسبة مرور (١٠٠ عام) على ولادته، وعشرين عاماً على وفاته، عام (١٤٢٢هـ) وقد كتبت عنه بحثاً في كتابنا (هكذا رأيتهم) ورثيته بقصيدة من الأعماق تليت ونشرت في عدة صحف وكتب.

(١) ظ: محسن الأمين الحسيني العاملي / أعيان الشيعة ٤٢/ ٢٧٠.

وكان آخر من أدركناه من علماء هذه الأسرة الروحانيين العالم، الشاعر، الأديب، الزعيم، الشيخ قاسم محي الدين (ت١٩٥٧م) وله ديوان عامر يجتمع فيه المراجع العظام، والعلماء الأعلام، والشعراء، والأدباء، وكنت أحضره.

وكان رجلاً متواضعاً، بسيطاً، مرحاً، إنساناً جمع مكتبه كبرى، وله آثار عديدة، وله مواقف محمودة وله نوادر سائرة، ومن نوادره أنه أراد طبع ديوانه (الشعر المقبول في مدح آل الرسول) فذهب هو والأستاذ جعفر الخليلي رحمه الله الى الشيخ محمد رضا الشبيبي، وطلب اليه أن يقرض الديوان حتى يطبعه، فقال له الشبيبي، وهو العالم الظريف الوقور المتزن أكتب:

يـا قـاسـماً يـا أبـن أبي جـامـع … يـا مـن أتـى الأشـعـارَ مـروّيـهْ

أحـسـن مـا فـيـهـا عـلى مـا بهـا … أنـك فـيـهـا حـسـنُ الـنـيـهْ

فشكره وفرح، فقال له الأستاذ جعفر الخليلي أن الشيخ الشبيبي قد ذم شعرك في البيت الثاني بقوله (على ما بها) فقال أعلم بهذا، ولكنني سأعطيها للمطبعة، وتطبع:

أحـسـن مـا فـيـهـا عـلى حسنهـا … أنـك فـيـهـا حـسـن الـنـيـهْ

ثم قال: من يقرأ؟ ومن يكتب؟ ومن يدري؟ وهكذا كان وآنس الشيخ الشبيبي كثيراً على هذا التغيير الذي قلب الهجاء مدحاً.

وأصبح أبناء هذه الأسرة الكريمة كلهم من التجار والكسبة، ولماّ رأى ذلك المرحوم الدكتور عبد الرزاق محي الدين رغب الى سميه رزاق جعفر محي الدين، وأن يعتمر أكبر أبنائه العمامة فأستجاب لذلك، وأعتمرها الشيخ نزيه عبد الرزاق محي الدين، وهو من فضلاء الحوزة، ومن المجدين في اكتساب العلم والمعارف الدينية والإنسانية.

ويعتبر الآن زعيم الأسرة والده عبد الرزاق، وهو من أهل الإحسان والمعروف، وخدام الحسينعليه السلام والشعائر الإسلامية، ومن الباذلين بذلك أمواله وجاهه ووجوده الأجتماعي.

وهو صديقنا المخلص، ومن الوجوه الأجتماعية البارزة في النجف الأشرف، كريم النفس، شريف الأخلاق، سمح العشرة.

أما أولاد الدكتور عبد الرزاق محي الدين رحمه الله فهم ملء السمع والبصر أكبرهم الأستاذ الدكتور زهير والأستاذ الدكتور علي، والأستاذ أوس، والأستاذ محمد، وقد أمسكوا بزمام المبادرة في ديوان أبيهم وإستقباله كل ثلاثاء من كل أسبوع، وهو الندوة الأدبية التي إستمرت أكثر من ستين عاماً منذ تأسيسها.

٦. أسرة آل الخمايسي:

ومن أعلام النجف الأشرف في القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر أسرة آل الخميسي إبتداءً من الشيخ المعظم، والعالم المبجل الشيخ عبد علي الخمايسي (ت١٠٨٤هـ) وهو رأس هذه الأسرة النجفية المعروفة وزعيمها، وهو من أهل العلم والعرفان، فقيه، أصولي، محدّث.

وولده الشيخ حسين الخمايسي من علماء القرن الثاني عشر عرف بالعلم والتقوى والمعروف.

وكان آخرهم ممن أدركناه العلامة الكبير الشيخ محمد علي الخمايسي النجفي (ت١٣٨٣هـ)، وقد كان تلميذ الآية الكبرى الشيخ محمد رضا آل ياسين (ت١٣٧٠هـ) ومن أبرز رجال الدين في النجف ذو أخلاق مرضية، وصلات كثيرة.

وقد أجيز أغلب آل الخمايسي بالاجتهاد المطلق أو المتجزئ، وتشرفوا بإجازة العلماء بالرواية طيلة ثلاثة قرون وأنحسر المجد العلمي - اليوم - عن هذه الأسرة، باستثناء شاب معمم منهم رأيته في سوريا، ولا أعرف أسمه.

وهكذا نجد أقطاب الأسرة النجفية التي إستمرت متوالية العطاء والزخم العلمي في القرن الحادي عشر، ممتدة بذلك الى عدة قرون، وقد إستنجدنا بما ذكر من هذه الاسر على من لم نذكره ليكون ذلك على سبيل الاختصار والإيجاز غير المخلّ، فليس هذا البحث أحصائياً بقدر كونه على سبيل الأنموذج الأرقى للأسر والمثال على ما نريد طرحه.

٧. أسرة آل الخرسان:

من الأسر النجفية المعروفة بالعلم والورع والتقوى، ينتهي نسبها الى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، سكنت النجف الأشرف منذ عهد مبكر في القرن السابع الهجري والى اليوم، والأسرة في النجف تضم بين جنبيها ثلاثة أجنحة:

أ. جناح خدمة الروضة العلوية المقدسة بفرامين عثمانية في القرن الثاني عشر الهجري وأوائل القرن الثالث عشر.

ب. جناح من الكسبة والتجار ممن يعمل في المهن الحرة داخل النجف وخارجها، وبعضهم يمتهن الزراعة ما بين كربلاء والنجف، وتمتد الأسرة بهذا الملحظ الى بعض القصبات المحيطة بالنجف الأشرف.

ج. جناح علمي آثر طلب العلم الشرعي والمعارف الإسلامية على الدنيا، وبرز منهم العلماء الأعلام والأفاضل الأمثال لاسيما في القرن الثالث عشر الهجري.

وعلا صيت الأسرة العلمي بالحجة الكبير السيد حسن بن السيد علي بن السيد شكر (ت ١٢٦٥هـ) في النصف من رجب. وكانت وفاته ببغداد، وكان قد هاجر اليها بطلب من

أعيان العاصمة العراقية، وتشير الوثائق أنه كان رجلاً جزلاً ذا تفكير صائب، فحين برز في علمه وتجلت براهين فضله، رأى العلم عملاً فهاجر لمضارب خزاعة مما يلي الديوانية وأطنابها، فعمرّ مدرسة علمية قصدها رواد العلم من أبناء العشائر العربية، وجدوّا في الأشتغال والطلب والتحصيل، ورجع بهم المترجم له الى مدينة العلم والعلماء: النجف الأشرف، وكانوا نواة صالحة لهجرة علمية منظمة من الحسكة والرماحية وقصبات تلك النواحي الى النجف الأشرف.

ولدى وفاته في بغداد، وكان أحد علمائها -كما أسلفنا - شُيع الى النجف الأشرف في السادس عشر من رجب (١٢٦٥هـ)، و دفن في حجرة آل الخرسان في الصحن الحيدري الشريف الواقعة جنب أيوان السيد محمد سعيد الحبوبي (ت١٣٣٣هـ) والشيخ باقر القاموسي (ت١٣٥٢هـ) وهي مقبرة الأسرة حتى اليوم، وأقيمت له الفواتح ورثاه جملة من شعراء عصره وفصل ذلك الاستاذ الدكتور علي خضير حجي في ترجمته للاسرة عند تقديمه (لفهرس مخطوطات آل الخرسان)[١].

وخلّف ولده العلامة السيد عباس، فكان نعم الخلف لخير سلف، إذ تسنم مركز أبيه في بغداد داعياً الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وبرز فيهم العالم الشاعر السيد جعفر السيد أحمد الخرسان المولود في النجف في (٧/ ذي الحجة / ١٢١٦هـ)، وكان شاعراً مجيداً، وأستحسن في شعره - وهو من قديم ما أحفظ - قوله وقد بنى داراً منظورة:

ومن المروءة للفتى ... بنيان دار فاخرة
فإذا أستتم بناؤها ... فليبنِ دار الأخرة

(١) ظ: الدكتور علي خضير حجّي/ نفائس وأعيان مخطوطات آل الخرسان/ ٢٦.

ونشأت في الأسرة طبقات من الفضلاء وأهل العلم كالسيد موسى السيد أحمد، والسيد موسى بن السيد حسن الخرسان (ت ١٣٢١هـ) والسيد محمد حسين بن السيد حسن (ت١٣٢٢هـ) في طاعون النجف، ودفن في مقبرتهم، أعقب ثلاثة من الإعلام:

- السيد عبد الكريم.
- السيد عبد الرضا.
- السيد عبد الرسول.

فالسيد عبد الرسول من العلماء الأجلاء والأتقياء المعروفين في عباداته ومبراته، وهو ممن شارك في حركة الجهاد بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي سنة (١٩١٤م)، وقد هيّج هو وأخوة السيد عبد الرضا عشائر السماوة وتلك الأطراف، دفعاً بهم الى الدفاع عن بيضة الإسلام (ت١٣٦١هـ) وأنجب ولد العالم الجليل ذا الخلق الرفيع السيد محمد صالح الخرسان، وهو من ألصق أصدقائنا وأصدقهم، نشأ نشأة علمية، وتخرج في بحثي الإمام السيد محسن الحكيم والإمام السيد أبو القاسم الخوئي، وله مواقف مشهودة في محاربة المبادئ الهدامة ومكافحة الطائفية، هاجر من العراق أيام حكم الطاغية، وعاد بعد السقوط الى وطنه، وتوفي في (٩/ ربيع الأخر/ ١٤٢٦هـ).

وأدركتُ في عصرنا هذا العلّامة الحجة السيد حسن بن السيد عبد الهادي بن السيد موسى بن السيد حسن الكبير.

ولد في المحرم (١٣٢٢هـ)، ونشأ على أبيه وفي ظل العلماء الأعلام وحضر أبحاث المراجع: السيد أبو الحسن الموسوي والشيخ محمد الحسين النائيني والشيخ ضياء الدين العراقي وأضرابهم، وهو من الأتقياء البررة والعلماء العاملين، ويُعدّ من مشايخ التحقيق لاسيما في كتب الحديث والرواية، وقد حققت منها:

أ. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) في أربعة مجلدات.

ب. تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) في عشرة مجلدات.

ج. كتاب الأستبصار للشيخ الطوسي أيضاً في أربعة مجلدات.

وهو كما يعرفه الناس على جانب عظيم من الزهد والجدّ في العمل، وترويض النفس سلوكاً ومجاهدة، وهو أحد أئمة الجماعة في الحرم الحيدري الشريف، وقد التزم منذ شبابه الأول بزيارة الأمام الحسين عليه السلام في ليالي الجمع والمواسم المخصوصة.

وكان على هيبته يرتدي ثوباً أسود ويحمل قربة الماء في العاشر من محرم في الصحن الحسيني ويسقي الزائرين الماء.

وكان خشناً في ذات الله، لا تأخذه في الحق لومة لائم.

توفي في (١٢/ جمادي الأولى/ ١٤٠٥هـ)، وخلّف الأخوين العلمين السيد محمد مهدي والسيد محمد رضا آل الخرسان، وهما من العلماء الأعلام.

ولد السيد محمد مهدي الخرسان في (٩/ رجب/ ١٣٤٧هـ) ونشأ على أبيه نشأة علمية مهذبة، وحضر عند السيد محمود الحكيم السطوح العالية، ولازم بحث الإمام الخوئي خارجاً.

وله من الأعمال المعرفية ما يربو على أكثر من ستين عملاً معرفياً ما بين تأليف وتحقيق وتقديم وتعليق، وولده السيد صالح من فضلاء الحوزة العلمية.

وولده صديقنا الحميم العالم الرباني والفقيه المحقق السيد محمد رضا الخرسان ولد في النجف الأشرف عام (١٣٥٠هـ)، وهو من إبرز تلامذة السيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي والسيد عبد الهادي الشيرازي، وأكبّ على التحصيل في مقدرة فائقة وهمة عالية، وهو أكبر من أن أصفه، أشهر من أن أعرفه، كان وما يزال بعيداً عن الأضواء، ولا يرضى بمنحه أية صفة مضخمة، فهو ممن يزهد بالكثير من أعراف الزمان، وكم له

من أثار علمية وتقريرات مهمة يأبى طبعها حذر الشهرة.

وللسيد محمد رضا هذا عدّة أولاد من أهل الفضل والمعرفة كان أكبرهم السيد محمد جواد، وقد أعدمه الطاغية عام (١٩٨٢م).

وولده السيد محمد هادي من العلماء والمحصلين، ويحمل الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، وهو مسؤول عن المكتب الشرعي للسيد السيستاني في بيروت.

أماّ ولده السيد محمد صادق فهو من مفاخر الحوزة العلمية في النجف ومن أساتيذها المعروفين، يدرس خارجاً فقهاً وأصولاً، وله بحث عالٍ في الحديث الشريف رواية ودراية. وقد أصدر أكثر من عشرين مؤلفاً، وهو بعد في عنفوان الشباب.

***

الفصل الثالث

مرجعيّة النجف الأشرف بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر

- أعلام القرن الثاني عشر .
- مراجع القرن الثالث عشر .

أعلام القرن الثاني عشر

وفي القرن الثاني عشر الهجري برزت كوكبة متألقة من الفقهاء الأعاظم والعلماء الأعلام، وكان قسم كبير منهم قد آلت إليه المرجعية العليا في عصره، وكان أبرزهم:

١. الشيخ محمد باقر المجلسي (ت١١١١هـ).

٢. الشيخ أبو الحسن الفتوني (ت١١٣٨هـ).

٣. الشيخ أحمد الشيخ إسماعيل الجزائري (ت١١٥٠هـ).

٤. الشيخ يوسف البحراني (ت١١٨٦هـ).

٥. السيد صادق السيد علي الفحام (ت١٢٠٥هـ).

٦. الشيخ محمد باقر بن محمد أكمل الوحيد البهبهاني(١٢٠٨هـ).

ونظراً للظروف المتقدم ذكرها، سأوجز الحديث عن كل واحد منهم:

١. أما المجلسي محمد باقر المتوفَّى (١١١١هـ) والمعبّر عنه بالمجلسي الأبن فهو صاحب (موسوعة البحار) المسماة بـ (بحار الأنوار) في (١١٠) مجلداً، وقد جمعت أحاديث الإمامية الشاردة والواردة، والآثار المروية، والنوادر العلمية المنتظمة، والقصص ذات المغزى الديني والوعظي والإرشادي، وسيرة النبي ﷺ والأئمة الأثنى عشر عليهم السلام وكثير من الصحابة والتابعين، والعلماء والمحدثين، والأبرار والصالحين، مما ذكره وسطره، وفيه ثروة علمية هائلة، وهو دائرة معارف موسوعية، وبحرُ من الفيض المعرفي لا تدرك سواحله.

وقد هاجر الشيخ المجلسي الى النجف الأشرف عام (١٠٧٢هـ) ودرس على علمائها، وأخذ عنهم[١].

كما حضر جملة من دروس مراجع النجف الأشرف، وفي طليعتهم:

- المولى محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي.
- السيد أمير شرف الدين علي الشولستاني النجفي، وقد عبَّر عنه المجلسي بالقول (شيخنا).
- السيد رفيع السيد حيدر الحسني الطباطبائي[٢].

ولقد عدُّه الأستاذ دونلدس: آخر علماء العهد الصفوي، (وكان دقيقاً في درسه، ويمتاز بكونه يرى وجوب إفهام الناس دينهم بلغتهم)[٣].

وهذا تنبيه جليل الخطر وعظيم الأثر أن يتنازل كل عالم الى طبقات الشعب المختلفة لأفهامهم دينهم وشريعتهم باللغة التي يعرفونها ويفيدون منها.

ويبدو أنه كان واسع العطاء كما كان موسوعياً في البحار، فقد تتلمذ على يديه جملة كبيرة من أعلام النجف، عدا الفضلاء والأجلاء، وكان عدد هؤلاء قد تجاوز الثلاثين علماً[٤]، وقد بلغت مؤلّفاته عدا (بحار الأنوار) أكثر من خمسين ومائة كتاب في التفسير، وعلوم القرآن، والحديث الشريف، والفقه والأصول، والفلسفة والحكمة، والجدل وعلم الكلام، والفلك، والأدعية والزيارات، والكمالات النفسية وسواها مما نصّ على

---

(١) ظ: المجلسي/ بحار الأنوار ١٠٠/ ٢٥٦.

(٢) ظ: محسن الأمين الحسيني العاملي/ أعيان الشيعة ٢٥/ ٢١٠.

(٣) ظ: دونلدسن/ عقيدة الشيعة/ ٣٠٢.

(٤) ظ: البحراني/ لؤلؤة البحرين/ ٩٠+ الخوانساري/ روضات الجنات ٢/ ٧٨ + محسن الأمين/ أعيان الشيعة ٥/ ١٢٧ + المحقق أغا بزرك في عدة أجزاء من الذريعة.

أغلبها الحر العاملي في (آمل الآمل) وأغا بزرك في (الذريعة) وسواهما.

٢. وأما الشيخ الأكبر أبو الحسن الفتوني (ت ١١٣٨هـ) فقد كانت دراسته في النجف الأشرف على يد مراجعها، وأبرز علمائها، وكان عدة من تتلمذ عليهم من العلماء الأعلام أكثر من خمسة عشر علماً[١].

وهو عدد كبير بالنسبة للأساتيذ، إذ جرت العادة أن يختصَّ الطالب المتميز بثلاثة أو أربعة أو خمسه من المشايخ، وقد تتلمذ عليه، وتخرج في مدرسته أكثر من عشرة أعلام من النجف الأشرف[٢]، ويقتضي أن يكون هؤلاء الأعلام بهذا العدد هم علية القوم، وهو جدّ المرجع الأعلى في عصره الشيخ محمد حسن النجفي (ت١٢٦٦) لأن أم والدته بنت الشيخ الشريف أبي الحسن الفتوني، وأسمها (أمنة بنت فاطمة)[٣].

وقد أبقى لنا ثروة طائلة من المؤلفات القيّمة في التفسير والفقه والأصول والحكمة وعلم الكلام والتأريخ، والحديث، والرجال وقد تجاوز عددها الثلاثين مؤلّفاً كما نصّ على ذلك علماء الإحصاء والبيلغرافيا لأطاريح الكتاب العلمي، وفي طليعتهم السيد حسن الصدر والشيخ أغا بزرك.

٣. وأما الشيخ أحمد بن الشيخ إسماعيل الجزائري (ت ١١٥٠هـ) فقد ولد في النجف الأشرف، وتخرّج في مدرستها على يد العلماء الأعلام، وقد جدّ في التحصيل العلمي حتى أصبح من أكبر مجتهدي عصره، وعاد فقيه النجف الأشرف دون منازع كما قال مترجموه[٤].

---

(١) ظ: محمد حرز الدين/ معارف الرجال ١/ ٤١-٤٢.

(٢) ظ: محمد حرز الدين/ معارف الرجال ١/ ٤١-٤٢.

(٣) ظ: حسن الحكيم/ المفصل ٥/ ٣٧٩٨ وأنظر مصدره.

(٤) ظ: محمد علي اليعقوبي/ مجلة العرفان الصيداوية ٩/ ٣٥/ صيدا/ ١٣٦٧هـ.

وقد تخرّج على يديه طائفة كبيرة من علماء النجف الأشرف، وعُرف بل أشتُهر بكتابه (قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر) وأنا أحتفظ بهذا الكتاب في مجلّداته الثلاثة منذ خمسين عاماً. وقد وُفقت للأشراف على رسالة دكتوراه على هذا الكتاب القيم في كلية الفقه في النجف الأشرف بعمادة الدكتور صباح عنوز.

وللشيخ أحمد الجزائري عدة مؤلفات في التفسير وآيات الأحكام والحديث الشريف والفقه والأصول وسواها، وقد تجاوزت العشرين. وقد سبقت ترجمة الشيخ الجزائري قبل صفحات معدودة حينما ذكرت أسرة آل الجزائري

٤. وأما الشيخ يوسف بن أحمد البحراني (ت١١٨٦هـ) فقد ولد في البحرين في أسرة شريفة، وهاجر الى النجف الأشرف، والتقى بعلمائها، وألّف فيها كتابه (لؤلؤة البحرين) وهو من كبار العلماء البارزين والمحقّقين، ومن المحدثين العلماء المنصفين، ومن أشهر مشايخ الأخباريين إعتدالاً، ثم هاجر الى كربلاء المقدّسة عام (١١٦٩هـ) وبقي فيها مكافأً ومناضلاً في سبيل العلم حتى وفاته.

وكانت بينه وبين زعيم الأصوليين الوحيد البهبهاني مودّة خالصة، ومباحثات قيّمة، ومناظرات دقيقة، وقد ساد بينهما التآخي الى درجة عالية، وكل منها يمثّل اتجاهاً فقهياً عقلياً معيناً، والذي يبدو أنه خلاف لفظي لا جوهري، وإنما صخّمهُ سواد الطرفين، وجهلاء الفريقين، أمّا العلماء الأعلام فلا يخوضون الى في ضوء الحجة والدليل والبرهان بعيداً عن التعصُّب الأعمى، على أن الشيخ يوسف البحراني يميل الى بعض آراء الأصوليين، ويخالف فيها الأخباريين كما في مقدّمات (الحدائق الناضرة).

وبإمكان تسليط الضوء على الخلاف القائم بين الأصوليين والأخباريين بالشكل الواضح الاتي: يرى الأصوليون أن إستناد الأحكام في الاستنباط على أدلّةٍ أربعة:

أ. الكتاب.

ب. السنة.

ج. العقل.

د. الأجماع.

ويرى الأخباريون أن الأدلة أثنان: (الكتاب والسنة)، ويرفضون دليل العقل بحجة (إن دين الله لا يُصاب بالعقول).

وإن الاجماع إن كان مشتملاً على قول المعصوم أو فعله أو تقريره فهو من السنة، وإن لم يشتمل على ذلك فلا اعتبار بجماع الناس على شيء، لا يكشف عن رأي المعصوم بالذات. ومهما يكن من أمر، فقد عانى الشيخ يوسف البحراني الكثير في حياته، فما غادر البحرين حتى أُحرقت مكتبته وغادر الى خمين فوقع شيء من الصراع المذهبي هناك فأُحرقت مكتبته، وغادر الى مدينه وأخرى حتى أنتهى به المطاف الى همدان، فاندلعت فيها فتنة وأحرقوا مكتبته، وهو بين ذلك يحمل ما أنجزه من كتابه العظيم (الحدائق الناظرة في فقه العترة الطاهرة) وطبعته الأولى حجرية، وقد طبعه محقّقاً في عشرين مجلداً العالم الرباني أستاذنا الفقيه الشيخ محمد تقى الإيرواني (قدس سره).

وقد أشتهر المقدّس البحراني بهذا الكتاب شهره مستفيضة، فيقال (صاحب الحدائق) وقد أبقى لنا ثروة علمية طائلة في أكثر من ستين مؤلفاً في الحديث الشريف ورجاله والفقه والتأريخ وعلم الكلام.

توفي الشيخ البحراني عام (١١٨٦هـ) في كربلاء المقدّسة، وصلّى عليه الوحيد البهبهاني ودُفن في الحائر الحسيني عند أرجل الشهداء عليهم السلام.

٥. وأما السيد صادق الفحام (ت: ١٢٠٤هـ) فقد ولد في قرية الحصين أحدى قرى الحلة الفيحاء، وهاجر في أول شبابه الى النجف الأشرف، وتتلمذ على الفحول من علمائها، والبارزين من أساطينها وفي طليعتهم السيد محمد مهدي بحر العلوم (ت١٢١٢هـ) والشيخ خضر الجناجي المالكي وولده الشيخ جعفر صاحب (كشف

الغطاء) ونبغ في العلم والأدب، فكان محققاً وفقيهاً وشاعراً وأديباً كما وصفه الحجة الشيخ محمد حرز الدين[١].

وقد عبَّر عنه الإمام كاشف الغطاء بأنه: (كان من العلماء الأعلام والشعراء العظام)[٢].

والحق أن الشعر طغى على سمعته العلمية حتى عرف بأنه من أكابر الشعراء، بينما هو من العلماء الأجلاء وله في الفقه (شرح شرائع الإسلام) أشتمل على كتاب الطهارة والصلاة حتى صلاة الفطر، وأبقى من المؤلفات - عدا ديوان شعره - حوالي عشرة كتب في اللغة والنحو والأدب والتأريخ الشعري.

وله في النحو كتاب (ألفية أبن مالك شرح ابن عقيل) حققه أحد تلامذتنا في كلية الآداب ونال به شهادة الماجستير بدرجة الامتياز.

والصدى الشعري للسيد صادق الفحام غلب على صداه في الفقه والأصول والشريعة، لأنه شاعر كبير بأعتراف شعراء عصره، بما فيهم الشيخ كاظم الأزري، صاحب القصيدة الأزرية المعروفة (لمن الشمس في قباب قباها) التي عثر على قسم منها فنشره الحجة المحقق السيد حسن الصدر الكاظمي صاحب (تأسيس الشيعة لفنون الإسلام) وما نشره هو جزء منها، والباقي مفقود، والمعروف أنها الف بيت من الشعر الراقي، حتى أن الشيخ صاحب الجواهر (قدس سره) تمنّى أن يكون ثوابها له، وثواب الجواهر للأزري.

٦. الوحيد البهبهاني: الشيخ محمد باقر بن محمد أكمل (ت١٢٠٥هـ) وكانت ولادته عام (١١١٧هـ) وينتهي نسبه الى أسرة عربية عريقة تتصل بالشيخ المفيد محمد بن

---

(١) ظ: معارف الرجال ١/ ٣٦٦.

(٢) محمد الحسين آل كاشف الغطاء / النسخة الخطية / ورقة ١٩.

محمد النعمان العكبري(ت ٤١٣هـ) هاجر الى النجف الأشرف في شبابه، واكب على الدرس والتحصيل، وتخرّج من مدرستها العلمية، وعلى أيدي الفقهاء العظام، ثم هاجر الى بهبهان فراراً من الاضطرابات بين أطراف النجف الأربعة وزعمائها وقبائلها المدرّبة على القتال في ما بينها، وهي محلّة العمارة، ومحلة الحويش، ومحلّة المشراق، ومحلّة البراق، ولا سبب أخر فيها يبدو لهجرته المقدّسة، وهذا أمر محتمل جداً وقد أشار لكثير منه المقدس الورع المرحوم الشيخ خضر شلال (١٢٥٠هـ) بكثير من التفصيل، ثم عاد الى كربلاء المقدسة زعيماً دينياً

وبهجرته الى كربلاء أصبح كبير علماء الشرق الإسلامي في عصره فقهاً وأصولاً ودراية وإجتهاداً وإستنباطاً ومرجعية عظمى، ولقد وصفه المحقق القمّي في هدية الأحباب: (١. بالمحقّق الثالث ٢. العلامة الثاني ٣. شيخ المشايخ)

وكان الأستاذ الأكبر لأساتيذ الحوزة العلمية القرن الثالث عشر الهجري، وهم على سبيل المثال لا الحصر:

- السيد محمد مهدي الطباطبائي، الملّقب (بحر العلوم) (ت ١٢١٢هـ).
- الشيخ جعفر الكبير صاحب (كشف الغطاء) (ت١٢٢٨هـ).
- السيد أحمد الحسني العطار البغدادي.
- السيد محمد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة.
- الشيخ محمد محي الدين حاكم النجف بأمر السيد بحر العلوم.
- الشيخ حسين نجف الزاهد العابد الورع إمام الجماعة.
- السيد محسن الأعرجي

والوحيد من حسنات الدهر، ولم يجد الزمان بمثله قريناً له، قضى كلّ أيامه بالتدريس والعمل الصالح، وقد ذكر له المحقق الشيخ أغا بزرك رحمه الله وطاب ثراه أكثر من

أربعين مؤلفاً قيماً في تخصّصاته المتعّددة لاسيما الفقه والأصول، والحديث والرواية والرجال، والفلسفة وعلم الكلام وذلك في أغلب أجزاء الذريعة الى تصانيف الشيعة.

وقبل الإشارة الى انتقال حوزة الشيخ الوحيد الى النجف الأشرف ينبغي الإشارة الى فحل من فحول العلم الإلهي والأخلاق، وهو الشيخ محمد مهدي بن أبي ذر النراقي (ت١٢٠٩هـ) من أبرز علماء النجف الأشرف تحصيلاً وإستقامة، وألمعهم فقهاً وأصولاً ودراية، وقد أربت مؤلفاته على الثلاثين مؤلفاً في الفقه والأصول والحكمة والموعظة والفلسفة والآثار وعلم الكلام، والهيئة والرياضيات وسواها.

وقد وصفه الخياباني بأنه من فحول فقهاء الإمامية، ومشجري علمائها، وجامعاً للعلوم العقلية والنقلية(١).

ولا يسعني التوسّع في ترجمته للأسباب المتقدّمة من سوء الحال والأحوال.

عصر السيد بحر العلوم والقرن الثالث عشر الهجري

وبوفاة الشيخ الوحيد البهبهاني (قُدّس سره) انتقل أغلب طلّابه الأعاظم عائدين الى النجف الأشرف (الوطن الأم) بقيادة فقيه آهل البيت عليهم السلام الزعيم الأكبر السيد محمد مهدي بن السيد مرتضى الطباطبائي المعروف بـ (بحر العلوم) (١١٥١- ١٢١٢هـ) وكانت هذه النقلة مرحلة جديدة من مراحل التطوير والتجديد والإزدهار والإنفتاح في تنظيم شؤون النجف الأشرف المرجعية والعلمية والأدبية والقيادية والاجتماعية.

(وقد كتبت هذا وما قبله وأنا في لبنان ولا مصدر لدي سوى ما يحمله المخزون المعرفي

---

(١) ظ: ريحانة الألباء ٤/ ١٨٦.

والثقافي من المعلومات وقد لا تفي بحق السيد بحر العلوم وحقبته المليئة بالحسنات الكبرى)[1].

أقول: يبدو أن السيد بحر العلوم كان على جانب عظيم من الأدراك المرجعي في تقييم مُهمات القضايا، ووضع الحلول والأطاريح لمشكلات العصر، وتخفيف أعبائها، فقد نظّم شؤون النجف المرجعية والعلمية والاجتماعية على نحو جديد بحيث يقف كل عند ما أُنيط به من أعمال، وما يؤديه من واجبات، وما يقدمه مِن اصطفاف مبرمج لأطروحة السيد بحر العلوم إذ قسّم الأعمال على الوجه الآتي:

١. الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء، أناط به الأفتاء والتدريس وإمامة الجماعة في مسجده الكبير في محلة العمارة.
٢. الشيخ حسين آل نجف (قُدّس سره) وهو من كبار الأبرار الصالحين، والعلماء المقدّسين. أناط به إمامة صلاة الجماعة في الصحن الحيدري الشّريف.
٣. الشيخ محمد محي الدين، وهناك من يقول أنه (الشيخ شريف محي الدين) أناط به حاكمية النجف الأشرف في القضاء والحكومة الشرعية.
٤. وتولّى السيد بحر العلوم نفسه القيادة العامة، والافتاء، والتدريس العالي، وتوحيد العلماء والحوزة، والفصل فيما بين الناس، وفضّ النزاعات والخصومة المعقدة، والتحكيم في معارك النجف الأدبية والشعرية، وفي عصره حدثت (معركة الخميس) الشهيرة وكان السيد بحر العلوم زعيم هيأة التحكيم فيها، حتى أستشهد قائلاً:

أنا افقه الشعراء غير مدافع ... فيه وإني أشعرُ الفقهاءِ

كنت في زيارة لأستاذنا المعظم السيد محمد علي الحكيم (قدس سره) (١٣٢٩هـ -١٤٣٤هـ) ودخلت عليه وفي يده كتاب خطّي، قال لي: أنظر أبا جعفر لهذه المصيبة!! قلت: وما هي؟ قال هذا الكتاب ألف وعمر السيد محمد مهدي بحر العلوم اثنان

(١) وذلك في شهر رمضان من عام ١٤٣٥هـ = تموز ٢٠١٤م

وعشرون سنة، والمؤلف ينصّ بالقول: قال ذو النفس الولوية السيد بحر العلوم فما هذا؟ ومعنى ذلك أنه ربيب القداسة والورع والتقوى منذ نعومة أظفاره وأول شبابه ولا غرابة بعد هذا مما تواتر نقله، وأستفاض الحديث عنه باجتماعه لصاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف وما جرى على يديه من ذلك في الأخبارات العجيبة واللمح الغيبي.

ومن مآثره سفره الى الحج، وأقامته ثلاث سنوات في مكة أستاذاً للدراسات العليا على مذاهب الإسلام كافة دون تعصُّب حتى أستولى على مشاعر الناس و قلوبهم، وله كرامة كبرى ما زالت قائمة حتى اليوم وذلك: أن الطواف تتضيق مساحته عند حجر إسماعيل فقد أخذ الحجر عشرين ذراعاً من الحد الشرعي للطواف، وبقيت ستة اذرع، وعلى الطائف في البيت لاسيما في الحج والعمرة ولصحّة الطواف أن يكون منكبه الأيسر باتجاه بنية الكعبة المشرفة، والأذرع السته غير كافية الأ مع الدقة لتحقيق هذا الشرط، فبنى السيد بحر العلوم (منارتين) من الجهة الغربية في البيت المحرّم بحيث ينظر اليهما الطائف في هذه الفسحة القليلة متوجهاً نحوهما فلا ينحرف عن البيت ومع العمارات المتعددة وتوسعة الحرم المكي خلال ثلاثة قرون، ولم تهدم المنارات حتى اليوم، وتركت على حالهن، وذلك من الأسرار الإلهية.

وكم من كرامة جرت له في السنوات الثلاث في مكة من التشرف بلقاء الحجّة عجّل الله فرجه قولاً وفعلاً وعطاء وتوجيهاً وإرشاداً.

وثمت نواحٍ أخرى، فقد أرشد الى قبري هود وصالح عليهما السلام في مقبرة السلام، ونقل البناية الى حيث هي الأن بتوجيه من الإمام عادة أو بتسديد رباني، وكذلك تعينه لمحاريب مسجد الكوفة الأغر، ومسجد السهلة المعظّم، أما مؤلفاته فحدث عن إبداعاتها ولا حرج، وبين يدي(الفوائد الرجالية) وقد طبع بتحقيق السيد صادق بحر العلوم والسيد حسين بحر العلوم في ثلاثة مجلدات.

أما كتابه (المصابيح) فهو من أروع الكتب الفقهية وقد أطلعت على نسخته الخطية الشريفة، وقد أراني إياها المغفور له السيد محمد كلانتر رئيس جامعة النجف الأشرف الدينية، وقد كتبت بخط واضح جميل في مجلد ضخم جداً ولا أعلم هل طبع الكتاب أم لازال خطياً .

لقد خطَت النجف الأشرف الى الأمام خطوات عملاقة في عهد السيد بحر العلوم (قدس سره) وبقي ذلك العهد مناراً يُستضاء به حتى مرجعية الشيخ الأكبر محمد حسن النجفي صاحب (جواهر الكلام) (ت١٢٦٦هـ) والتي تُمثّل نقلة نوعية في البحث الخارج وترسيخ مبدأ المرجعية بإطار متطّور وينبغي أن يشير بكل أعتزاز أن هذه الأسرة الشريفة ببركة جدهم الأعلى بحر العلوم، قد أنجبت الفقهاء والعلماء والشعراء، كالسيد رضا بحر العلوم وكالسيد علي بحر العلوم الكبير والسيد حسين بحر العلوم الكبير والسيد جعفر بحر العلوم طيلة ثلاثة قرون، وحتى القرن الرابع عشر الذي نبغ فيه السيد محمد تقي بحر العلوم، والسيد علي السيد هادي بحر العلوم (ت١٩٦٠م) صاحب المجلس الليلي اليومي حتى عام (١٩٩١م) الذي أخترم أولاده الأجلاء العلماء السيد عز الدين والسيد علاء الدين من قبل أجهزة الطاغية وذهبوا ضحية المبدأ والعقيدة مع خمسة عشر شهيداً من الأسرة في المقابر الجماعية وكان في الأسرة الشعراء، وفي طليعتهم السيد إبراهيم الطباطبائي بحر العلوم، والسيد موسى السيد جعفر بحر العلوم الذي ذهب أولاده شهداء في أحداث (١٩٩١م) وهو المعني بقولي:

لهفي على موسى بن جعفر   كيف أثكلها شبابا

من قصيدتي برثاء الأخوين علاء الدين وعز الدين بحر العلوم ومطلعها:

قمران قد بزغا وغابا   أفعودةٌ أم لا مآبا

والحديث ذو شجون

وزعيم الأسرة اليوم فخامة الدكتور العلامة محمد بحر العلوم نجل السيد علي بحر العلوم، وأولاده من مفاخر هذا الجيل:

الدكتور أبراهيم والأستاذ محمد حسين والعلامة السيد محمد علي بحر العلوم الذي أتمنى له مستقبلاً زاهراً في مسيرته العلمية في الحوزة النجفية المباركة.

مرجعية الشيخ الأكبر صاحب (جواهر الكلام)

هو الشيخ محمد حسن بن الشيخ باقر بن الشيخ عبد الرحيم بن الأمير محمد الصغير بن الشريف عبد الرحيم الكبير.

نابغة عصره بل العصور، ووحيد جيله بل الأجيال، مرجع الأمّة، ونائب الأئمة، منار العلم المتوهّج، وكوكب العزّ المتألق، مؤسس قواعد الشرع الشريف، ورافع لواء الملّة الغراء.

قال المحقق الميرزا حسين النوري (ت١٣٢٠هـ) متحدثاً عنه:

(مربِّي العلماء، وشيخ الفقهاء المنتهى اليه رئاسة الإمامة في عصره الشيخ محمد حسن بن الشيخ باقر النجفي صاحب كتاب: (جواهر الكلام) الذي لم يصنف في الإسلام مثله في الحلال والحرام)[1].

وهذا الرأي دقيق جداً إذ قام الشيخ الجواهري بجهد لم يقم به غيره، وبفضله وبفضل مؤلّفه كانت النجف الأشرف تعجّ بآلاف المهاجرين للدراسة في ضوء مدارك ومسالك ومعارف المرجع الأعلى (صاحب الجواهر) وبإشرافه شخصياً وبنفسه وحده على شؤون

---

(١) مستدرك الوسائل ٣/ ٣٩٧.

الدراسة والتدريس حتى بلغ النجف الأشرف في عصره الذهبي الى ذروة المجد العلمي الرصين، وقد أصبح ملاذ المجتهدين، وحاضرة الفقهاء الكبرى.

يقول الأستاذ الحجة الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٤) في هذا الصدد: (وكان شيخنا وأستاذنا العظيم الميرزا حسين النائيني (ت١٣٥٥هـ) يفتخر بأنه من تلاميذ مدرسته - يعني الشيخ الجواهري - وأن كّل ما عنده من تحقيق ومعرفة فهو فهم أسرار أراء الشيخ الأنصاري وتحقيقاته وعرضها عرضاً مبسّطا)[١].

والنائيني حينما يقول هذا فإن الشيخ الأنصاري (ت١٢٨١هـ) التلميذ المقرب لصاحب الجواهر، وهو الذي نصّ عليه بالمرجعية من بعده.

وهو يعد عنوان الأسرة الجواهريه، وقد ابتدأت شهرتها بكتابه (جواهر الكلام)، وبنوره ولألائه طار صيتها في الأفاق، وانتشرت آثارها في الإسلام، وتوطّدت أركانها في النجف الأشرف (واذا كان قصير النسب فهو المطوّل لمجد أسرته) وهو المجدد لهذا الذكر الشائع منذ عصره حتى اليوم، والمؤسس لمحتدها، والباني لصرح عزّها، وهكذا تكون الآباء عند صيانه الأبناء في طيب الأحدوثة، والفخر المتطاول، وقد كان صاحب الجواهر هذا الأب[٢].

وأخلاقه الفاضلة المحمدية، وملكاته العالية الملكوتية، وعنايته الفريدة بتربية تلامذته أبطال الحوزة العلمية الذين تبوّأوا بعده منصّة الزعامة الروحية المطلقة[٣].

وكل هذه المزايا هي التي خلقت منه الرجل كلَّ الرجل في إدارة شؤون الحوزة العلمية في درسها وإطعامها وإكسائها بالشكل المرفَّه الجديد الذي أختاره صاحب الجواهر، لأنه

(١) المظفر / مقدمة جواهر الكلام ١/ ٩ تحقيق الشيخ عباس القوجاني/ دار الكتب الإسلامية / طهران / ١٣٩٢هـ

(٢) ظ: المظفر / مقدمة الجواهر ١/ ٢ مع التصرف والأضاء والأضافة والآنارة

(٣) المرجع نفسه ١/ ٣.

أراد إظهار عزّ الإسلام، فكان يفيض على الطلاب بما يصله من أموال، وهو شخصياً يعتني بمظهرة وملبسه وهيأته، لأن الله اذا أنعم على عبدٍ نعمة أحبّ أن تظهَر عليه (كما تقول الرواية نصاً أو مضموناً) لهذا كان - بحسب المتجلّي من سيرته - أنيقاً رقيقاً رشيقاً، يلبس أفضل الملابس، ويعير اهتمامه للكيان الخارجي حتى يتعلّم الناس الأناقة واللياقة والنظافة وحسن المظهر.

ولا غرابة أن يكون بكلِّ هذه الشمائل، وفي حسن أدائه في التدريس، وفي حبه للخير وأغاثه الملهوفين، وفي تواضعه ذاتياً، قد بلغ هذه الرتبة العالية من التوفيق والذكر الخالد، وكان أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الجواهري ممن يتوسم به أن يتبوّأ سدة المرجعية، لانكبابه على الدرس والتدريس، وقد قُتل خطأ في شبابه المبكر، وهو في طريقه الى السهلة في إطلاقة خاطئة من قبل بعض المتدرّبين على السلاح بأمر الشيخ جعفر الكبير (ت١٢٢٨هـ).

ومن الطريف أن أمّه العلوية الفاضلة أسفت أن يكون ولدها الأكبر هو المقتول، ويبقى الأصغر (محمد حسن) على قيد الحياة.. اذ لم تتوسّم به النبوغ والعبقرية، وقد أقرّ الله عينها وأدركت ولدها الصغير وهو المرجع الأعلى للإمامية في العالم ببركة جواهر الكلام.

وقد قال المحقق النوري (حدثني الشيخ المتقدّم - الشيخ عبد الحسين الطهراني- عن بعض العلماء أنه قال: (لو أراد مؤرخ زمانه أن يثبت الحوادث العجيبة في أيامه لما وجد حادثه بأعجب من تصنيف الجواهر..).

وهذا من الظهور بمكان لا يحتاج اليه الشرح والبيان)[1].

---

(١) ظ: النوري / مستدرك الوسائل ٣/ ٣٩٧.

وهذا الرأي دقيق للغاية، فهو دورة فقهية استدلالية متكاملة في أبعادها كافة، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها في أصول الاستنباط ومدارك الأحكام الفقهية، وذلك لاشتماله على أمهات المسائل من جهة، ولتوسعه في آلاف الفروع من جهة أخرى مما لم يتوافر في كتاب غيره، فهو عدة المجتهد دون أدنى شك.

ولعل النية الخالصة والتوجّه الى الباري عز وجلّ، وقصد القربة المطلقة، كل أولئك ممن شارك في شموخ كتاب جواهر الكلام، فأنى له هذا؟ ومن أين استقى معلوماته تلك؟ ومن الذي أثر هذا الأثر في شخصيته الفذة وقلمه السيّال؟ أنهم أساتيذه الأجلّاء بعد توفيق الله عزّ وجل، وقد ذكر الشيخ نفسه في الجواهر إشارات لذلك، وقال مترجموه أنه تتلمذ في السطوح على الشيخ قاسم محي الدين (ت١٢٣٨هـ) وهو أحد العلماء الإعلام المدرسين كما يقول الحجة الشيخ المظفر، وتتلمذ على يديه أقطاب العلم في عصره، ويبدو أنه كان متخصصاً بتدريس السطوح، أما بقية أساتيذه فهم:

١. الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء (ت١٢٢٨هـ).
٢. ولده موسى بن جعفر مصلح الدولتين، والمرجع بعد أبيه (ت١٢٤١هـ).
٣. السيد جواد العاملي، صاحب مفتاح الكرامة (ت١٢٢٦هـ).
٤. السيد محمد المجاهد/ صاحب المفاتيح (ت١٢٤٢هـ).
٥. السيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي (ت ١٢١٢هـ) على قول.
٦. الوحيد البهبهاني محمد باقر بن أكمل (ت١٢٠٨هـ) على قول ضعيف.

وقد روى بالإجازة عن الشيخ أحمد الإحسائي (ت١٢٤٣هـ) وعن علماء آخرين تكفّلت كتب الرواية والإجازة بذكرهم.

وأما طلّابه وتلامذته فقد طبقت شهرتهم طول البلاد وعرضها، وهم يعدون بالآلاف، ويكفي للاستدلال أن نشير الى اثنين منهم في الطليعة وهما الشيخ مرتضى

الأنصاري والشيخ محمد حسن آل ياسين الكاظمي، وكلاهما من المراجع العظام من بعده، والى أثنين آخرين من كبار أئمة التقليد في النجف والعالم الإسلامي وهما: الميرزا حسين الخليلي، والشيخ محمد حسين الكاظمي، والى اثنين بلغا الشهرة في الفقاهة، هما السيد حسين الترك والسيد حسين حفيد السيد محمد مهدي بحر العلوم، والى اثنين ممن تبوّأ المرجعية المحدودة، وهما: الفاضل الإيرواني المعروف بالملا محمد الإيرواني، والسيد محمد الشهشهاني الأصفهاني، والى اثنين منهما عُرفا بتدريس البحث الخارجي العالي وهما: الشيخ عبد الرحيم النهاوندي، والمولى الشيخ علي الخليلي، والى اثنين منهما نالا سدّة المرجعية العليا، كان أشهرهما: الشيخ راضي النجفي جد الأسرة آل الشيخ راضي (ت١٢٩٩هـ) والميرزا حبيب الله الرشتي المرجع المدفون الى جنب الأخوند في الغرفة الأولى للداخل من سوق الكبير (باب الساعة) ومعهما السيد أبو الحسن الأصفهاني، والى اثنين منهما عُرفا بالتحقيق الدقيق والأبانة المطلقة وهما: الشيخ حسن بن الشيخ اسد الله الكاظمي صاحب كتاب المقابس، والشيخ جعفر التستري صاحب كتاب الخصائص الحسينية، والى اثنين من العلماء العاملين المقدّسين هما السيد ميرزا إبراهيم شريعتمداري السبزواري العلوي، والشيخ عبد الحسين الطهراني المعروف بـ (شيخ العراقيين) والى اثنين من البارزين بالأسماء اللامعة، وهما: الميرزا صالح الداماد، والشيخ حسن المامقاني.

أكتفي بهذا إذ لا تنتهي أثنانيات الشيخ صاحب الجواهر في تلامذته الفحول وهذا عندي من العجائب، وقد صّنفتهم بهذا الشكل الجديد بحسب ما توصل اليه فهمي القاصر.

وأما بقية طلّابه فهم بالآلاف، وقد حصل المئات منهم على درجة الاجتهاد.

مؤلفاته وآثاره:

أبقى لنا الشيخ الأكبر ثروة طائلة من الآثار العلمية في طليعتها بالطبع جواهر الكلام الذي حصل بجدارة وإستحقاق على هذه الشهرة في شرق البلاد وغربها.

وله كتاب معروف، وهو رسالته العلمية، (نجاة العباد) وعليها شروح وتعاليق من قبل تلامذته في القرن الثالث عشر حتى عصر السيد محسن الحكيم الذي سأل الميرزا النائيني (قدّس سره) عن بعض مطالبها، وأجابه عنها إستدلالياً كما في كتابنا (قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف[1].

ولصاحب الجواهر كتب، فيما يأتي أشهرها:

١. رسالة في الزكاة.
٢. رسالة في الخمس.
٣. رسالة في أحكام المواريث.
٤. رسالة في المواريث فرغ منها سنة (١٢٦٤هـ) وهي أخر مؤلفاته
٥. رسالة (هداية الناسكين) في مناسك الحج
٦. رسالة في الدماء الثلاثة: الحيض/ الأستحاضة/ النفاس
٧. كتاب في الأصول تلفت نسخته الوحيدة التي هي بخطّ المؤلِّف

(١) ظ: مبحث (الشيخ محمد حسين النائيني/ رائداً/ لكاتب هذه السطور).

مآثره :

للشيخ الأكبر مآثر كبرى أوجزها بما يلي:

١. مشروع إرواء النجف الأشرف بالماء بكري النهر المعروف بأسمة الواقع على يسار الذاهب الى الكوفة، وهو يتصل بمنبعه بأراضي بني حسن، وقد إندرس أثره، وأنطمست أعلامه، بعد أن نعمت به النجف مدة طويلة حتى عام (١٢٨٨هـ) على يد تلميذه السيد أسد الله الأصفهاني، والمرجع الديني في أصفهان، والذي بذل أموالاً طائلة حتى تكامل جري الماء.

٢. كان الشيخ الأكبر هو الذي أمر تلامذته ومحبيه ومقلديه أن تكون ليلة الأربعاء ليلة إستجاره في مسجد السهلة، وكان يخرج بهم ويهيّء لهم مستلزمات السفر والإقامة والمبيت تلك الليلة من الطبخ والفراش والمأكل والمشرب، والمتعة العبادية وترويح النفس، وقد رويت أحاديث طريفة (عن إجتماعات تلك الليالي وإحيائها نوادر وطرائف تعطي صورة لذيذة عما كان يجري فيها، وتشهد على ما كان يتمتع به الشيخ من روح عالية، ونفس كبيرة موجّهة وأبوّة شفيقة على طلّاب العلم)[1].

٣. بناؤه مأذنة مسجد الكوفة وضريح مسلم بن عقيل عليه السلام وصحنه وسوره ومرافقه على نفقة أحد ملوك الهند (أمجد علي شاه) وقد أرّخ بناء مأذنة المسجد والضريح الشيخ إبراهيم آل صادق العاملي بقوله:

واستنار الأفق في مأذنة — أذن الله بأن ترقى زحلْ
هج الذاكر في تأريخها — علناً حيّ على خير العملْ

(١٢٦٠هـ)

(١) ظ: محمد رضا المظفر/ مرجع سابق ١/ ٢١.

وله مآثر لا تُعد ولا تُحصى (قدس سره).

٤. ويبقى الأثر الخالد الجواهر الذي نقل عن تكملة آمل الآمل للسيد حسن الصدر الكاظمي نقلاً عن تلميذه، ومرجع عصره في الكاظمية المشرفة الشيخ محمد حسن آل ياسين أنه (صاحب الجواهر) قال له: (والله يا ولدي ما كتبته على أن، يكون كتاباً يرجع اليه الناس، وإنما كتبته لنفسي حين أخرج الى (العذارات)* وهناك أسئل عن المسائل وليس عندي كتب أحملها لأني فقير، فعزمت أن اكتب كتاباً يكون لي مرجعاً في الحاجة..)[1].

وقد ألّف هذا الكتاب ابتداءً وعمره (٢٥عاماً) وأنتهى منه عام (١٢٥٧هـ).

بقي أن أقول إن أسرة آل الجواهري أسرة عربية في الصميم ولا أستبعد أن، تكون ذات أصول لبنانية وهاجروا الى أصفهان نتيجة الضغوط العثمانية في حكوماتها المتغطرسة ضد أهل العلم من أتباع أهل البيت عليهم السلام في لبنان وعادوا الى النجف، وسجلوا بالتبعية الإيرانية وهم عرب أقحاح، حذار الجندية في قصة طويلة بعد إرغام الحكومة العثمانية على الموافقة، وقد ذكرها الشيخ المظفر في مقدّمته للجواهر.

ونُشير أن رسالة للدكتوراه سُجّلت في جامعة القادسية في قسم التاريخ منذ عشر سنوات تقريباً عن الشيخ صاحب الجواهر، على أن مصادر دراسته متوافره في مستدرك الوسائل، والكنى والألقاب، ونخبة المقال، وأعلام الشيعة، والذريعة والحصون المنيعة، ونظم اللئالي، وماضي النجف وحاضرها، والفكر الإمامي من النص حتى المرجعية ورجال الفكر في النجف وسواهما من المصادر الكثيرة.

(١) ظ: تكملة آمل الآمل/ ترجمة آل ياسين.

* الغذارات/ مناطق السادة العذاريين، وكان يسافر اليهم فيما يبدو، او انها قرية تقوم بواجبها الديني فيها.

وينبغي الإشارة أن هذه الأسرة ببركة جدها الأكبر صاحب الجواهر قد أنجبت الفقهاء والعلماء والمحققين والأساتيذ والمقدّسين والشعراء.

وكان أكبر أولاد الشيخ هو الشيخ محمد كانت تعقد عليه الآمال وتوفي في حياة أبية، وكان ولده الشيخ عبد الحسين[1]، يقيم الجماعة في مسجد آل الجواهري؛ بينما كان الشيخ الأكبر نفسه في مسجد الطوسي، وكان حفيدة الشيخ شريف من العلماء الأبرار وكان أبنه الشيخ عبد الرسول من المقدّسين الأعاظم، ومن المجتهدين العظام وولده الشيخ محمد تقي من أعلام الحوزة العلمية، وقد أستشهد على يد نظام الطاغية، ولم يعثر له على أثر وولدا الشيخ محمد تقي هما: الشيخ حسن والشيخ محمد وكل منهما من العلماء الأعلام، والشيخ محسن الجواهري صاحب شرح آمالي السيد المرتضى من العلماء المحققين والمؤلفين وهو والد العبد الصالح الشيخ محمد حسن الجواهري العالم/ الأديب/ الورع/ المقدس، وكان من أعزّ الناس لديّ.

والشيخ علي باقر بن الشيخ الأكبر كان من أعاظم المجتهدين، وهو أستاذ الأمام السيد محسن الحكيم.

والشيخ جواد صاحب الجواهر كان زعيم الأسرة في القرن الثالث والرابع عشر الهجري، وعنوانها في المجد والجهاد والتضحية وحامل راية أمير المؤمنين عليه السلام في الجهاد وضدّ الإنكليز (١٩١٤م) في جبهة الكوت وقد توفي (١٣٥٢هـ) وقد رثاه الأستاذ محمد مهدي الجواهري بقصيدة عصماء مطلعها:

هتفوا فأسندتِ اليدانِ ضلوعي   فشرقتُ بالحسرات قبل دموعي

ورثاه والدنا الشيخ علي الصغير بقصيدة مطلعها:

---

(١) هو غير والد شاعر العرب الأكبر الأستاذ محمد مهدي الجواهري، وهو من أكبر رموز الأسرة شهره في الوطن العربي (ت١٩٩٩م) عن مائة عام، ووالده عبد الحسين بن عبد علي بن صاحب الجواهر.

علـى رغـم يـؤبـئـك الـيراعُ　　فـلـيـس رثـاكَ ممـا يـسـتـطـاعُ

ومنهم الشيخ باقر الجواهري، وقد خلف الشيخ جواد بزعامة البيت إجتماعياً، ورثاه الجواهري(ت١٩٥٠م) وكنت حاضر التأبين والإمام كاشف الغطاء يستعيد: والمطلع:

بـقـلـبي أم بـنـعـشـك حـين مـادوا　　ودمـعـي ام رثـاؤك يـسـتـعـادوا

وبقية شبابهم فيهم الدكاترة والأساتذة والأطباء والمثقفون كثر الله من أمثالهم وقد اضطرتهم الحياة الاقتصادية الصعبة للوظائف والدراسة العصرية ومن أمثالهم في هذا الشيخ رؤوف والشيخ يحيى والشيخ عبد الغفار، ووجههم الاجتماعي المحبوب في النجف اليوم الشيخ إحسان حفيد الشيخ محسن الجواهري صاحب اللئالي ومدير مؤسسة آل البيت لأحياء التراث في النجف الاشرف.

مرجعية الأستاذ الأعظم مرتضى الأنصاري

الآية الكبرى الشيخ مرتضى بن محمد أمين الأنصاري(ت١٢٨١هـ) والانصاري نسبة الى الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري (ت٧٣هـ).

هو المرجع الأعلى الذي نص عليه الشيخ الأكبر صاحب الجواهر ومطوّر الدراسة في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، ومثال الزهد والورع والتواضع، وربيب القداسة والإنابة.

ولد في (دسبول) ونشأ بها، ولم يذكر تأريخ ولادته، وترعرع بين أحضان أبيه، وكان من العلماء الأجلاء.

درس المقدّمات وأكملها أتقاناً، والمقدمات في اصطلاح الحوزة أو المراد بها عند الحوزة: النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان، والفقه الفتوائي ثم درس الفقه الأستدلالي والأصول العالية.

هاجر - بصحبة والده - الى كربلاء فألتقى السيد محمد المجاهد، وحضر بحثه العالي، وكان قد تناول موضوع الجمعة وجوباً أو حرمة في عصر الغيبة، فأفاض الشيخ الأنصاري بما عنده وهو في العقد الثاني من العمر، وعرض للمسألة سلباً وإيجاباً، وأعطى أدلّة الحرمة وأدلة الوجوب، فأعجب به السيد المجاهد، وطلب الى أبيه إبقاء ولده في كربلاء، فأمتثل الأب أمر السيد، فبقي الأنصاري في كربلاء.

وحضر في دروسه عند كل من السيد المجاهد وشريف العلماء، فأفاد منهما إفادة تامة، وقد حالت الاضطرابات السياسية دون بقائه مستمراً في كربلاء على أثر أحداث (داود باشا) فغادرها الى الكاظمية مع طلبة العلم.

ثم سافر الى بلده (دزفول) وعاد الى كربلاء بعد سنتين ملازماً زعيم الحوزة العلمية آنذاك (شريف العلماء المازندراني) ثم غادرها الى النجف الأشرف وحضر بحث الفقيه الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء المصلح بين الدولتين وبعد رحلات عديدة بين خراسان وبروجرد، وأصفهان، وكاشان، وخراسان ثانية ودزفول عزم على مغادرة بلده الى النجف الأشرف عام (١٢٤٩هـ).

كانت السفرات والتنقل بين حواضر العلم، قد أكسبته خبرة وشهرة، ففي أصفهان التقى مرجعها الأعلى آنذاك حجة الإسلام السيد محمد باقر الشفتي[١]، وتباحث كثيرا

(١) صفة حجة الإسلام؛ إذا أطلقت عند الإمامية فالمراد السيد محمد باقر الشفتي وإذا أطلقت عند الجمهور فالمراد أبو حامد الغزالي. وهذا اللقب كصيغة منتهى الجموع عند النحويين، أي لا سمة ولا صفة، أعلافها في التكريم العلمي، وأنظر اليوم كيف تدهورت الحال، فأطلق هذا الوصف على كل من هبّ ودبّ.

معه، فأعجب السيد بعلمه وإستعداده الفطري، وقابلياته المؤهّلة له نحو الأجتهاد المطلق وفي كاشان إلتقى المولى أحمد بن مهدي النراقي الفقيه العرفاني، وتدارس معه الفقه والأصول، وقد حضر بحثه أربع سنوات متتابعة فأفاد منه إفادة تامة، وأجازه بالأجتهاد، وأجازه بالرواية عن أساتيذه قراءةً وسماعاً حتى الأتصال بالمعصومين عليهم السلام. ولقد قال عنه أستاذه النراقي هذا، لقد شاهدت في جميع أسفاري أكثر من خمسين مجتهداً مسلم الأجتهاد، ولم أر أحداً منهم كالشيخ الأنصاري في غزارة علمه وكثرة فضلة وطول باعه[1].

مغادرته الى النجف:

كان الشيخ الأنصاري في سياحته وتجواله بين البلدان، والتقاء العلماء الأعلام والدراسة لديهم من باب المقدمة للاستقرار في النجف الأشرف، وأخذ العلم من منابعه الأولى عند مدينة باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام (١٢٤٩هـ) كما أسلفنا.

في النجف الأشرف درس على الشيخ علي كاشف الغطاء خمس سنوات حتى وفاته عام (١٢٥٤هـ) كما درس عند الشيخ صاحب الجواهر في هذه الحقبة، ولكنه اختصّ به تماماً بعد وفاة كاشف الغطاء، فأفاد من علمه وفقهه بما تحدّثت به الركبان، وكان خاتمة أساتيذه الموسوعيين، وكان يجلس في بحثه آخر المجلس المعدّ للتدريس - ويحتمل أن يكون مسجد الشيخ الطوسي لإقامته الصلاة فيه؛ وبعد لم يبيّن مسجد الجواهري - ابتعاداً عن الشهرة. وعلى هذا فأساتيذه في سياحته وأسفاره وجولاته والنجف كالآتي:

١. الشيخ حسين الأنصاري/ في المقدمات والسطوح في دسبول.

---

(١) ظ: محمد كلانتر/ كلمة حول الشيخ الأنصاري/ المكاسب ١/ ٦٥.

٢. السيد محمد المجاهد بن السيد علي صاحب الرياض (ت١٢٤٢هـ) في كربلاء.

٣. شريف العلماء المازندراني (ت١٢٤٥هـ) في كربلاء.

٤. المولى أحمد بن محمد مهدي بن أبي ذر النراقي/ في كاشان.

٥. حجة الإسلام الشفتي في أصفهان/ لاحتمال أنه درس عنده في سياحته العلمية.

٦. الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء/ في النجف الأشرف.

٧. الشيخ علي كاشف الغطاء (ت١٢٥٤هـ) في النجف الأشرف.

٨. الشيخ الأكبر صاحب الجواهر (ت١٢٦٦هـ) في النجف الأشرف.

وهؤلاء جهابذة العلم، ومن على منابرهم تلألأ كوكب الشيخ الأنصاري فغمرت أشعته العيون، وأكبّ على العلم حتى بلغ أسنى المراتب.

وقد أُجيز بالرواية من قبل كلٍّ من:

- السيد صدر الدين الموسوي الكاظمي العاملي، جد الأسرة العريقة (آل الصدر).
- المولى الشيخ أحمد بن محمد مهدي النراقي.
- الفقيه الشيخ محمد سعيد القراجة داغي/ وهو من تلامذة الوحيد وبحر العلوم.

والالتزام مع هؤلاء الأساتيذ ومواصلة الدرس والبحث والتنقيب معهم، مضافاً الى التوفيق الإلهي من جهة، والاستعداد العلمي جهة أخرى، أقول: كل أولئك التي جعلت الشيخ محمد حسن الجواهري (صاحب الجواهر) أن ينص على مرجعية الشيخ الأنصاري مع وجود مئات المجتهدين في عصره بالنجف الأشرف والحواضر العلمية الأخرى فقد استدعائه عند مرضه فحضر فخاطب الجمع من العلماء قائلاً (هذا مرجعكم من بعدي) ثم خاطب الملا مرتضى: (قلل من احتياطاتك يا شيخ فالشريعة سهلة سمحة) وكان الملا مرتضى - آنذاك يدعى بها - كثير الاحتياط[1].

(١) ظ: محمد كلانتر / المرجع السابق ١/ ١١٨ بتصرف.

يقول الشيخ محمد رضا المظفّر في مقدمته لكتاب الجواهر في ضوء هذا الحدث:

دخل الأنصاري على صاحب الجواهر وهو ملا مرتضى، وخرج وهو الشيخ مرتضى[١]، وحينما تسلّم الشيخ الأنصاري هذا الأمر؛ كتب الى المولى سعيد العلماء المازندراني (ت١٢٧٠هـ) وهو في إيران، بما مضمونه أننا حينما كنا ببحث الأستاذ شريف العلماء كنتَ أنتَ الأعلم، فالواجب تقليدك، فأجاب: الأمر كما تفضلتم كنتُ الأعلم حينما كنت مشغولاً بالدراسة وأنا الأن مشغول بفض النزاعات وحل المشكلات والشؤون العامة. والواجب على الطائفة تقليدك، وتسلّمك زمام المرجعية[٢].

فقصد الشيخ مرقد أمير المؤمنين عليه السلام، فأستجار به داعياً أن يسدّده الله من الزلل ومهما يكن من أمر فقد تقلّد الشيخ الأنصاري زعامة الأمة، وأعتلى سّدة المرجعية، وتولّى قيادة الحوزة العلمية، وبذلك دأب على بناء الصرح الجديد لكيان النجف العلمي حيث تصدّى للبحث والتدريس العالي، وتخريج أساتذة الشرع الشريف فقهاً وأصولاً ورياضة أخلاقية، وعرفاناً، وحين تعهد بتربية جيل الشباب حتى يبلغ كلٌ منهم درجة الاجتهاد.

وفي أول عمل له بعد التدريس أن وضع الأموال والحقوق الشرعية والصدقات في مواضعها المفروضة في الكتاب والسنة.

وحين واظب على المستحبات - فضلاً عن الواجبات - فإنه يُريد أن يكون قدوة للآخرين في جزئيات حياته وكلياتها وله في هذا المناخ قصص وأحاديث وأمثال تدلّ على ورعة وتقواه، وتوصلك الى عوالم زهده النقي الخالص، وقد كتبت ودونت، واتخذت منهجاً لمراجع الأمة الأعلام فيما بعد ومن أبسط الاستدلال على ذلك أن يتبرع أحد المحسنين من مقلديه مبلغاً لشراء دار سكنى، فأخذ المبلغ وأشترى بها داراً وبيتاً لله تعالى وهو مسجده الكبير في (محلة الحويش) من له النجف وهو قائم حتى اليوم.

---

(١) ظ: محمد رضا المظفر / مقدمة الجواهر.

(٢) ط: الكنى والألقاب + نقباء البشر وسواهما في ترجمة الأنصاري + كلانتر ١/ ١٢٢

وبعد مائة عام من شرائه جُدد وعُمّر، وقد أُرخ تجديده، وأثنى على مؤسسه الشيخ محمد علي اليعقوبي بقوله:

ذا مسجدٌ أسسه المرتضى   وقام في توطيد أركانه
واليوم قد جدده معشرٌ   حضوا من الله برضوانه
على الهدى جدد أرخ كما   على التقى تأسيسُ بنيانه

(١٣٦١هـ)

وقد رقم هذا التاريخ بالقاشاني في مدخل جامع الشيخ الأنصاري.

تلامذته:

أجمع مؤرّخو حياة الشيخ الأنصاري أن تلامذته في كلّ دورة من الدورات قد بلغوا الألف من مختلف القوميات والبلدان وأصقاع الأرض، وان عدد المجتهدين الذين تخرجوا كانوا خمسمائة مجتهد، عدا أولئك المجتهدين الذين لا يتظاهرون بالاجتهاد في زمانه وكل الأزمنة، وفي هذا الضوء لا يمكن حصر أسماء أولئك من مختلف الجنسيات ولكننا نشير الى البارزين المعروفين ممّن نال درجة المرجعية تسنمها أو لم يتسنمها فهو مرجع بالفعل، وذلك أن عديدين من المراجع يبتعدون عن منصب المرجعية خوفاً وحذراً من تحمُّل هذه المسؤولية الكبرى. بين يدي الله عزّ وجل؛ ونقدم هذا الكشف بالطلاب نموذجاً:

١. المجدد السيد محمد حسن الشيرازي (ت١٣١٢هـ)

٢. الميرزا حبيب الله الرشتي (ت١٣١٢هـ)

٣. الشيخ محمد حسن المامقاني (ت١٣٢٣هـ)

٤. زعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الأخوند (ت١٣٢٩هـ)

٥. المحقق الشيخ محمد حسن الأشتياني (ت١٣١٩هـ)

٦. السيد حسن الترك (الكوه كمري) (ت ١٢٩٩هـ)

٧. الشيخ جعفر التستري / العالم / الواعظ/ المتعظ (ت١٣٠٣هـ)

٨. الشيخ حسين الكربلائي التستري

٩. الميرزا أبو القاسم كلانتر (ت١٢٩٢هـ)

٠١. المحقق الشيخ هادي الطهراني (ت١٣٢١هـ)

١١. المرجع الشيخ محمد طه نجف (ت١٣٢٣هـ)

١٢. الأخلاقي الشهير ملا حسين قلي الهمداني(ت١٣١١هـ)

٣١. الشيخ عبد الحسين نجل صاحب الجواهر، مرشح للمرجعية زمن أبيه

١٤. الميرزا عبد الرحيم النهاوندي (ت١٣٠٤هـ)

١٥. المرجع الحاج ميرزا حسين الخليلي (ت١٣٢٦هـ)

١٦. الشيخ محمد المعروف بالفاضل الشربياني (ت١٣٢٢هـ)

أما أسرع طلابه الأعلام لحوقاً به فهما اثنان: الأول: الفقيه المتبحّر الشيخ أغا حسن النجف أبادي (ت١٢٨٢هـ)، الثاني: العلامة الشيخ إبراهيم آل صادق العاملي (ت١٢٨٣هـ).

وفاة الشيخ الأنصاري:

تُوفّي الشيخ الأنصاري ليلة الثامن عشر من جمادى الأخرة / ١٣٨١هـ عن تركة تساوي ثلاثة دنانير - كما يقول السيد كلانتر- وشيع تشيعاً فخماً من مختلف الطبقات، ودُفن بالحجرة المتصلة بباب القبلة على يسار الداخل الى الصحن الحيدري، وقيل في تأريخ وفاته:

مذ توفى المرتضى شيخ الورى — وبكى الدين عليه أسفا
وبفضل الله قد أسكنه — من جنان الخلد أرّخ غُرفا

(١٢٨١هـ)

ورثاه الشيخ محمد علي كمونة قائلاً:

لو لم يكن سلمان خير زاهد — لقلتُ سلمان بزهده إقتدى
من الصلاح وجهه كأنّه — وجه الصباح بهجة إذا بدا
من المعزي أحمداً بالمرتضى — بالمرتضى من المعزي أحمدا

وفي البيت الأخير تورية إذ المرتضى أمير المؤمنين، وفيه (رد العجز على الصدر).

* * *

مرجعية الشيخ راضي النجفي

وبوفاة الأستاذ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري عام (١٢٨١هـ) تبلورات هنالك مرجعيتان بعرض واحد؛ مرجعية الفقيه المتميز الشيخ راضي النجفي (ت١٢٩٩هـ) والمجدد الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي الكبير (ت١٢١٢هـ) الى جنب جملة من المراجع الأخرين.

وكان الشيخ راضي، جدّ الأسرة النجفية المعروفة آل الشيخ راضي أحد عمالقة الفقه والأصول، وجهابذة العلم القلائل، وقد عُرف بالذائقة العربية فقاهة، والاستنارة الفكرية المتطورة، إذ كان بحثه الخارج العالي خالصاً من الشوائب العالقة بالنهج، ودقيقاً في استنباط الأدلة وقراءتها قراءة علمية متخصّصة، وقد نأى بها عن الحشو والإضافات الكلامية والجدل القائم على الفتقله (فإن قلتَ قلنا) وكان سمحاً في استدراج معضلات المسائل لا عسر باستخراجه ولا عَنت، بل يأتي بذلك متساوقاً مع الفطرة والسلامة الذوقية؛ هذا ما سمعناه من مشايخنا عن مشايخهم الأقدمين، وهو بعد من أسرة عريقة في اكتساب المكارم والمأثر ومن الجادّين في طلب العلم من مظانه الأصيلة ينابيعهِ الأولى، ومن قادة النجف الأشرف في الوجاهة والزعامة وإصلاح ذات البين، وقد اشتهر شهرة مستفيضةً بالزهد والقناعة ونكران الذات، والترسّل والبساطة في الملبس والمأكل والمشرب، وكان هجيراه الفقه والأصول تدقيقاً وتنقيحاً وإضاءة ممّا أعطى نكهة جديدة لهذين العلمين بعيداً عن النهج الجدلي في الفقه، والبعد الفلسفي في الأصول، وقد حافظ على سلامة هذين العلمي ونقائهما وصفاتهما وخلوّهما من التعقيد الذي يؤدي الى الإيهام والإبهام، وكما عرف الشيخ راضي بالتواضع الجم، فقد عرف مستهجناً بالاعتبارات

الزائفة، وتقاليد العنعنات الزائلة، فقد زاره في داره السلطان ناصر الدين شاه، فقابله بتلك العفوية التي يقابل بها أبسط الناس، فلا شأنيه في البين، ولا اهتمام متعالياً في الاستقبال، نعم ربما قيّد في ملبسه الأعتيادي بحدود تنأى عن الترسّل المفرط الذي قد يوصف باللامبالاة. وهو بهذا السلوك قد أوجد جيلاً متواضعاً من رجال الدين العرب، ذلك الجيل الذي تجلبب برداء الأخلاق المحمدية والقيم الروحية الى جنب الفقاهة والاضطلاع بمسائل الشرع الشريف، يُضاف الى هذا بسمة الترحيب المنطبقة على الثغور، وطلاقة الوجه التي تشرف على المُحيّا، ولغة الحبّ المتبادل بين الصغير والكبير وقد أثرت هذه المثل العليا - مضافاً الى الوجاهة والزعامة - في أفراد أسرة آل الشيخ راضي في تسلسل تأريخها العلمي، فقد أنجبت على سبيل المثال العالم الرباني الورع الشيخ عبد الله الشيخ راضي والد الآية الكبرى الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي وأخيه الشيخ محمد الشيخ راضي وعمومتها وأبناء العمومة وقد برز بذلك من أد ركناه منهم، أو من سمعنا به ولم نره، وهم على سبيل النموذج للإحصاء:

- الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي
- الشيخ جعفر الشيخ عبد الحسن الشيخ راضي
- الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي
- الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي
- الشيخ محمد الجواد الشيخ راضي وأولاده الأفاضل
- الشيخ مولى الشيخ راضي
- الشيخ عبد الهادي الشيخ راضي
- المرجع الشيخ محمد تقي الشيخ راضي
- الشيخ عبد الوهاب الشيخ راضي وأولاده الأعزاء

- الشيخ جواد الشيخ راضي (عالم الرميثة)
- ولده الشيخ صالح الشيخ راضي (أستاذنا في النحو)
- الشيخ عبد الرزاق الشيخ راضي
- الشيخ محمد حسن الشيخ راضي
- الشيخ هادي الشيخ محمد الجواد الشيخ راضي أستاذ البحث الخارج في الحوزة العلمية في النجف، والمؤمل للمرجعية في مستقبل الأيام إن شاء الله.

هذا عدا شبابهم المثقَّف في حسن الأخلاق والمزايا الحميدة وقد عاشرت منهم على سبيل المثال:

- الأستاذ محمد تقي الشيخ عبد الله الشيخ راضي.
- الأستاذ راضي الشيخ عبد الله الشيخ راضي.
- الأستاذ باقر الشيخ راضي وأولاده النجباء.
- الدكتور عيسى الشيخ راضي.
- الدكتور موسى الشيخ راضي.
- الدكتور يونس الشيخ راضي.
- الدكتور مازن الشيخ راضي.
- الصيدلي عبد علي الشيخ محمد طاهر الشيخ راضي وأولاده المحروسين.
- الشهيد محمد رضا الشيخ راضي أستشهد (١٩٦٣م).
- الدكتور محسن الشيخ راضي، وهو زعيم الأسرة اليوم، والوطني المصلح المعروف، وصاحب اليد البيضاء في الإحسان، ورمز الإخاء والوفاء المحض لإخوانه وأصدقائه، طال عمره مقترناً بالخيرات. وهذه الأسرة بشبابها الذين يغيب عني ذكر

أسمائهم يشكّلون مفخرة للشباب النجفي الملتزم تديّناً وأخلاقاً، وكل ذلك أرث طبيعي من الفقه الأكبر جدّهم الشيخ راضي النجفي (قُدّس سره) ولا يفوتني أن أنوّه بالنشأة الصالحة للأستاذ محي الدين نجل الشيخ محمد الشيخ راضي، ومن على منواله في السلوك المحبوب من الأسرة.

وبوفاة الآية العظمى الشيخ راضي النجفي (١٢٩٩هـ) ينتهي حديثنا مع القرن الثالث عشر، بحدود

***

الفصل الرابع

عمالقة المرجعية العليا في النجف الأشرف في القرن الرابع عشر الهجري

بين يدي هذا الفصل

تميّز القرن الرابع عشر الهجري بكثرة الأعلام والمجتهدين الذين عمّروا البحث العلمي في حاضرة النجف الأشرف.

وكانوا بحقٍّ: عمالقة المرجعية العليا، ولقد سبق لكاتب هذه السطور أن ترجم لخمسة منهم في كتاب: (أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف)، وهم على التوالي:

١. الشيخ محمد رضا آل ياسين الكاظمي النجفي (ت١٣٧٠هـ).

٢. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ).

٣. السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت١٣٩٠هـ).

٤. السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي(ت١٤١٣).

٥. السيد علي الحسيني السيستاني، المرجع الأعلى المعاصر (دام ظلّه).

كما ترجمت لثمانية أخرين في كتابنا (قادة الفكر السياسي والديني في النجف الأشرف) وهم على التوالي:

١. السيد محمد سعيد الحبوبي النجفي (ت١٣٣٣هـ).

٢. الشيخ جواد البلاغي النجفي (ت١٣٥٢هـ).

٣. السيد حسين الموسوي الحمامي (ت١٣٧٩هـ).

٤. الميرزا الشيخ محمد الحسين النائيني الغروي (ت١٣٥٥هـ).

٥. الشيخ عبد الكريم الجزائري (ت١٣٨٢هـ).

٦. السيد عبد الله الشيرازي النجفي (ت١٤٠٥هـ).

٧. السيد محمد الشيرازي الحسيني الحائري (ت١٤٢٢هـ).

٨. الشيخ محمد رضا الشبيبي النجفي (ت ١٣٨٥هـ).

وكل هؤلاء الأعلام عملوا في الحقل الديني والسياسي، بأستثناء السيد حسين الموسوي الحمامي، فقد تمحّض للحوزة دون السياسة، وعلّامة العراق الشيخ محمد رضا الشبيبي تمحض للقضايا الوطنية فحسب وهم من أعلام النجف كافة أغلبهم من المراجع العظام، والأخرون مراجع لم يتصدوا للمرجعية، والشبيبي وحده بحثته وطنياً.

وهناك مراجع آخرون تحدثت عنهم كالآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي، وشيخ الشريعة الأصفهاني وسواهم من عرضت لهم في (نضال المرجعية العليا) من هذا الكتاب.

وآخرون سأدرسهم في كتاب مستقل قيد التأليف. وآخرون درسوا دراسة مفصّلة كالأخوند واليزدي وشيخ الشريعة من قبل باحثين استوعبوا حياتهم، فأوجزت الحديث عنهم.

***

مرجعية المجدد الميرزا محمد حسن الشيرازي

بعد وفاة الفقيه الشيخ راضي النجفي، إنفرد بالمرجعية العليا الإمام المجدد السيد محمد حسن الشيرازي (ت١٣١٢هـ) في ثلاثة عشر عاماً مليئة بالأحداث السياسية، فاشرأبّت الأعناق الى المرجعية، وتطاولت الأبعاد شاخصة لهذا العبقري الرصين، في حين تعصف بالنجف الأشرف عصابات الزكرت وميليشيات الشمرت مع هن وهن، فقرر السيد المجدد مغادرة النجف الأشرف الى سامراء عام (١٣٠٠هـ) مهاجرا في سبيل وحدة الأمة، والحفاظ على الإسلام من خلال تحقيق التفاعل الروحي بين السنة والشيعة في العراق، إذ عمدت السياسة التركية الهوجاء الى إثارة النعرات على لسان حكّامها الجهلة في بغداد والقصبات العراقية تزمتاً وتعنتاً واستهانة بالشعور العراقي العام، ولدى اتخاذ المجدد الشيرازي (سامراء المشرّفة) مقراً للمرجعية العليا، تمكّن من جمع الشّتات، وتوحيد الشمل، فعاد الشيعة والسنة إخواناً في كل شيء بمناخ حالم جديدٍ، فلا نزعة طائفية، ولا نزعة عنصرية، وعاشوا إخوة بسلام، وإزدهرت سامراء بتشرّفها بالإمامين العسكريين، الإمام علي الهادي وولده الإمام الحسن العسكري عليهما السلام، وبلغت الذروة في الإسكان والأستيطان من شتى الديار والقصبات، إذ قذف المسلمون بأفلاذ أكبادهم بأتجاه سامراء يمسون شطرها، ويهبطون ربوعها لغرض الدراسة، والتزوّد من مَعين أساتيذ العلوم العقلية والنقلية، بما يحقق لهم الأمال في التخصص الدقيق، مما أضطر معه المجدد الشيرازي الى بناء مدرسته العلمية القريبة من ضريح الإماميين العسكريين عليهما السلام، وهي مدرسة ذات مساحة فارهة، ورواق للدرس العالي، وساحة مستطيله تشرف عليها عشرات الغرف للطلاب من خلال الطابق العلوي والطابق الأرضي، وهي موئلهم في

التدريس والغذاء والراحة والنوم شبيهاً بـ (الأقسام الداخلية في عصرنا هذا) وقد أعتدي على هذه المدرسة مرتيّن: الأولى: بعد أحداث احتلال الكويت الدامية، وما جرّت على العراق من ويلات، فأندفع الشباب العشوائي في سامراء في عام (١٩٩١م) الى تهديم الشرفات والآواوين والمقاعد الدراسة، وغرف الأسكان، ونهب المكتبة الكبرى في المدرسة، دون تفكير في آية مسؤولية، وكانت تلك الحملة رداً على من قتل من المراتب والضباط لدى ما يسمى بالانتفاضة الشعبانية. والاعتداء الثاني في المرة الثانية كان بعد سقوط نظام الطاغية (٢٠٠٣) ضمن حملة التكفيرين ضدّ كل من ينتمي لأهل البيت بصلة، عند الاعتداء التكفيري الأهوج على ضريحيّ الإمامين العسكريّن في سامراء من قبل الإرهابيين والمتعصَّبين لا كثَّر الله في المسلمين أمثالهم، فقد شوّهوا سمعة الدين الإسلامي، واعتدوا على الحرمات والمقدسات، فإنا لله وإنّا اليه راجعون.

وكانت مرجعية المجدد الشيرازي تُمثّل خطوة حضارية في توحيد كلمة الأمة في ضوء كلمة التوحيد، واختفت في سامراء والعراق بعامة كل مظاهر التميز الفئوي والمذهبي والعرقي والعشائري والطائفي، وعادوا أخواناً على سُرُرّ متقابلين.

ولم تُرحِّب الدوائر الاستعمارية بهذا الانسجام بين المسلمين كيف لا؟ وشعارهم (فَرِّقْ تَسُدْ) الذي اقره مؤتمر (سايكس بيكو) في القاهرة فيما بعد.. ومهما يكن من أمر فقد أوحت بعض السفارات الأوربية الى بعض عملائها من المعروفين بسفك الدماء والطائفية بوقت واحد، وأوعزت باغتيال ابن المجدد الشيرازي، فما كان من السفارة البريطانية والسفارة الروسية وسواهما، إلا أن يوفدوا سفراءهم الى المجدد الشيرازي وانهم حاضرون ومستعدون لتنفيذ أوامره في القصاص من قتلة ولده، فأمتنع السيد أشدّ الأمتناع عن سماع هذه الأكاذيب والدسائس التي أُريد بها تفريق الصفوف، و إستغلال الفرصة لأثارة الفتنة، وقال بما مؤدّاه: أحد أبنائي قتل أخاه، ولا أطلب شيئاً، ولا ديّه، ولا تسليم القاتل إن عُرف.

وفي سامراء قابله الزعيم المصلح السيد جمال الدين الأفغاني مخاطباً إياه بتلك الألفاظ التكريمية الراقية التي يحسن أداءها الأفغاني بدبلوماسيته المعهودة، فهو سياسي خبير، وداهية من الطراز الأول، وأراد حمل المجدد الشيرازي على تكفير ناصر الدين شاه فما أصغى لذلك حذر سفك الدماء، وقيام الفتنة، وعدم تكامل أدلّة ما أراد.

ولكن المجدد الشيرازي لم يقف مكتوف اليدين أزاء إعطاء الشاه امتياز (التبغ والدخان) الى شركة إنكليزية، وعاثت الشركة فساداً في الأرض، وأستملكت المساحات الكبرى والبنايات الفخمة، واستعباد الشعب الإيراني، بشكل وآخر، وذلك لإدارة أعمالها التي تُخفى وراءها أهدافاً أعمق من الأمر الظاهري، ورأى السيد المجدد بذلك تدخلاً سافراً في شؤون البلد الداخلية، وهو حاضرة إسلامية، وإمتداد أخطبوط الدول المستعمرة لاسّيما بريطانية الى عمق الدولة، فأصدر فتواه بتحريم إستعمال التبغ بكل أنواعه، وقد عرفت هذه الفتوى باسم (تحريم التنباك) فأمتنع الشعب الإيراني أجمع من التدخين أو شراء الدخّانيات حتى بلغ الحد أن طلب الشاه نفسه (نارجيلة) فقيل له: إنها كسرت مع جميع لوازمها تنفيذاً لأمر المجدد الشيرازي، وانهارت الشركة، وتبعثرت كلّ استعداداتها، وتحطّمت جميع معداتها، وأعلن إفلاسها، وفشل المشروع البريطاني، على أن قاتل ناصر الدين شاه حينما اغتاله بالمسدس خارج طهران عند مرقد (عبد العظيم الحسيني) قال: خذها من جمال الدين الأفغاني، كما أخبرني بهذا أستاذنا المعظم السيد محمد علي الحكيم (ت ١٤١٣هـ).

ومن خلال ما تقدّم يمكن إلقاء الضوء على الملامح العامة للمجدد الشيرازي، فقد كان صلب العقيدة متكلاً على الله في كل حركاته وسكناته، يُضاف الى ذلك إغناؤه للناس على حد سواه، القريب والبعيد، القاصي والداني، العدو والصديق دون تفريق بين الطبقات الاجتماعية، ذلك سمح اليد، كثير العطاء، فأستهوى قلوب السنة والشيعة في سامراء، وملك أزمة القيادة، وعاشت سامراء أرغد أيام حياتها في العصور المتأخرة.

وينبغي الإشارة الموحية بأن منبر تدريسه في سامراء قد ضم عشرات المجتهدين، ومئات الفضلاء، والآف الطلاب، وقد عُرف بدقّة المطالب العلمية، ونضج الفكر الفقهي والأصولي، وقد أحسنت (مؤسسة آل البيت) في قم المقدسة بإدارة العلّامة الجليل السيد جواد الشهرستاني دام علاه؛ بطبع تقريرات بحثه الخارج في (علم الأصول) في ثلاثة مجلدات مليئة باللباب من هذا العلم، وجامعة لشتات معالمه المتناثرة في مباحث فريدة متطوّرة، وقد مُلئت بطبعها سروراً وغبطة، وشكرت السيد الشهرستاني على هذه اللفتة البارعة، وهي تزين مكتبتي على إختصارها وضغطها لمعالم الأصول المتشعبة.

وتوفّي السيد الشيرازي في سامراء، وحمل نعشه على الأعناق الى النجف الأشرف، ودُفن عند مدرسته ومسجده في أول باب (الشيخ الطوسي) المؤدي الى الصحن الحيدري الشريف.

***

مرجعية زعيم الأحرار الأخوند الخراساني

إنطلقت مرجعية زعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الأخوند (ت١٣٢٩هـ) في ظروف صعبة معقّدة تستقطب العالم الإسلامي والعربي، في حروب كشرت أنيابها كالغول المزمجر، مما يصح معه تسميته بعصر الأضطراب السياسي، ففي العراق يحكم العثمانيون حكماً دكتاتورياً قائماً على أساس إرادة السلطان أو الوالي دون قانون يفصل بين القضايا، وهو نموذج في أكثر من مورد يحكي عن عجرفة الإدارة العثمانية وتخلّفها في أبسط مقومّات التحضر المدني، وطالما منيت بغداد والموصل والنجف الأشرف والبصرة، وشمال العراق بأحكام ما أنزل الله بها من سلطان، تسيل الدماء حيناً وتمتلأ السجون حيناً آخر، ويعرض الناس على إهانات لا تصبر عليها طبيعة عشائرية العراق.

أما الجنوب والفرات الأوسط فحدِّث ولا حرج فيما تعرّضا له من مشكلات تتعلق بالأراضي وضرائبها بين أخذ ورد وتمرّد وإستسلام، وحملات تأديب حيناً، وفصائل قتال حيناً آخر، وما بين هذه وذاك تهدر الكرامات، ويطور النزاع والصراع معاً.

وأحداث العالم السياسية تهزّ الأفاق طرقاً موجعاً، فرجال الأتراك يطالبون بالحرية، ويحاربون تسلّط (الدولة العلية) والخليفة لا يعي ما يجري حوله، يصدر الفرامين، ويُعطّل القوانين، في حياة من اللهو واللعب وتجاوز الحدود الشرعية، ويسمى بأمير المؤمنين. وفي إيران بدأت (المستبدة) و (المشروطة) يمثلان تحوّلاً في السياسة والاجتماع والتفكير. وفي العراق تتعالى الأصوات بطلب الأستقلال عن العثمانيين عند طبقه كبرى من رجال الدين والمثقّفين، فقد سأموا حياة التخلّف الأجتماعي، وفي ليبيا القتال دائر بين الأيطاليين

وثوار ليبيا الأشاوس، وفي طليعتهم (عمر المختار) و المرجعية في النجف الاشرف تصدر فتاواها بالجهاد الى جنب الشعب الليبي ضد وحشية الاحتلال الإيطالي. وفي الجزائر كان الاستعمار الفرنسي ينخر في جسم البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعب الجزائري، وكذلك الحال في تونس ومراكش والمغرب العربي بعامة، وأنباء بطل الريف (عبد الكريم الخطابي) تشقّ مسامع الطبقة المثقفة في العراق من الأعماق، والمراجع العظام لاسيما زعيم الأحرار الأخوند يتابع القضايا بجدّية صارمة.

وفي إيران تستولي روسيا على أجزاء كبيرة منها، ويفتي الأخوند بالجهاد ضد الجيش الروسي، ومن وراءه الكيد الإنكليزي ومخابرات (بريطانيا العظمى) كما يقال آنذاك، ويريد الأخوند التحرّك صباح الليلة التي توفّي فيها مسموماً على الأصح، وينفرط سلك آلاف المجاهدين الذين صمّموا على إتباّع الشيخ الأخوند في كل ما يصدر عنه، وإذا بهم يفاجئون بوفاة زعيمهم وقائدهم الى الدفاع عن بيضة الإسلام، وهو بأتم الصحة والسلامة، مما نتهم معه (المس بل) الجاسوسة البريطانية التي أشغلت بعد احتلال العراق منصب (السكرتيرة الشرقية) في دار الاعتماد البريطاني (السفارة البريطانية في بغداد/ الكرخ)، وذلك أن الشيخ الأخوند قُدِمت له (تفاحة) كوجبة عشاء خفيفة، فأكلها، وأصبح ميتاً كما يروي ذلك السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني، والله العالم.

ومهما يكن من أمر فإن الأخوند الخراساني هو أستاذ علم الأصول للفقه الإمامي وهو المرجع الأعلى للإمامية، وينافسه بعد الميرزا المجدد الشيرازي الفقيه الكبير السيد محمد كاظم اليزدي، وقد اشتهر الأخوند بكتابه (كفاية الأصول) منذ عهده حتى اليوم (١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م) وهو مدار التدريس والدرس العالي في النجف الأشرف والحوزات العلمية الأخرى، وعليه تعليقات وحواشٍ، وله شروح ومطوّلات، خلال مائة عام من الزمان.

ولقد عرضت في فصل متقدم (نضال المرجعية العليا في النجف الأشرف) لجهاد ونضال ومواقف الخراساني، وفي مجالات أخرى.

والحق أن الأستاذ الشهيد عبد الرحيم محمد علي قد أستوعب حياته ودراسته، وترجم له قبل خمسين عاماً بما فيه المزيد من الوثائق. وقد رثاه تلميذه البار علّامة العراق الشيخ محمد رضا الشبيبي بقصيدة عصماء منها:

الـديـنُ فـيـكَ المـعـزّى لـو ثـوى فينا ... لـكّـنـنـا قـد فـقـدنـا بـعـدَك الـدِّيـنـا
لم أدرِ.. حـيرّتَ عقلاً أنـتَ مرشـدُهُ ... مـن أيـن كـوّنـك الـرّحمـن تكوينا
أظـنُـهُ صـنـعَ الأيـمان جـوهـرةً ... فـكـنـت ذلـك لا مـاءً ولا طينا

***

مرجعية السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (ت ١٣٣٧هـ)

وقد مُني السيد اليزدي (قدس سره) بكونه في قبال الأخوند الخراساني، إذ يقول الأخوند بسيادة القانون، وأن الحاكم يجب أن يتقيد بمجلس نيابي واقعي غير مزيّف يقيّد الدكتاتورية، بينما يتوقف السيد اليزدي عن هذا حذر الفوضى، وإستغلال الحرية فيما لا تُحمد عقباه، وسُمي النوع الأول من المطالبة بالحكم الدستوري (المشروطة) ويقابله (المستبدة) وقد أشرت لكثير من جهاد السيد اليزدي في عدّة أطاريح سابقة، وقد تحدثت عن إبتلائه بأحتلال النجف الاشرف، وثورة النجفيين ضد الأتراك في (١٩١٧م) وثورة النجف ضد الأستعمار البريطاني وقتل الكابتن مارشال، حاكم النجف البريطاني في مارت (١٩١٨م) وقد لا كته الألسن كثيراً، وأتهم بممالئة الأنكليز حيناً، وليس هذا بحقٍّ، فقد أرسل كبير أبنائه في (معركة الجهاد) التي قادها السيد الحبوبي عام (١٩١٤م) لدى إحتلال البصرة، وتوجّه المقاتلون الى (جبهة الشعيبة) وتوجّه الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء ونجل المرجع السيد محمد اليزدي الى جبهة الكوت، وكان حامل الراية الحيدرية الشيخ جواد صاحب الجواهر، ولدى عودتهم عن طريق الكاظمية تدهورت صحّة نجل المرجع السيد محمد اليزدي ومات كمداً في (١٣٣٣هـ).

وكانت رسائل السيد كاظم اليزدي تترى على العشائر والمشايخ ورؤساء القبائل للألتحاق بالجهاد.

وقد مُنّي بثورة النجف ضد الإنكليز، وحصار النجف أربعين يوماً، وتهديم وقصف خمسمائة دار في محلّة العمارة، وهي أكبر محلات النجف وكان يدعو الى (الصلاح بالإصلاح)

مما قد يُعتبر موقفاً غامضاً تجاه ثوار النجف الأشرف الذي قبض على قسم منهم، وأعدم منهم أحد عشر بطلاً، وعرضنا لهم في عمل سابق، وكان عضداه في كل شؤونه الشيخ أحمد كاشف الغطاء والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، وهما وصيّاه، وبيدهما إدارة مرجعيته العليا، وكان جهادهما معه في حياته، ووفائهما له بعد مماته، وكان الشيخ أحمد كاشف الغطاء (ت ١٣٤٤هـ) في عنفوان شبابه وهو من المرشَّحين للمرجعية بعد اليزدي ووفاته حالت دون ذلك، فكانت المرجعية العليا للسيد (أبو الحسن الأصفهاني).

ومن الجدير بالذكر أن صديقنا الأستاذ الدكتور كامل سلمان الجبوري مؤرّخ الكوفة والنجف الأشرف قد أصدرّ كتاباً قيّماً عن (السيد محمد كاظم اليزدي) بهذا الأسم وهو عنوانه، وقد عالج حياته مفصلاً من كل الجهات، وتحدّث عن نضاله العلمي والسياسي، ودافع عنه دفاع المستميت وأغلق باب البحث عنه إذ استوعبه في مجلّد ضخم، جزاه الله خير جزاء المحسنين.

وينبغي الإشارة هنا أن السيد اليزدي قُدّس سره هو صاحب كتاب (العروة الوثقى) والذي عُرف به، وكثرت عليه التعليقات والحواشي والشروح العديدة، وكان الكتاب وهو رسالته العملية مجالاً رحباً لكثرة الفروع التي أحكمت أمراً بالفقه الأستدلالي في (مستمسك العروة الوثقى) لسيدنا الإمام السيد محسن الحكيم قدس سّره في أربعة عشر مجلداً في طبعته المنقحة.

وقد أحسن صنعاً تلامذة سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي قُدّس سره، بدراسة هذا الكتاب إستدلالياً وأصدروا بالتقاسم معه عدّة مجلدات، وما رأيناه:

١. (تنقيح العروة الوثقى) لآية الله الشهيد الشيخ ميرزا علي الغروي.

٢. (مستند العروة الوثقى) لآية الله الشهيد الشيخ مرتضى البروجوردي.

٣. (معتمد العروة الوثقى) لآية الله الشهيد السيد رضا الخلخالي.

٤. (مباني العروة الوثقى) للعلّامة الشهيد السيد محمد تقي نجل الإمام الخوئي.

أما التعليقات على هذا الكتاب (العروة الوثقى) فليس بالإمكان حصرها بأسماء أصحابها، وقد جاوزوا المائة معلّق وشارح وصاحب حاشية وكان هذا من توفيق الله عزّ وجل، اذ يكشف عن صدق نيته، وقد أبقاه هذا الكتاب خالداً عوضاً من الله تعالى على كثرة من قدح بالسيد اليزدي، وأبرز التعليقات عليها:

١. حواشي العروة الوثقى: الآية الكبرى الشيخ محمد رضا آل ياسين قُدّس سره.
٢. التعليق على العروة الوثقى: المرجع الكبير السيد محمد الحسني البغدادي قُدّس سره.
٣. العروة الوثقى: تعليق سيدنا الأستاذ الخوئي قُدّس سره.
٤. العروة الوثقى: تعليق السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظلّة العالي).

* * *

مرجعية الشيخ محمد طه آل نجف

الشيخ محمد طه بن الشيخ مهدي نجف (ت ١٣٢٣هـ) وهو من علماء القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

من أعاظم المجتهدين، وأجلّاء المراجع البارزين، ومن سلسلة البيت الطاهر المعروف بالقداسة والورع والترسُّل، سبق أن ذكرنا سلفه الكبير الشيخ حسين نجف في ترجمة السيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف بـ (بحر العلوم) والذي نصبه لإمامة الصلاة في الصحن الحيدري الشريف.

ولد الشيخ محمد طه في النجف الأشرف سنة (١٢٤١هـ) ونشأ بها نشأة عالية متميزة، فعُرف بالتقوى والإنابة الخالصة، والزهد في بهارج الدنيا، والتوجه الكلّي نحو اليوم الآخر في جزئياتِ أعماله وكليات مشاريعه العلمية، وكانت آثاره وأفكاره شواهد على ذلك حتى ضُرب به المثل بالدقة المتناهية في متابعة الأمور التي تقربه زُلفى من الله تعالى كما هي الحال في مشايخ أسرته الكريمة، وهي أسرة علماء وفقهاء ومجتهدين وأبرار ومقدّسين رضوان الله عليهم.

وقد اشتهر عن الشيخ محمد طه آل نجف بأنه من أولئك القلائل المجدين تحصيلاً وفقاهة في شبابه وكهولته وشيخوخته حتى فقد البصر؛ ولم يبرح عن عوائده في التوجه الى العلم في شتى تخصصاته ولاسيما علم الرجال مضافاً للفقه والأصول والحكمة والرواية.

أساتيذه:

١. الشيخ عبد الرضا الطفيلي صاحب المؤلّفات العظيمة، وهو جد العلّامة الشيخ محمد الطفيلي والد الأستاذ عبود الطفيلي والأستاذ علاء الطفيلي أبن النجف البار.

٢. وقد درس على يديه النحو والصرف والمنطق الأرسطي والبلاغة.

٣. الشيخ جواد آل نجف، وهو خاله، وقد درس عنده الفقه والأصول والأخلاق.

٤. الشيخ محسن خنفر، وهو من العلماء الأجلّاء، وممن يشار اليه بالبنان، وقد أخذ عنه الفقه الأستدلالي والأصول العالية.

٥. السيد حسين الكوه كمري، وهو من أبرز تلامذة الشيخ الأنصاري، وحضر عنده في الفقه، والأصول بالبحث الخارج العالي.

وهؤلاء أبرز أساتيذه قبل إلتحاقه بالأستاذ الأعظم الشيخ الأنصاري حيث إختصّ به وأصبح من أقرب الناس إليه، وأعظمهم زلفةً لدية لاشتغاله الحثيث وقداسته المعهودة، وقد أجيز بالاجتهاد المطلق، وأفاد من الأستاذ الأعظم الأنصاري أغلب خصاله، وأنصع بوادره العلمية حتى عاد من أساتيذ الحوزة العلمية المتمرّسين بالبحث العالي الخارج (الدراسات العليا) وقد تسنَّم منصب المرجعية، وكان مدار الفتيا في طول البلاد وعرضها، ومن مراجع التقليد الأكابر.

وكان منفتحاً على ثقافة عصره في الشعر والآدب ونقد الكلام، ولا غرابة في ذلك فهو معاصر للسيد محمد سعيد الحبوبي العالم، الشاعر، المجاهد، واكتسب كثيراً من خصائص أقرانه في المحور الأدبي.

ذكره العلامة السيد محمد كلانتر رئيس الجامعة الدينية رحمه الله، وأثنى على فضله الشامخ وشرفه الباذخ، وعلمه الجم، وتفوقه في الفقه والأصول رغم كونه متعدّد الجوانب وعلى إطلاع واسع في الحديث والرجال والشعر والأدب[1].

وللمترجَم له آثار ومؤلَّفات قيمة، وحواشٍ وتعليقات على كتب الحديث الشريف والفقه والأصول وعلمي الدراية والرواية.

ولكن أهم كتبه على الأطلاق، والذي أبقى ذكره واسمه لا معين حتى اليوم هو(إتقان المقال في أحوال الرجال)، وهو من المصّنفات الرجالية القيمة التي تضاهي (تنقيح المقال) للشيخ عبد الله المامقاني، والفرق بينهما أن الأخير طُبع طبعة منقّحة ومحقّقٌ تحقيقياً ممتازاً من قبل ولده الشيخ أغا محي الدين المامقاني، وكتاب المترجم له على طبعته الأولى قبل أكثر من سبعين عاماً، ولا أعلم هل جدّد طبعه أم لا.

وبعد عمر حافل بالعطاء العلمي الثرّ توفي المترجم له في ١٣/ شوال/ ١٣٢٣هـ عن عمر تجاوز التسعين عاماً، ودُفن في مقبرة الأسرة في الصحن الحيدري الشّريف، وهي الحجرة الاولى للداخل للصحن من باب القبلة على اليسار ورقمها اليوم (١١)، وارخ وفاته الحاج مجيد العطار بقوله:

صرخَ الدين ثلاثاً علم التاريخ (مات)

ولهذه الحجرة تاريخها الحافل علمياً؛ إذ بدأ بها سيدنا الأستاذ الإمام السيد أبو القاسم الخوئي تدريس الدورة الأولى للأصول عام (١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ) كما ذكرنا ذلك في ترجمته بكتابنا: (أساطين المرجعية العلياء في النجف الأشرف) وينبغي القول أن من شمائل هذه الأسرة والى اليوم الأستنان بالمترجم له في الأخلاق الفاضلة العليا، وبالصبر على مكاره الدهر، وبالبشر وطلاقة الوجه مع البسمة الرقيقة على الشفاه، وحرارة المودّة للأصدقاء.

(١) ظ: كلمة حول الشيخ الأنصاري/ المكاسب ١/ ١٦٥.

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمد طه آل نجف هو الجد الأعلى لصديقنا الظريف الرائع الشيخ محمد حسن نجف صهر الإمام السيد محسن الحكيم على كريمته، وأول من أنشأ مؤسسة لرعاية الأيتام في النجف الأشرف منذ ستين عاماً في أواخر خمسينيات القرن العشرين، وقد توفي مغترباً عن مسقط رأسه النجف الأشرف، وحزنتُ عليه حزناً شديداً، فإذا ذكرته ترقرقت عيناي بالدموع، وتذكّرت تلك الطلعة البهية الضاحكة للهواء الطلق، وكنا صديقين نلتقي في نكت بارعة، ونفترق عن أخوّة صادقة، ومن رأى منّا الأخر فرح فرحاً شديداً، وينشرح صدره عفوياً.

وهو والد العلّامة الشيخ محمد مهدي نجف، صاحب المراصد الفلكية المعروفة، وخبير المكتبات ومؤسسها، وصاحب الفضيلة والخلق الرفيع. وولده الأكبر الأستاذ محمد طه نجف سميّ المترجم له، الأديب النبيل والمهذّب الكامل، ووالد الأستاذ محمد رضا نجف السياسي النزيه والأخ جواد نجف الضحوك المتزن.

رحم الله الماضين من هذه الأسرة، وحفظ الباقين.

***

مرجعية شيخ الشريعة الأصفهاني

وهو الشيخ فتح الله النمازي/ المعروف بشيخ الشريعة الأصفهاني (ت ١٣٣٨هـ) وكان قائد ثورة العشرين بعد وفاة مفجّرها الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي قُدّس سره، وكانت الثورة قد اندلعت بإطلاق الرصاصة الأولى في الرميثة في (٣٠/ حزيران/ ١٩٢٠م) لإطلاق سراح الشيخ شعلان أبو الجون من زعماء الثورة، وقد سجنه الإنكليز لمحاسبته القائد البريطاني في (أبي صخير) وكان مقرّ الأول في الفرات، والنجف الأشرف تابعة له، ثم باليوم نفسه انطلقت في النجف الأشرف التي استبيحت في (١٩١٨) (شهر مارت) لدى ثورة النجفيين ضدّ الإنكليز، وقتل (الكابتن مارشال) على يد الجناح العسكري لجمعية النهضة الإسلامية التي يترأسها العلم المجاهد الشيخ محمد الجواد الجزائري والسيد محمد علي بحر العلوم؛ وهما الجناح العلمائي الثوري، أما الجناح العسكري فيمثّله الحاج نجم البقال وجماعته من الذين أعدموا معه بعد فشل ثورة النجف.

وكان شيخ الشريعة بطلاً مجاهداً لا يكلّ ولا يمل رغم كبر سنه.

وقد حاجج الإنكليز، وفنّد حججهم الواهية، بكتبه ورسائله الى الحاكم البريطاني العام في العراق، بلغة بليغة وأسلوب ثوري منظّم، مدافعاً عن حقوق العراقيين، ومؤيداً لقضيتهم بتقرير المصير، ومطالباً بالاستقلال التام للعراق دون وصاية إنكليزية، أو تدخل للدول الكبرى والحلفاء في شأنه الداخلي والخارجي.

وكل هذا لم يتم حتى توفي (شيخ الشريعة) في (١٣٣٨هـ) مسموماً من قبل الانكليز والحرب قائمة في أنحاء العراق / الرارنجية / الرميثة / الحلة / النجف الأشرف/ كربلاء/ ديالى/ الكاظمية المقدّسة/ الديوانية الفرات الأوسط بجميع عشائره ومشايخه القبليّين، وزعمائه المتدينيّين من آل سكر، وآل فرعون، وآل الياسري، والعوابد والظوالم، وآل إبراهيم، وآل الأعاجيب، وعشرات القبائل مما لا يسعني حصرهم في هذه الصفحة، وقد كتب عنها المؤلف في كتبه كافة التي تناولت ثورة العشرين، وعن شيخ الشريعة في فصل سابق، وقد أصدر عنه كتاباً قيماً الدكتور كامل سلمان الجبوري (دام علاه).

***

مرجعية أستاذ المجتهدين الشيخ محمد حسين النائيني

الشيخ الأفخم، والأستاذ الأعظم الشيخ ميرزا محمد حسين النائيني (ت١٣٥٥هـ) من أبرز أساتيذ الفقهاء، وأشهر مجدّدي علم الأصول، رمز القداسة، وركن الإسلام، وشيخ المراجع الأجلاء.

كتبتُ عنه بحثاً كبيراً بعنوان (الشيخ محمد حسين النائيني... رائداً) بحثت فيه نشأته ودراسته في لمحات نادرة، وأشرت الى هجرته الى سامراء أولاً في عهد المجدد الشيرازي، ومن ثم هجرته المباركة الى النجف الأشرف في مرجعية الأخوند الخراساني، وتعظيم الأخوند له، ولم يدرس على يديه، بل أصبح أحد أعضاد الملة، يحوّل إليه الاستفتاءات، وما يكتبه النائيني يوقعه ويختمه الأخوند، كان أبرز مستشاريه، والمع حضّار هيأته العلمية المنعقدة ليلاً في منزل الأخوند بعد درسه للأصول، وعليها معّول الأخوند في تسيير دفّة الأمور المرجعية.

ولقد تحدثت عن النظريات الأبتكارية عند الميرزا النائيني في علم الأصول، وأشرت إليها إشارات نافذة تستأهل المراجعة، كما أعطيت نموذجاً من فتاواه الأستدلالية في سؤال وجهه إليه الإمام السيد محسن الحكيم. وقد لحظت في فتاواه نوعين من الإجابة: فإن كان السائل من العلماء أجابه إستدلالياً، وإن كان ما عداه إجابة فتوائياً دون إستدلال.

وقد تحدثت عن كتابه (تنزيه الملّة وتنبيه الأمّة) وشرحت مبادءه الدستورية شرحاً مختصراً، وتحدثت عن تلامذته من أساطين العصر: كالشيخ حسين الحلي، والشيخ محمد علي الكاظمي، والشيخ موسى الخوانساري، والسيد أبو القاسم الخوئي، والسيد عبد

الأعلى السبزواري، والشيخ محمد طاهر الشيخ راضي والسيد شهاب الدين المرعشي، والشيخ محمد حسين المظفر، والشيخ محمد رضا المظفر، وأضرابهم من المجتهدين الأكابر.

وقد وفّق الله سبحانه وتعالى أن كتب أحد تلامذتنا في كلية الفقه رسالته للماجستير وعنوانها (الفقه الدستوري عند الإمام النائيني) وتوفي النائيني في جمادى الأخرة / ١٣٥٥هـ ورثاه فريق من الشعراء، ومنهم الوالد الشيخ علي الصغير بقصيدة مطلعها:

عجبتُ كيف طواك القبرُ يا علمُ　　　وما أنطوى منك فردٌ فيه بل أممُ

الآية الكبرى الشيخ أغا ضياء الدين العراقي (ت١٣٦١هـ)

وهو من أبرز تلامذة زعيم الأحرار الأخوند، أصولي متميز في الأفكار والنظريات، أستاذ الأساطين كالإمام الحكيم، وأية الله العظمى الشيخ محمد طاهر آل شبير الخاقاني، وآية الله الشيخ خضر الدجيلي، وآية الله المرجع الشيخ إبراهيم الكرباسي وسواهم. عاش منفرداً في عمله وإفاضاته وتدريساته، وعزف عن المرجعية وهو أهل لها، ويضرب بمطالبة الأصولية المثل في الدقة والإبتكار، سأترجمه في كتابي القادم إن شاء الله.

***

الفيلسوف المتألّة الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهاني الكاظمي النجفي (ت١٣٦١هـ)

عالم أصولي شهير، وحكيم روحاني معروف، وشاعر من شعراء الطبقة الأولى في النجف الأشرف لاسيما بأراجيزه، له (الأنوار القدسية) أراجيز رائعة قيمة في النبي والزهراء والأئمة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، عاش في الكاظمية المشرّفة حياة مترفة في ظل والده التاجر الكبير معين النجار، ورغب إليه أن يدرس في النجف فأستجاب الأب، وهاجر الأبن الى النجف الأشرف، فما بارحها ولا فارقها، ودرس عند أشهر أساتيذها، وأختصّ بزعيم الأحرار الأخوند الخراساني، وهو من أعضاء مجلس إفتائه عليه (المحقق الغروي) سأترجمه في كتابي القادم إن شاء الله.

مرجعية زعيم الأمة، ونائب الأئمة، السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني النجفي (ت ١٣٦٥هـ)

ولد في إحدى قرى أصفهان ودرس المقدمات والسطوح والدراسات العليا فيها، وهاجر الى النجف الأشرف مجتهداً عام (١٣٠٨هـ) وما غادرها حتى أصبح المرجع الأعلى للإمامية في العام، وأختص بزعيم الأحرار الأخوند وهو أحد أفراد مجلس إفتائه، سأترجمه أن شاء الله في كتابي القادم بترجمة وافية – عن أساتيذ الحوزة العلمية في النجف الأشرف، توفّ في التاسع من ذي الحجة في الكاظمية المشرفة، وحمل على الأعناق الى النجف الأشرف.

مرجعية الشيخ محمد رضا آل ياسين

هو القديس الأكبر الشيخ محمد رضا آل ياسين الكاظمي النجفي (ت١٣٧٠هـ) الفقيه العربي المعروف، والزعيم الديني المحبوب، مثال الورع والقداسة، وعنوان التواضع والأريحية، كان هو والسيد محسن الحكيم في عرض واحد، وبينهما من الألفة والود والتعافي ما تحدّث به الركبان، ولهما في ذلك أنباء عظيمة الدلالة، وهو من الزهد والإنابة بمكان، ومن تفقد إخوانه وأحبائه على جانب عظيم، حاضر النكتة، يألف النادرة مع صباحة الوجه، وهيبة الطلعة، وجمال الهيأة وحسن السمت، لا تغيب صورته عن ذهني، و أنا من المولهين فيه والعاشقين له والمتبرّكين بذكره، وحكاية آثاره.

كتبت عنه بحثاً في كتابي (أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف) وكان البحث الأول، ترجمته فيه مشاهدة ومعاينة، وختمته بقصائد في رثائه، إذ لم يُرث مرجع بما رُثي. واخترت منها ما أجمعوا عليه أنه من جيد الشعر ومختاره، ومنهم والدي المرحوم الشيخ علي الصغير، ومطلع قصيدته وما بعده.

حملوك فاتحة الكتاب فكبّروا ... ونعوك ياسين الهدى فتحيّروا
ورأوك فازدحموا عليك لعلمهم ... إن الكتاب على العواتق ينشرُ
رفعوك قرباناً على أعناقهم ... لله فيه تضرّعوا واستغفروا
فالوقت وقت صلاتهم وإمامهم ... هذا.. فهللت الجموع وكبروا
فإذا الصلاة عليك ثكلى.. ربعُها ... خالٍ.. ومحرابُ المصلّى مقفرُ

فسألت هل هذا الإمام المرتضى؟ في النّعش.. أم حامي الشّريعة جعفرُ
قالوا الرِّضا.. فذُهلت مما راعنِي أني بأرواح الملائك أعثرُ

ورائعة الشيخ عبد المنعم الفرطوسي، ومطلعها:

جُرحَ على جرحٍ تكللّ بالدَّم شقا بقلبٍ قد تفجَّر مِن فمِي

وقصيدة الاستاذ محمد صادق القاموسي، ومطلعها:

قضى فتكوّر بنيانها لك اللهُ وحدَكَ أركانُها

وقصيدة العلامة الشيخ محمد الشيخ راضي، ومطلعها:

قَصُرِ البيانْ وإن أجيدَ رثاءُ فالشعرُ فوق مقامِهِ العظماء

***

مرجعية الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ)

كبير علماء الشرق العربي والإسلامي، نابغة عصره، وإحدى حسنات دهره، مرجع مجاهد، وخطيب جهوري الصّوت، أغنى مؤتمرات النجف والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وباكستان وإيران بخطبه الناريّة في سبيل توحيد كلمة العرب والمسلمين، وهو من أخص تلامذة السيد محمد كاظم اليزدي ومن المقّربين لديه مع أخيه الشيخ أحمد كاشف الغطاء (ت١٣٤٤هـ) بل هما وصّياه، اشتغل من بعد أخيه بالصلاة في الصّحن الحيدري الشريف وفي مسجد آل كاشف الغطاء، وأسّس مدرسته الدينية، ورعى فيها مكتبة والده الشيخ علي كاشف الغطاء، تلك المكتبة النفيسة العامرة بأمهات الكتب التراثية الخطية والمطبوعة، وخصّص لها بناية في أول الدخول الى مدرسته العلمية، قبل تعميرها، وأتخذ المدرسة منبراً للتدريس واستقبال العلماء ورجال الدين والسياسة.

خاض معارك جهادية منذ (١٩١٤م) حتى وفاته (١٩٥٤م) مع السيد الحبوبي وفي ثورة العشائر سنة (١٩٣٦م)، وفي حركة مايس (١٩٤١) وهكذا.. ترأس زعامة المسلمين في مؤتمر القدس في القدس الشريف عام (١٣٥٠هـ) وقلّد رئاسة المسلمين والإمامة في الصلاة، وخطب خطبة بليغة إستمرت ثلاث ساعات. وترأس مؤتمر علماء المسلمين في باكستان عام (١٩٥٢م) وقلّد رئاسة المؤتمر، وصلى بهم جماعة، وكرمّ بالقلادة الماسّية، ووضعوها في عنقه الشريف.

ولدى عودته منه كرَّمه كلّ شعراء النجف الأشرف، وتميّزت قصيدتان منها قصيدة الوالد الشيخ علي الصغير، ومطلعها:

بـعـلاكَ يـفـتـتـحُ الحـديـثُ ويُـنـشرُ   فـكـأنـهُ الـتـوحـيـدُ إذ يـتـكـررُ

ولما تلا المطلع، قام الشيخ واقفاً وقال هذا شعرُ يقام له ولا يقعد وهكذا فعل في قصيدة العلامة الشيخ عبد المنعم الفرطوسي ومطلعها:

لـلـفـتـح آيـــاتٌ بـوجـهـك تـعـرفُ   هـل أن طلعتكَ السعيدةَ مصحفُ

حتى إذا وصل الى قوله:

تـتـلَّـهـف الـدّنـيـا عـلـيـكَ كـأنـما   هي قلبُ يعقوبٍ.. وشخصُك يوسفُ

قال له الإمام كاشف الغطاء: أنت المتنبي؟ فأجابه الفرطوسي:

ما قيمة المتنبي يا سيدي؟ المتنبي يمدح سيف الدولة وأنا أمدح سيف الإسلام فعجّ الاحتفال الذي أُقيم في مدرسته العلمية بالتصفيق والاستعادة.

وكان أول شعري في رثائه بقصيده مطلعها:

بـــاقٍ عـلى مـر الـعـصـور مخـلـدُ   ذكـر الحـسـين مـع الـشـفـاه يـردد

وقد تليت في المهرجان المنعقد لتأبينه في مسجد الشيخ الانصاري.

وأما المرجعية العليا لآل كاشف الغطاء بعامة فهي بحاجة الى دراسة مستقلة في مؤلف خاص ينهض بها عسى ان يوفقنا الله تعالى للكتابة عن ذلك ابتداءً من الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء الى الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء فقد يتجاوز عددهم عشرة مراجع والله الموفق.

مرجعيّة الإمام السيد حسين الموسوي الحمامي (ت١٣٧٩هـ)

أحد نوابغ العلماء، جادٌّ في العلم والعمل الصالح، أبوه أحد تجار النجف الأشرف المتواضعين، رغب إليه ولده في الدراسة الحوزوية، فبارك له الآب العاقل الحصيف هذه الخطوة، ووافق على ذلك، فأعتمر العمامة، وسكن (المدرسة البادوكية) وواصل الدرس مقدماتٍ ومبادئ، ودرس العربية والبلاغة والمنطق والفقه الفتوائي ثم الفقه الاستدلالي فالأصول، وبرع بذلك كلّه، وزوجه أبوه، فكان يأتي البيت في العطلة (الخميس والجمعة) ولا يبارح تحصيله في المدرسة، حتى حضر بحث زعيم الأحرار الأخوند، وحضّار درسه وفقهم الله جميعاً، وقد ذكر اغا بزرك أن عدة طلابه كانوا (١٢٠٠) طالب، بينما ذكر الشيخ علي الشرقي في (الأحلام) أنهم ثلاثة آلاف طالب، فإذا خرجوا من بحث الأخوند في مسجد الهندي، أكتضت الشوارع المحيطة به والمؤدية الى الصحن الحيدري بالعمائم السوداء و البيضاء.

ولدى وفاة السيد أبو الحسن قدمته الحوزة العلمية العربية للصلاة بمكانه عند (باب الفرج) وهو الباب الذي يدخل به الى الصحن الشريف من شارع الصفا (صافي صفا).

وكان إختصاصه بالأخوند الخراساني، وروي أنه من حضّار مجلس الإفتاء، كما وروي أنه تكلّم في مسألة علمية، فودّعه الأخوند الى الباب، ونفحه بعشر ليرات ذهبية، وهو مبلغ ضخم في حينه، وإستمر على الدرس والمباحثه في مسجد الهندي، ومسجد مراد قبال المسجد الطوسي، وأصبح من أبرز مراجع التقليد في عصره، الى جانب الإمام السيد محسن الحكيم والإمام محمد الحسين كاشف الغطاء، وبقية المراجع العظام.

ولدى وفاته دُفن في مقبرة الحاج مراد في مسجده، وأتى عليها فتح سارع وتوسعته، فنُقل الى حيث مقبرته اليوم في شارع الإمام زين العابدين عليه السلام، وأجمعوا (شهود العيان)، أن جثمانه الطاهر لم يتغّير، وكأنه توفّي من يومه، ورثيّته في قصيدة في حفلة تأبينه مطلعها:

حفّوا بنعشكَ والجموعُ تُكبِّرُ ... فكأنه فلك.. وأنت المحورُ

ترجمت له ترجمة وافية في كتابنا (قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف).

***

مرجعيّة الإمام الشيخ عبد الكريم آل الشيخ أحمد الجزائري (ت ١٣٨٠هـ)

مجتهد مطلق، وزعيم ديني مطاع، ومجاهد في سبيل الأمة والوطن، أفنى حياته في خدمة الناس، وأذاب عمره في الذب عن شريعة سيد المرسلين، وقضى زهرة شبابه وأيام كهولته وحياة شيخوخته مدافعاً عن الحق، ومكافحاً الأستعمار والألحاد والتبعية، عُين وزيراً للمعارف في أول وزارة عراقية (١٩٢١م) مع عبد الرحمن النقيب، فرفض ذلك، بل استهزأ به.

وبقي في حياته الى جنب العلماء الأعلام الأخوند والسيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ النائيني والسيد ابو الحسن الموسوي والشيخ محمد تقي الشيرازي وشيخ الشريعة الأصفهاني مشيراً ومستشاراً وخبيراً في شؤون الدنيا والدين، ونصّب نفسهُ شاخصاً للدفاع عن العراق وعروبة فلسطين، وإستقلال الجزائر وقضايا المغرب العربي.

أتخذ من بيته منبراً لتدريس الفقه والأصول خارجاً، وإجتمع عليه كوكبةٌ من طلّاب الحوزة الفضلاء، وكان يلقي بالمسألة أو الفكرة ويطرحها على تلامذته للنقاش والتوصّل الى الرأي السديد بكل تواضع وموضوعية.

وإتخذ من مسجد آل الجزائري، وهو قرب بيته في (محلة العمارة) محراباً لإقامة صلاة الجماعة وإمامتها، وقد ازيل بيته والمسجد كبقية منازل العلماء بحجة التخطيط العمراني، واصبحت (محلة العمارة) هي مقر المراجع والعلماء والحوزة قاعاً صفصفاً.

وكان أخوه الأصغر العالم، الشاعر، الأديب، الحكيم الشيخ محمد الجواد الجزائري ساعده الأيمن في كل القضايا السياسية والاجتماعية، حُكم عليه بالإعدام من قبل الإنكليز قُبيل ثورة العشرين هو السيد محمد علي بحر العلوم، وأحدث ذلك ضجّة

فأُطلقا بشفاعة قائد الثورة الشيخ محمد تقي الشيرازي، وسفّرا خارج العراق، فكان تسفيره الى المحمرة (خرم شهر) ونزل ضيفاً عند الشيخ خزعل الكعبي أمير المحمّرة، وقد صوّر آلام الأمة وآمالها في قصيدته النونية ضد الأتراك والأنكليز معاً، ومطلعها:

مَــدَدْنــا بـصـائـرنـا لا الـعـيـونـا   فـثـرنـا.. غــداة عـشـقـنـا المـنـونـا

توفي عام (١٩٥٩م) وتوفي أخوه الشيخ عبد الكريم عام (١٩٦٠م = ١٣٨٠هـ) وأقيمت له عدة فواتح، وعقد له حفل تأبيني في اربعينيّته ورثاه القادة السياسيون والأدباء والشعراء: منهم الشيخ محمد رضا الشبيبي (ت ١٩٦٥م) والأستاذ محمد مهدي كبة رئيس حزب الإستقلال (ت١٩٨٣م) والدكتور عبد الرزاق محي الدين(ت١٩٨٣م) والشيخ عبد الغني الخضري (ت١٣٧٧هـ) وكان مطلع قصيدتي في رثائه:

فَـجـعـت بـخـطـبـك الجـلـل الـبـلادا   وأثـكـلـت الـعـقـيـدة والجـهـادا

وقد ترجمتُ له ترجمة ضافية في كتابنا (قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف).

***

مرجعيّة الإمام السيد عبد الهادي الحسيني الشيرازي (ت١٣٨٢هـ)

بطل العلم المجاهد، ومثال القداسة والإخبات والإنابة، ورجل الصلاح والإصلاح، ووريث المجد التالد والطريف، والمرجع الكبير الذي رجع له أهل الفضل والعلم في النجف الأشرف، وعموم الناس في العالم الإسلامي، وقد أصبح مرجعاً عاماً بعد وفاة الشيخ محمد رضا آل ياسين (ت١٣٧٠هـ) وكان هو والإمام السيد محسن الحكيم (ت١٣٩٠هـ) في عرض واحد، وبينهما من الأحترام والحب المتبادل ما هو معروف لدى الحوزة العلمية في النجف.

أتخذ قُدّس سره من مسجد الشيخ الأنصاري مقراً للبحث الخارج العالي فقهاً وأصولاً ولإقامه صلاة الجماعة بإمامته، وكان منبر تدريسه غاصاً بمئات الطلاب حتى حينما فقد كريمتيه (العينين) وأصبح بصيراً، وكان يألم لهذه الحالة أن لا يستطيع يباشر شؤون الناس وأمور البحث الخارج كما يريد، وأن لا يعرف من يسلم عليه ألا من خلال صوته. دخل عليه زائراً له الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ) وجلس الى جنبه، وقبّل يده، فسأل عنه فقيل: الإمام كاشف الغطاء، وتأثر كثيراً إن قبل يده، وهو أكبر منه سناً، وله مكانته العظمى في العالم الإسلامي؛ وعاتبه على تقبيل يده فأختصر الإمام كاشف الغطاء الجواب بالقول: هكذا أمرنا أن نفعل بذرية رسول الله ﷺ وقد أستغل نفر من الناس عمى عينيه، للتشهير به كيداً له ولآخرين، فأُصدر منشوراً في بغداد في(١٣٨٠هـ= ١٩٦٠م) يقول المنشور (أنه لا يجوز تقليد الأعمى) ويريدون بذلك الإمام الشيرازي وأتهموا جماعة السيد الحكيم بذلك ظُلماً وعدوانا، وأتفق في

الوقت نفسه أن أقيم المهرجان العالمي في النجف الأشرف ودعي له سيدي الوالد الشيخ علي الصغير لنظم قصيدة من قبل اللجنة العليا فكانت تحاذر مني لئن الوالد حينما انتقل الى بغداد عالماً دينياً وممثلاً للمرجعية العليا وإماماً لجامع براثا، وكنت قد برزت في الشعر وترك الوالد الشعر ولم يعد مناسباً له، وكم كان عجبهم كبيراً، حينما أظهرت الموافقة على ذلك وهم يريدون إبعادي عن المهرجان - خلافاً لرغبة السيد الحكيم - وكانوا يعتقدون أني سأعارض إشتراك الوالد في الحفل، فغادرونا شاكرين.

قلت للوالد: القصيدة نتعاون على نظمها، ولي رأيّ يجب أن نتشاور فيه!! قال: ما هو؟ قلت له: أنت الوكيل العام للسيد الحكيم في بغداد، وأنت تعلم هذا المنشور الضال المضلّل، وقد أتهم به جماعة السيد الحكيم نكاية بالسيد، فعليه: حينما يمدح السيد الحكيم في القصيدة تشرك معه السيد الشيرازي بذلك، فوافق وإتفقنا على هذا، فقال رحمه الله والضمير في البيت يعود الى النجف، إذ قال في قلبه (فأسلم أيها النجف) ثم أضاف:

يحمي (الحكيمُ) علاهُ إن همُ حشدوا ... غيـاً.. ويحرسه (الهـادي) إذا زحفوا
همـا إمـامـانِ إن قـامـا.. وإن قعدا ... وقـائـدانِ.. فـما ذلّـوا.. ولا أنحرفوا

وكان رسول الله ﷺ قد قال في سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام: (الحسن و الحسين إمامان قاما أو قعدا).

فكان لهذين البيتين دويّ في المحافل والأسواق في كل من النجف الأشرف، وكربلاء المقدسة، والكاظمية و بغداد. وبذلك إنتهت الإتهامات الظالمة إذ وكيل الإمام الحكيم يؤكد على حفظ النجف وحمايته بالسيد الحكيم والسيد الشيرازي على حدٍ سواء. وهنا قامت قيامة (الرتل الخامس) مما يسمى بالبطانة والحواشي، -وطبعاً غير المتدينيّن منهم- وسلقَتْ الوالد بألسنةٍ حدادٍ.

رحم الله الحُجّة المجاهد الشيخ محمد الجواد آل الشيخ أحمد الجزائري، فقد قال: (العلماء كالبحر طاهرُ ومطهّرُ، ولكن الحواشي تكثر عليها النجاسات) وكنا نتوقع هذا الشي، فذهب الوالد الى السيد الحكيم قدس سره وأخرج (وكالته العامة من قبله) وأعطاها إياه، فأستغرب السيد الحكيم، فأخبره بالموضوع قائلاً:

أردت الدفاع عنك حينما أشركت السيد الشيرازي بالمديح معك، لئلا يتهم الناس، فوكيلك يردّ على هذه الشائعات وتلك المناشير.. فشكره السيد الحكيم كثيرا، وأعاد إليه الوكالة، وخولهّ بأتخاذ قرار ما يراه مناسباً.

ليس هنا مجال الحديث عن السيد عبد الهادي الشيرازي، فقد كتبت عنه بحثاً متوازناً بإذن الله تعالى في كتابنا القادم (أساتيذ الحوزة العلمية العليا في النجف الأشرف) بأذنه تعالى.

* * *

مرجعيّة الإمام الأكبر السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ)

هو السيد محسن بن السيد مهدي بن السيد صالح بن السيد أحمد بن السيد محمود بن السيد إبراهيم بن الأمير السيد علي الحكيم الطباطبائي النجفي.

ينتهي نسبه الى الإمام الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولد في يوم عيد الفطر عام (١٣٠٦هـ = ١٨٨٩م)، وفقد أباه، وهو في السادسة من العمر، فتكفّل رعايته أخوه الأكبر الحجة السيد محمود (ولد ١٢٩٨هـ وتوفي ١٣٧٥هـ) نشأ في النجف الأشرف طالباً في الحوزة العلمية المباركة، وتنقل في حياته الدراسية الحافلة، فأتقن المقدّمات على يد أخيه الأكبر المقدّس الورع السيد محمود الحكيم، وأخرين من فضلاء الحوزة.

تفرّغ للبحث الخارج والدراسات العليا فقهاً وأصولاً ودرايةً على أشهر علماء عصره، من أساطين المعرفة الإنسانية الشاملة، وأبرزهم:

١. المولى الشيخ محمد كاظم الخراساني الأخوند (ت١٣٢٩هـ)
٢. القائد المحنك السيد محمد سعيد الحبوبي (ت١٣٣٣هـ)
٣. أستاذ الفقهاء الشيخ الميرزا محمد حسين الغروي النائيني (ت ١٣٥٥هـ)
٤. الشيخ الأفخم أقا ضياء الدين العراقي (ت١٣٦١هـ)
٥. الشيخ علي باقر الجواهري النجفي (قدس سره)

وهؤلاء الأعلام أئمة الفن في علمي الفقه والأصول، وأعلام الدراية والحديث، ورجال السلوك والعرفان، وقد تخرّج الإمام الحكيم (قدس سره) في مدارسهم، وجدد كثيراً من مطالبهم، وأضاف عليها، وزادها تأصيلاً.

وكل من هؤلاء الأساتيذ كان ذا مدرسة خاصة قد ينفرد فيها وقد يشاركه بجزء منها أفذاذ آخرون.

قلت في عمل سابق: (كم من جهة طلبت الي، وكم من طبقة الحت عليّ - ومنذ ربع قرن - وبهم الفقهاء، والعلماء، والزعماء، وقادة الفكر أن أكتب عن الإمام السيد محسن الحكيم جزءاً ولو ضئيلاً مما يشير الى سيرته المُثلى، وأن أتناول قيادته الرائدة بالبحث والتمحيص، أو أدوّن ما يعلق من الذكريات الأثيرة بالتسجيل أو رسم صورة مما واكبته من مسيرته الفذة... فأتردد في ذلك لئلا أقصر في تصوير شخصيته، فلا أفي بإعطائه حقّ منزلته.. حتى أملت عليّ الظروف المريرة التي يمرّ بها واقعنا المعاصر، وفي تشويه لحقائق التاريخ، وتزيف لوقائع الأحداث، وهي تتناول سدّة الإمام الحكيم بالغمز واللمز حيناً، وإضفاء ستائر من الضبابية على حياته الناصعة حيناً آخر، فجرَّحت به ما شاء لها التجريح، ونددت بمسيرة مرجعيته ركضاً وراء السراب الكاذب إرضاء للحقد الدفين، واستجابة للهوى.

كناطح صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها: وأودى قرنه الوعلُ

فأتكلت على الله مقتطفاً ثمار خمسين عاماً من الذكريات[1].

وليت شعري ماذا يرجو هؤلاء الخائنون للفكر المرجعي، وللسيد محسن الحكيم بالذات، وقد قدّم على مذبح العقيدة أكثر من مائة بين قتيل وشهيد.

وما أحكام الإعدام وتنفيذها في أبنائه وأبناء أبنائه وأبناء بناته وأبناء عمومته ما بين(٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م حتى ٥/ ٣/ ١٩٨٥م) إلا دليلاً على ما نهد به من عظائم العطاءات في سبيل الله لا لجرم بل لأنهم أبناء السيد الحكيم، يضاف اليهم من أُعدم وسُجن وفُقد

(١) أنظر/ المؤلف/ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ السيد محسن الطباطبائي..... زعيمًا/ ٨٥-٨٦/ مؤسسة البلاغ/ بيروت/ الطبعة الثالثة/ ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

بعد أحداث (١٩٩١م) لدى إحتلال الكويت بما يسمى بالإنتفاضة الشعبانية، والذين سنثبت أسماء أغلبهم في هذا البحث الموجز.

كانت حياة سيّدنا الإمام الحكيم محاطة بمشاكل عديدة، فما أستراح يوماً إلا بمجاهدة يوم آخر، ويمكن الألماع بإيجاز الى نوعية هذه المشاكل:

١- هموم المرجعية، وتعنى بتنظيم شؤون الحوزة العلمية توجيهاً وإرشاداً وتدريساً وإعالة، وهذا الأمر ليس بالأمر الاعتيادي فهو يستقطب حياته اليومية في الإدارة، مضافاً الى الاستفتاءات من مختلف أقطار العالم وهو يُجيب عليها، أو يحيلها الى أبرز تلامذته للإجابة عليها، ثم تعرض عليه فيعدّلها أو يُمضيها، يضاف لهذا الأسئلة الشفوية اليومية - عدا التدريس- من قبل أهل العلم أو أصناف الشعب، وذلك يتطلب صدراً رحباً وصبراً طويلاً، والمشكلة الأكبر في هذا الملحظ توزيع الحقوق الشرعية على أهل العلم والفقراء والمرضى وذوي الحاجة، وهم كثيرون، والحقوق قليلة جداً، ولا يعرف أداءها إلا القلة النادرة، فبعد ربع قرن من مرجعيته، كانت التركة من الحقوق (٣٥) خمسة وثلاثين ألف دينار لدى وفاته في (١/ حزيران/ ١٩٧٠م).

٢- المشاكل العشائرية التي طالما أشغلت وقته وفكره في كيفية فض النزاع والخصومة بين أفراد العشيرة الواحدة، وبينها وبين العشائر الأخرى والتي تصل الى سفك الدماء دون سبب وجيه، والسيد قدس سره، كان يتغلّب على هذا المناخ المتفجِّر بأرسال الوفود من النجف الأشرف الى أغلب قصبات الفرات الأوسط للوقوف على الأسباب والدواعي وإيجاد الحلول المناسبة لذلك، ولا يقوم بإطفاء النائرة إلا تلك الطبقة العاقلة الرصينة من أهل العلم والوجهاء وزعماء العشائر، ومن قبل أبنائه البررة.

٣- تطوّر الأوضاع السياسية في عصره منذ الأربعينات من القرن العشرين حتى وفاته في السبعينات، فقد واكب العهد الملكي في مشكلاته منذ حركة رشيد عالي الكيلاني،

وهرب العائلة المالكة في (١٩٤١م) حتى القضية الفلسطينية وأحداث التقسيم وقيام دويلة إسرائيل، الى رفضه مقابلة الملك والوصي ونوري السعيد في (١٩٤٩م) وما بعدها الى أحداث النجف وبغداد في وزارة نور الدين محمود العسكرية (١٩٥٢م) و مظاهرات النجف والمقابلة بين الجيش والشعب وعدم تنفيذ أوامر إطلاق الرصاص على المتظاهرين من قبل الضباط الأحرار، وكذلك الحال فيما قبلها من أحداث معاهدة (بورتسموث) ووثبة كانون الثاني (١٩٤٨م) الى قيام العراق والنجف الأشرف بخاصة لدى الاعتداء الثلاثي على مصر عام (١٩٥٦م)، وإضراب العلماء عن الصلاة والتدريس لمدة خمسة عشر يوماً بالاحتجاجات على أثر مقتل الطلاب في الثانوية، وإرساله برقية الاستنكار للملك فيصل الثاني، ومقابلة وفد الدولة المؤلف من الحاج عبد الهادي الجلبي وعبد الوهاب مرجان، وخيون العبيد........ الخ.

وعند سقوط النظام الملكي وقيام ثورة / ١٤ تموز / ١٩٥٨م وأبراقه لعبد الكريم قاسم هو والعلماء محذرين ومنذرين من أتباع سلوك ما قبلهم، الى الفوضويّة التي أحدثها الحزب الشيوعي العراقي في النجف وبغداد والمسيب والموصل والفرات الأوسط، الى تحريم الانتماء للحزب الشيوعي، الى تدخله الى جانب الضباط الأحرار، وتوصيته بعدم تنفيذ أحكام الإعدام في حركة الشّواف في الموصل، لاسيما في الزعيم الركن ناظم الطبقجلي والعقيد رفعت الحاج سري رئيس خلية الضباط الأحرار الى إعدامهم مراغمةً لأوامره، الى مقاطعة الدولة لهذا ولقانون الأحوال الشخصية وعدم استقباله عبد الكريم قاسم ورفضه لذلك رفضاً قاطعاً، حتى أحداث ثورة ١٤ رمضان / ١٣٨٣هـ = ٨/ شباط / ١٩٦٣م وما جرى فيها من الانتقام الدموي مطالباً بالعقلانية وتحريم سفك الدماء، الى حركة (١٨ تشرين / ١٩٦٣م) والتي تزعمها عبد السلام محمد عارف وإغراق البلد بطائفية بغيضة لا أول لها ولا آخر، وأمر السيد الحكيم بإقامة الاحتفالات والمهرجانات لصد ذلك التيار البغيض الى قيام (١٧ / تموز / ١٩٦٨م)، والمشكلات

الكبرى التي عانى منها الشعب العراقي، الى أحكام الإعدام العشوائية والمعتقلات الرهيبة الى استنكاره ذلك الى أتهام ولده السيد مهدي بالجاسوسية الى مقاطعته للنظام والتدريس وصلاة الجماعة الى وفاته.

ولكن ما جرى بعد وفاته أعظم وأعظم من أن يتصوّره أحد لاسيما بالقبض على آلاف الزائرين من المواكب الزاحفة نحو الحسين عليه السلام في زيارة الأربعين، بما فيهم ولده السيد محمد باقر، وقد حُكم عليه بالسجن المؤبد، وإعدام كوكبه من شباب النجف الأشرف الى القبض على أسرته، وإعدام العشرات منهم وإعتقال العشرات الآخرين لمدة ثماني سنوات، في فوضى عارمة من الإرهاب الدموي لا اول لها ولا أخر، وسأقوم بكشفٍ إحصائي قدر المستطاع بذلك، بالشهداء وأبرز المسجونين بعد ذكر وفاة السيد الحكيم قد سره.

ونتيجة إعتكاف السيد الحكيم في داره بالكوفة، وخروجه يوماً في الأسبوع الى الحرم الشريف، وتكثيف الحكم لممارساته في الأستبداد والدكتاتورية وكمِّ الأفواه وخنق الأصوات، مما جعل حالته الصحية تتدهور، فغادر - بعد اللتيا والتي - الى لندن، ورقد في أحدى مستشفياته (لندن كلنك)، وقد أُصيب بسرطان المثانة، وكان عمره الشريف أربعة وثمانين عاماً، وقد أنهكته الهموم والأحزان والوضع الخطير في العراق، وعاد، العراق في مايس ١٩٧٠م، بعد أن فقد الأطباء في لندن الأمل في شفائه، ورقد بمستشفى ابن سينا ببغداد وهو قرب القصر الجمهوري ومجلس الوزراء فما زاره احد من المسؤولين قط! وأصبحت ساحة المستشفى الأمامية، وحدائقه ميداناً لآلاف العائدين، وكانت رؤيته تقتصر على بعض الأعلام والمستشارين لمنع الأطباء لذلك.

وقد زرته عائداً وهو في تلك الحال، وعلى سرير الموت، كان شاحباً، تغلب على وجهه الحمرة، وهو نحيف الجسم بشكل ملفت للنظر، فأنشدته:

نَــذَرَ الــنـاسُ يــومَ بــرئــكَ صومـاً   غـير أني نــذرتُ وحــدي فِـطـرا
عــالِمــاً أن يـــومَ بـــرئِـك عــيـدٌ   لا تــرى صـومَـهُ وأن كــانَ نـذرا

فأستحسن ذلك، وأعاده مراراً..

وفي يوم (٢٦/ ربيع/ ١٣٩٠هـ = ١/ حزيران/ ١٩٧٠م) أنتقلت روحه الى الرفيق الأعلى ونعته الإذاعات العربية والعالمية، ونُقل جثمانه بعد تغسيله من قبل ولده الشهيد السيد محمد باقر الحكيم الى الحرم الكاظمي المقدّس حيث سجي هناك، وبات ليلته في حرم الإمامين الكاظمين، وصباح اليوم التالي زحفت الجماهير.. فشُيع الى النجف الأشرف، ودُفن في مقبرته التي أعدّها لنفسه عند مكتبته العامة جوار المسجد الهندي(١).

وإليك الأن كشفاً إحصائياً قدر المستطاع بأسماء من حكموا بالإعدام من أفراد أسرة الامام الحكيم، وما تعرضوا له من إنتهاك لحقوقهم في عهد الطاغية صدام حسين التكريتي، والذين أعتقلوا في ١٠/ ٥/ ١٩٨٣م وأُعدموا في التواريخ بإزائهم في عدة وجبات أبتدأت في ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م وإنتهت بعد أحداث ١٩٩١م هذا عدا المعتقلين الذين أُطلق سراحهم بعد ٨ الى ٩ سنوات.

١. السيد عبد الصاحب السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م.
٢. السيد علاء الدين السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م وكان قد أعتقل قبل ذلك بسنتين.
٣. السيد محمد حسين السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م.
٤. السيد كمال السيد يوسف السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م.

---

(١) ظ: تفاصيل التشيع في بغداد وكربلاء والنجف، ومراسيم الدفن في كتابنا: أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف، ١٦٣- ١٦٥.

٥. السيد عبد الوهاب السيد يوسف السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م.

٦. السيد احمد السيد محمد رضا السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٢٠/ ٥/ ١٩٨٣م.

٧. السيد عبد المجيد السيد محمود الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

٨. السيد عبد الهادي السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

٩. السيد حسن السيد عبد الهادي السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٠. السيد حسين السيد عبد الهادي السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١١. السيد محمد رضا السيد محمد حسين السيد سعيد الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٢. السيد عبد الصاحب السيد محمد حسين السيد سعيد الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٣. السيد محمد السيد محمد حسين السيد سعيد الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٤. السيد ضياء الدين السيد كمال الدين السيد يوسف السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٥. السيد بهاء الدين السيد كمال الدين السيد يوسف السيد محسن الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٦. السيد علي السيد جواد الحكيم أعدم يوم ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

١٧. السيد محمد رضا السيد محسن الحكيم الشهيد المفقود بعد احداث ١٩٩١م.

١٨. السيد محمد حسن السيد محمد علي السيد أحمد الحكيم قتل بالسجن ونقل الى المستشفى، وسلمت جثته الى والده، ودفن بحضوره...الخ.

١٩. السيد محمد علي جواد الحكيم أعدم في ٥/ ٣/ ١٩٨٥م.

٢٠. السيد احمد السيد محمد جعفر محمد صادق الحكيم الشهيد المفقود.

٢١. السيد علي السيد سعيد الحكيم الشهيد المفقود عند احداث ١٩٩١م.

٢٢. السيد طالب السيد رسول الحكيم الشهيد المفقود لم يعتقل مع العائلة.

٢٣. السيد علي السيد عبد الرزاق الحكيم الشهيد.

٢٤. السيد يحيى السيد حسن الحكيم الشهيد.

٢٥. السيد جابر السيد جواد السيد إبراهيم الحكيم أستشهد بالسم بالأمن العامة.

٢٦. السيد هاشم السيد محسن السيد سلمان الحكيم الشهيد المفقود.

٢٧. السيد مهدي السيد باقر الحكيم الشهيد المفقود لم يعتقل مع العائلة.

٢٨. السيد مهدي السيد صالح السيد جواد الحكيم الشهيد المفقود لم يعتقل مع العائلة.

٢٩. السيدة فاطمة السيد حسن السيد ماجد الحكيم الشهيدة المفقودة لم تعتقل مع العائلة.

٣٠. الآنسة زينب السيد مهدي السيد باقر الحكيم الشهيدة المفقود.

٣١. السيد محمد رضا السيد صالح السيد جواد الحكيم الشهيد المفقود لم يعتقل مع العائلة.

٣٢. السيد عبد الأمير السيد حسن السيد ماجد الحكيم الشهيد لم يعتقل مع العائلة.

٣٣. السيد حسن السيد حسين الحكيم قتل بعد دقائق من اعتقاله بمديرية أمن النجف.

٣٤. السيد حميد السيد مهدي السيد باقر الحكيم الشهيد المفقود.

٣٥. السيد سعيد السيد حسن الحكيم الشهيد المفقود.

٣٦. السيد علي السيد محمود السيد عباس الحكيم الشهيد المفقود.

٣٧. السيد حسن السيد محسن الحكيم أستشهد.

٣٨. السيد علي السيد صالح الحكيم أستشهد.

٣٩. السيد علي السيد يوسف الحكيم أستشهد.

٤٠. الطيّار السيد عصام السيد عبد الحسين الحكيم أستشهد طيار.

٤١. السيد محمود السيد نوري الحكيم أستشهد.

٤٢. السيد مجيد السيد مهدي السيد باقر الحكيم الشهيد المفقود.

٤٣. السيد علي السيد عبود الحكيم الشهيد المفقود.

٤٤. السيد احمد السيد مرتضى السيد محمد علي الحكيم الشهيد المفقود.

٤٥. السيد عباس السيد مرتضى السيد محمد علي الحكيم الشهيد المفقود.

٤٦. السيد مرتضى السيد محمد علي الحكيم الشهيد المفقود.

٤٧. السيد محمد باقر السيد محسن الحكيم شهيد المحراب فجرت سيارته في النجف الاشرف ١/ رجب/ ١٤٢٤هـ.

٤٨. السيد مهدي السيد محسن الحكيم أستشهد بالسودان إغتيالاً ١٧/ ١٢/ ١٩٨٨م.

٤٩. السيد علي السيد حسن الحكيم أستشهد.

٥٠. السيد محمد حسن السيد محمد جعفر الحكيم أستشهد بعد احداث ١٩٩١م.

***

مرجعية الإمام السيد محمود الحسيني الشاهرودي (ت ١٣٩٤هـ)

المرجع الديني الكبير، والسيد التقي النقي، والعارف بالله الزاهد العابد، من كبار مراجع التقليد في العالم الإسلامي، سليم الذات، طيب القلب، حاضر النكتة، بعيد عن العنعنات، والإعتبارات الزائلة، يحترم الكبير ويعطف على الصغير، يُكرم الوافدين عليه بتخصيص السؤال، والأستفسار عن الحال ببسمةٍ رقيقة، وخلقٍ زكي، وتواضع جميل، وأدبٍ جم، وترسّل محمود.

كنت أتشرف بخدمته، فيمدّ عصاه إليَّ ويقول: أنت صبحك الله بالخير، وكنت مستغرباً لأول مرةٍ من هذا!! فماذا يريد السيد بتوجيه العصا نحوي؟

حتى عرفت السبب في زيادة الإعتناء ومراسم التكريم، قُدس الله سره.

كان الميرزا علي النائيني الولد الأكبر لأستاذ الفقهاء الميرزا محمد حسين النائيني، يقيم مجلس العزاء في داره التي هي دار أبيه بإحدى وفيات الزهراء عليها السلام أو الأئمة، ويحضر المراجع والعلماء والفضلاء في باحة الدار والغرفة المطلّة عليها، وعادةً ما يكون المجلس حاشداً، وكان السيد الشاهرودي كبقية المراجع حاضراً، ولا سواد في المجلس، فأرتقى المنبر أحد الخطباء متجاهلاً قول البلاغيين وأهل الفصاحة (بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال) وإذا بالخطيب يعرض لتحريم الخمر، ويلح بالقول: لا تشربوا الخمر فإنه حرام، الخمر رأس كل رذيلة، أياكم وشرب الخمر....ألخ !! فرفع السيد الشاهرودي عصاه باتجاه الخطيب قائلاً ومشيراً الى المراجع الحضور: لا تتعب نفسك؛ الجماعة لا يتركون

شرب الخمر !! فضج المجلس بالضحك؛ وهكذا كان إذ الحاضرون ليس منهم من يفكّر يوماً ما بتناول الخمرة، ولا من هو أدنى منهم منزلة بمراحل، فكان السيد الشاهرودي بظرفه راداً على عدم معرفة المناسب من الكلام لدى الخطيب.

وكان من ترسُّل السيد الشاهرودي، أنه يقصد جسر الكوفة مع بعض جماعته للسباحة في نهر الفرات، وكان سابحاً ماهراً، وفي تلك الحالة قد يعبر النهر الى جانبه الآخر سباحةً، وهو يتندر بغرر الطرائف لإشاعة روح الغبطة والمحبة بين الناس !!

لا أطيل عليك هنا، فلقد ترجمتهُ ترجمةً وافية، ستصدر بإذن الله تعالى في كتابنا (أساتيذ الحوزة العلمية العليا في النجف الأشرف).

* * *

آية الله العظمى الشيخ حسين الحلّي النجفي

هو الشيخ حسين نجل الشيخ علي الحلي النجفي (ت١٣٩٤هـ) ولد في النجف عام (١٣٠٩هـ)، وترعرع في أحضان أبيه العالم الورع المقدّس الشيخ علي الحلي، بعد أن هاجر الى النجف الأشرف، فبلغ المرتبة العليا في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وهو يُعدُ رجل الزهد والتقوى، ورجل العلم والجهاد المعرفي، وكان زميلاً للشيخ علي رفيش آل عنوز أحد العلماء الأعلام في وقته، وكان يصلي جماعة في الصحن الشريف قرب (الكليدارية).

وعند وفاته أشار بأن يصلي مكانه الأستاذ الإمام الميرزا النائيني وعند وفاته (١٣٥٥هـ) صلّى مكانه الإمام السيد محسن الحكيم (ت١٣٩٠هـ).

وكان الشيخ حسين الحلي مؤيداً بالتوفيق الإلهي منذ شبابه المبكر، فقد وفق للتعايش المعرفي في ظل العلماء الأعلام والدرس الحوزوي المتجدد، وكانت تلوح عليه أمارات الذكاء وملامح النبوغ الفطري، وفي سن مبكرة جداً درس الأوليات من العلوم الإسلامية على يد والدهِ، ثم تدرّج الى السطوح على يد فضلاء الحوزة العلمية، ثم الى البحث الخارج العالي، فحضر عند الإمام السيد أبي الحسن الأصفهاني أكثر من دورتين أصوليتين وقيل فقرتين، ثم حضر عند آية الله الأصولي البارع الشيخ آغا ضياء الدين العراقي (١٣٦١هـ) أكثر من دورة في الأصول.

ثم لازم الأستاذ الأكبر الميرزا محمد الحسين النائيني الغروي (ت ١٣٥٥هـ) ملازمة يغبط عليها إذ أستمرت ثلاثين عاماً، إلتهم فيها علمه إلتهاماً، ووعى بها حديثه العلمي

أداء ومعرفة وضبطاً لمباحثه وفوائده وتقريراته الفقهية والأصولية، بل وسجل فتاواه بخط يده، وقد طُبعت مؤخراً بتحقيق العلامة المتميز الشيخ محمد جعفر النائيني حفيد الأستاذ الإمام النائيني قُدّس سره، وقد صدر منها مجلدان باسم (الفتاوى)، كما أن النائيني يعتمد عليه إعتماداً كلياً في دقائق الأمور وشتى المسائل، وهذا ما أكسبه شهرة عريضة في الوسط العلمي، وفي هذا الضوء أعتبر الشيخ حسين الحلي من أبرز مقرري البحث الخارج العالي في عصر الميرزا النائيني.

والنائيني يُعد أستاذ الفقهاء والمجددين والمجتهدين بعامة، ذو ذهنية وقّادة، وفكر متنوّر، وعقلية جبارة، واكب حركات التحرر في الشرق الأوسط فكتب عام (١٩٠٥م) رسالة في الفقه الدستوري لا زالت محط أنظار المسلمين وهي (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) وكان لي شرف تلخيص بعض مباحثها، والإشارة الى قيمتها الدستورية في العالم المتحضّر، وإلقاء الضوء الكاشف على جملة من فقراتها وذلك في كتابنا (قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف) بمبحث (الشيخ محمد حسين النائيني رائداً).

لقد كان لي شرف الاتصال المباشر بالشيخ حسين الحلي منذ أكثر من خمسين عاماً، وذلك في ديوان السيد علي آل السيد هادي بحر العلوم، وكان يرتاده وبشكل يومي جمهرة من العلماء الأعلام، وفضلاء رجال الدين، وأساتيذ الحوزة العلمية وأبرزهم الإمام السيد محسن الحكيم، وكان الشيخ الحلي متواجداً هناك يومياً، وكان الساعد الأيمن للسيد الحكيم في المسائل الفقهية والأصولية بحيث كان يحيل بعضها إليه ثم يلاحظها السيد الحكيم ويمضيها.

ولأن صورة السيد الحكيم راسخة في أذهاننا منذ الصبا، فقد كنا نعجب من إحترامه وتعظيمه وتبجيله لهذا الرجل البسيط في لباسه وبزته وسيرته ومشيته، ويستمع إليه بإنصات.

ذكر الدكتور السيد محمد بحر العلوم أنه سمع من آية الله الشيخ محمد علي الجمالي الكاظمي أحد أبرز تلامذة الميرزا النائيني يقول لأبي السيد علي بحر العلوم.

(خلِ صاحبك الشيخ حسين؛ يختار في المجالس مكانه اللائق ليجلس في صدر المجلس، ولا يتواضع كثيراً، ولا يجلس في آخر المجلس، فإنه يحرجنا لأنه أعلمنا، وعلينا أن نحترمه، فأين يكون موضعنا إذا لم يختر المكان اللائق به)[1].

وهذا التواضع المحبوب، والترسل المحمود من معالم عظمة الشيخ حسين الحلي وبجهود وتوجيه المرجع الأعلى السيد السيستاني دام ظله، وبأشراف مكتبه الخاص وولده البار السيد محمد رضا، قد حصل على بحوث الشيخ حسين الحلي في علم الأصول بخط يده، وقد صدرت حديثاً بأثني عشر مجلداً في طبعة حديثة منقّحة.

أما تلامذته الذين دّونوا تقريراته في الفقه والأصول، فلهم الفضل في عرفان منزلة الشيخ الحلي لدى الجيل الجديد، وأعرف من هذه التقريرات على سبيل النموذج لا الإحصاء:

١. تقريرات سماحة السيد علي السيستاني في الفقه والأصول.

٢. تقريرات سماحة السيد محمد سعيد الحكيم في الفقه والأصول.

٣. تقريرات الشهيد الشيخ ميرزا علي الغروي في الفقه والأصول.

٤. تقريرات السيد محمد تقي الحكيم في الفقه والأصول.

٥. تقريرات الشيخ حسن سعيد في الفقه خاصة.

٦. تقريرات السيد علاء الدين بحر العلوم في الأصول.

---

(١) محمد بحر العلوم/ كلمته في (المؤتمر الاستذكاري لشيخ الفقهاء، وأستاذ المراجع العظام الشيخ حسين الحلي / في شوال/ ١٤٢٧هـ تشرين الثاني/ ٢٠٠٦م الصفحة / ٣٣/ إصدار كلية الفقه/ جامعة الكوفة/ مركز النجف للثقافة والبحوث.

٧. تقريرات السيد عز الدين بحر العلوم في الفقه.

٨. تقريرات الشيخ محمد جعفر حفيد الميرزا النائيني الكبير.

ولقد أقامت كلية الفقه/ جامعة الكوفة بالتعاون مع مركز النجف للثقافة والبحوث (مؤتمراً تذكارياً) للمترجم في (شوال/ ١٤٢٧هـ - تشرين الثاني /٢٠٠٦) بمناسبة مرور (٣٣) ثلاثة وثلاثين عاماً على وفاته في الرابع من (شوال/ ١٣٩٤هـ)، وكان منهج المؤتمر على الشكل الآتي:

- مقدم المؤتمر الدكتور علي خضير حجي/ معاون عميد كلية الفقه.

برنامج المؤتمر:

أ. تلاوة مباركة من آي القرآن الكريم.

ب. كلمة الأستاذ الدكتور عبد الرزاق عبد الجليل رئيس جامعة الكوفة.

ج. كلمة عمادة كلية الفقه / الأستاذ الدكتور صباح عباس عنوز.

د. كلمة مركز النجف للثقافة والبحوث للسيد محمد علي بحر العلوم.

وكانت جلسة قراءة البحوث العلمية برئاسة كاتب هذه السطور كالآتي:

- العلامة الدكتور السيد محمد بحر العلوم.
- الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين علي الصغير.
- الأستاذ الدكتور حسن عيسى الحكيم.
- سماحة السيد محمد صادق الخرسان.

وقد طُبعت وقائع هذا المؤتمر وختمت بكلمة للأستاذ الدكتور علي خضير حجي وعنوانها (الشيخ حسين الحلي / إطلالة على سيرته).

مرجعية الإمام الخميني في النجف الأشرف

الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني (ت١٤٠٨هـ -١٩٨٩م).

مرجع كبير، وسياسي متمرّس، وزعيم رائد، قائد الثورة الإسلامية في إيران، ومفجّر طاقات الشعب الإيراني في اقتحام الدبابات، والوقوف وجهاً لوجه أمام الدبابات، حتى إسقاط نظام (الشاه محمد رضا بهلوي) شرطي الخليج في الشرق الأوسط.

وصل الى مطار المثنى الدولي في بغداد، قادماً من تركيا لاجئاً سياسياً في عهد الفريق عبد الرحمن عارف عام (١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م) حلّ ضيفاً - ولمدة ثلاثة أيام- في أحد بيوت آل الجمالي في الكاظمية، متشرفاً بزيارة الإمامين الجوادين عليهما السلام.

وتوجّه نحو كربلاء المقدّسة، حيث تشرّف بزيارة سيد الشهداء الإمام الحسين بن أمير المؤمنين علي عليهما السلام، وأخيه أبي الفضل العباس عليه السلام، وكان قرار بعض المقرّبين إليه أن يقيم في كربلاء، ولكنه أتجه للنجف الأشرف ويمم شطره، وعند وصوله إليه إستأجر بيتاً في محلة الحويش، قريباً من شارع الرسول المؤدي الى حرم أمير المؤمنين عليه السلام، والبيت لا تتجاوز مساحته ستين متراً، وإتخذ من طابقه الأول مجلساً لمقابلاته مع الطبقات كافة في غرفة متواضعة بسيطة (٣×٤) متراً مربعاً.

عند أول إستقراره زاره الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم، يرافقه السيد موسى السيد جعفر بحر العلوم، مرّحباً به أجمل ترحيب، فشكر السيد الخميني هذه المبادرة الرائعة من السيد الحكيم، وزاره في أيام إقامته الأولى كل من السيد الشاهرودي والسيد الخوئي، والعلماء الأعلام ورجال الدين والشخصيات النجفية.

إتخذ من مسجد الشيخ الأنصاري محراباً للصلاة جماعة، ومنبراً لتدريس (البحث العالي الخارج) وقد حضر لديه عشرات رجال الدين العرب والمهاجرين ممن يحسن اللغة الفارسية إذ كان درسه فارسي اللغة.

وأعلنت مرجعيته في النجف الأشرف - وإن كان مرجعاً من ذي قبل - بعد وفاة الإمام الحكيم في (١/ حزيران/ ١٩٧٠م = ٢٦/ ربيع الثاني/ ١٣٩٠هـ) الى جنب مرجعية السيد الخوئي والسيد محمود الشاهرودي وسواهما، وأجرى المرتبات الشهرية لجميع الحوزات العلمية في النجف الأشرف بالسويّة.

عاش في النجف الأشرف طيلة ثلاثة عشر عاماً عيشة الزاهدين، وأحياها حياة الأولياء والحكماء الربانيين، ومنزله المؤجر والقائم حتى اليوم بسيط في بنائه المتداعي، وبسيط في أثاثه وفرشه وصغير في مساحته ومتواضع جداً في ما يحتويه من مقتنيات عادية، وهكذا دار المتقين، علماً بأن وارداته الهائلة تغطي مصرف دولة صغيرة بالنسبة الى بقية المراجع، ولكنها كانت تصل الى الفقراء والمحتاجين وإدارة شؤون الحوزة العلمية مع بقية المراجع الآخرين.

أما حياته الاقتصادية، فكانت كأي أنسان لا يملك قوت يومه، وقد فهمت أن مصرفه اليومي كان بمعدل دينار وثلاثة دراهم، وقبل مغادرته العراق - بسنتين - أصبح المصرف اليومي له ديناراً وربع الدينار، فأستفسر عن سبب هذه الزيادة، فأخبروه بأن الطبيب أوصى أن لا يتناول الزيت النباتي، ورجح أن يكون دهناً حيوانياً، ومن هنا جاءت الزيادة.

في نظامه اليومي: الجلوس مبكراً للصلاة، وتناول الإفطار بما لا يتعدى الجبن أو الحليب والشاي، ثم التدريس صباحاً فقهاً، ثم الرجوع الى الدار لأستقبال الناس وإستقبال أنصاره المقيمين في النجف أو القادمين للسلام عليه من الخارج وما أكثرهم آنذاك.

وفي المساء كان مواظباً على الخروج لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام في تمام الساعة الثالثة غروبية شتاء وصيفاً، ويقطع المسافة - وهي لا تتجاوز المائة متر - سيراً على الأقدام، مطأطئ الرأس، متجهاً ببصره الى الأرض، في قوّة وفتوة، ولم يمسك بيده العصا على الأطلاق حتى في أيامه الأخيرة في النجف الأشرف، وقد تجاوز السبعين من العمر، وهو نشيط في منتهى الحيوية والطاقة البشرية، ثابت الخطى، حديد النظر، في عينيه بريق النبوغ والعبقرية، وفي دماغه تخطيط لأكبر ثورة في العالم في القرن العشرين.

كان يلتقي أغلب قياداته في النجف، والدولة لا تعرف شيئاً عن هذه اللقاءات بالمرة، ويكفي عندهم أنه معارض للشاه لا أكثر ولا أقل.

وكان إذا ذهب للحرم الشريف مع مرافق له أظنه الشيخ الفرقاني، يدخل من جهة باب القبلة، ويقف عند مدخل مقبرة المقدس الأردبيلي (ت٩٩٣هـ) لقراءة الفاتحة كما هي سيرة العلماء والمراجع وأهل العلم، ثم يدخل الحرم ويزور الإمام عن ظهر قلب، ويقف عند الرأس داعياً شاكراً ذاكراً، ويجلس على سجادة الصلاة قارئاً للقرآن، وكتب الدعاء، ويصلي ما شاء من الصلوات، ويستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة بقليل، ثم يتوجّه الى داره، لمتابعة أعماله والتحضير لدروسه يوم غد، والتخطيط لثورته وإعطاء التعليمات السرّية لأتباعه ومريديه من الشعب الايراني.

هذه سيرة يوم من أيام حياته لا أكثر ولا أقل.

وفي ظل أقامته في النجف الأشرف، أخذت الزيارات بينه وبين العلماء تترى وتتوالى، وكانت أحاديث الخميني تجري حول تغيير الأوضاع في كل من العراق وإيران، وضرورة الثورة التي تقلب الموازين السياسية رأساً على عقب، وهو في المنظور العصري ذو إرادة ثورية صلبة لا تلين، وذو تمسك بأهداف الثورة الحسينية.

قال في زيارة للإمام السيد محسن الحكيم بما مؤداه: لِمَ لا تكون ثائراً كجدك الإمام الحسين عليه السلام فأجابه الحكيم: ولِمَ لا تكون صابراً كجدك الإمام الحسن عليه السلام.

وجرى الحديث في هذا الضوء، وهو ما كان، وقد حرفه بعض المتملقين، وأعداء السيدين الحكيم والخميني!! ولصالح من؟ لا أدري!!.

حينما توفي الإمام الحكيم كنت مع الجثمان الطاهر من الكاظمية الى كربلاء، ومن كربلاء توجهت الى النجف للإطلاع على شؤون التشييع، وإذا بالمراجع خارج البلد -آنذاك- وقد فرش لهم بعضهم البسط على الأرض ما بين مدرسة عبد العزيز البغدادي ومحطة البنزين في إنتظار الجثمان، فسلمت على السيد يوسف أولاً ثم السيد الخوئي ثانياً، ثم السيد الشاهرودي ثالثاً، ثم ختمت ذلك بالسلام على السيد الخميني، وعلى عادتي كنت أستفسر عن صحّته، فيجيب بلغة عربية فصحى، ولذا فإننا نشكك بالمقولة أنه لا يحسن العربية مع بقاء ثلاثة عشر عاماً في النجف، وفي عقيدتي بإعتباره قائد أمة كان يتكتم على مشاريعه وتطلعاته وتنظيماته من السلطات، وحكومة فتاكة كحكومة الطاغية صدام حسين يجب الأحتراز الشديد منها، وهو صاحب نظرية في الحكم يريد إشاعتها بلغته وهي (ولاية الفقيه) ليبلغَ بها شعبه في إيران بلغتهم، وقد درّسها في مسجد الشيخ الأنصاري باللغة الفارسية من بين البحوث التي تدرس بالعربية، بأستثناء بحث سماحة الشيخ حسين الحلي الذي يحضر درسه أغلب فضلاء الإيرانيين والعرب ممن يتقنون اللغة الفارسية وهم أقلية بالنسبة لعلماء إيران حضار بحثه.

وهو يهدف الى فهم نظريته من قبل قيادته المرافقة له في العراق ولا يشعر بهم إلا القلّة، ويسجل هذا البحث، ويرسل الى إيران، وقد خطط للثورة الإيرانية في النجف الأشرف، ومن مسجد الشيخ الأنصاري المبارك.

وقد كتب الأستاذ عبد المجيد الرافعي عضو القيادة القومية لحزب البعث العربي الأشتراكي وهو لبناني عند نجاح الثورة الإيرانية كتب في الصحف بها مؤوداه أن الإمام الخميني: كان لديه في إيران (مائة ألف قائد) من خلال تسجيلات خطاباته النارية وبحثه في النجف الأشرف، وهؤلاء المائة ألف يتغلغلون في طبقات الشعب الإيراني، حتى فجرت الثورة.

وحينما أشتد الزخم الثوري في طهران زار وفد من إيران ولده السيد مصطفى بعنوان التفاوض على متطلبات الثورة، وكانت زيارتهم له بعد رفض السيد لمقابلتهم وهو لا يعلم، والمرّجح أن يكون هؤلاء قد دسوا إليه (السم) في الشاي في الصباح من (٢٣/ ١٠/ ١٩٧٧م =١٣٩٩هـ) توفي السيد مصطفى الخميني في فراشه، ونقل للمستشفى، وشكك الأطباء في وفاته ورفض السيد الخميني التشريح وقد أراده الأطباء، وفي خلال ثلاثة أيام جاء الى داري الحاج علي الخلخالي وبعض العلماء الايرانيين وقالوا: إن السيد لم تدمع عينه خلال (٣) أيام ولو خطبت بحضرته عسى أن تخفف عنه وتسليه، فذهبت لداره وكانت ساحة الدار صغيره وهو في صدرها وهي ممتلئة فنهض قائماً منتصباً على قدمه وتزحزح عن مكانه وأجلسني ولا مكان الى جنبه، فتحدثت لمدة أربعين دقيقة عمن فقد ولده في حياته متسلسلاً في التأريخ الإسلامي وما جرى للسيد أبو الحسن في ذبح ولده، وما جرى للإمام الحسين في إستشهاد علي الأكبر، فدمعت عينا السيد، فأرسل مبلغ (٥٠٠) دينار وهو مبلغ يساوي (١٥٠٠دولار) آنذاك لكاتب السطور فألتقى بالشيخ أحمد الأنصاري (أخوان أنصاري) وقال له هل لك صلة بالخميني قال نعم: قلت: أرجع له هذا المبلغ فلست محتاجاً، وأكتفي بدرهم واحد منه أبقيه لدي ذكرىً وبركة، وقابل الخميني وقال له: الدكتور الصغير هشام بن الحكم وهو أستاذ في الجامعة غير محتاج، وأرجع هذا المبلغ، قال: هذا من عمل المكتب، ولا علم لي به، والدكتور أعلى شأناً من المال.

وكان السيد الخميني في (٢٨/ ٣/ ١٩٧٥م) قد حضر الفاتحة المقامة على روح والدي الشيخ علي الصغير في مسجد الخضراء وهو مسجد المرجعية، وإستأذنت السيد الخوئي للفاتحة فيه فوافق، وأقام الفاتحة له بعد فاتحتنا، بأعتبار الوالد وكيله العام ببغداد.

وكان حضور السيد الخميني للفاتحة، وهو لا يقصد أحداً إلا نادراً مدعاة لتشكري منه، وذهبنا أنا وعمّي الشيخ عبد الحميد وجماعة من أهل العلم الى داره شاكرين داعين، وحينما توفّي ولده السيد مصطفى قمت بإسم (الهيئة العلمية العربية) بمجلس الفاتحة لمدة سبعة أيام، فأكبر ذلك الخميني إكباراً كبيراً، وبقيت الصلة مستمرة حتى مغادرته للعراق في (٤/ ١٠/ ١٩٧٨م) متجهاً الى الكويت وكنت آخر من ودعّه عند مدخل حرم أمير المؤمنين عليه السلام فقال بالحرف الواحد: وفقك الله شيخنا.

ومنع من دخول الكويت، فغادر الى فرنسا، وأستقر في (نوفل لوشاتو) في (٦/ ١٠/ ١٩٧٨م) وبقي هناك يقود الثورة بخطبه الناريّة حتى رحيل الشاه الى مصر في (٧/ ٢/ ١٩٧٩م) وأستقل الأمام الخميني (طائرة الموت) عائداً الى بلده في (٨/ ٢/ ١٩٧٩م) وأعلنت الجمهورية الإسلامية في (١١/ ٢/ ١٩٧٩م)، ثم بدأ عليها التصويت فكان بنسبة ٩٩٪ وعيّن الخميني الدكتور مهدي بازركان رئيساً للوزراء، ثم تم إنتخاب الدكتور بني صدر رئيساً للجمهورية وهو نجل آية الله السيد نصرالله بني صدر المرجع الديني في همدان والمدفون قرب المنارة الشمالية في الغرفة التي الى جانبها في الصحن الحيدري الشريف، ودفن فيها فيما بعد بالغرفة نفسها السيد مصطفى الخميني رحمه الله.

وفي (٢٢/ أيلول) ١٩٧٩م أعلن صدام حسين الحرب على إيران بحجج واهيه وإستمرت الحرب ثماني سنوات، وقد دّمرت البلدين فسقط من جرائها مليون قتيل من العراق ومثله أو أكثر من إيران، وقد عاثت القوات العراقية في البلدان الإيرانية المحتلة فساداً.

وأوقفت الحرب في (٨/٨/١٩٨٨م) على أثر قصف القوات العراقية للقوات الإيرانية بالأسلحة الكيمياوية (أسلحة الدمار الشامل) في الفاو.

وأضطر الأمام الخميني لإيقاف الحرب، وأصيب الخميني نتيجة هذه الحرب والدمار الهائل الذي لحق إيران بنزيف في الأمعاء، ورقد في المستشفى مدة من الزمن، وفي (٣/ ٦/ ١٩٨٩م المصادف ١٣/ ١٠/ ١٤٠٨هـ) لفظ أنفاسه الأخيرة وتوفّي، وشُيع تشييعاً مليونياً في طهران ودُفن في مقبرة الشهداء (بهشت زهراء) وصار مرقده مثابة للناس في قبته ومنائره الذهبية.

* * *

مرجعية الأستاذ الإمام الخوئي

هو السيد أبو القاسم بن السيد علي الأكبر بن السيد هاشم الموسوي الخوئي النجفي (ت ٨/ صفر/ ١٤١٣هـ = ٨/ آب/ ١٩٩٢م) يتصل نسبه بالإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام.

ولد في مدينة (خوي) من أعمال أذربيجان من أسرة عربية محضة أماً وأباً وجداً في (حي العرب) في (١٥/ رجب/ ١٣١٧هـ) هاجر مع أبيه الى النجف سنة (١٣٣٠هـ) وعمره ثلاثة عشر عاماً، وأقام في النجف الأشرف أكثر من ثمانين عاماً، يُضاف إليه ثلاثة أعوام مدرساً في الحوزة العلمية الكربلائية بناء على رغبة المرجع الأعلى السيد حسين القمي (ت١٣٦٦هـ).

قلت عنه في عمل سابق:

(الإمام الخوئي إحدى عجائب الدهر ومحاسن الدنيا، زعيم الحوزات العلمية في العالم، ومجدّد علم الأصول في القرن العشرين - بعد أستاذيه: الميرزا النائيني والشيخ آغا ضياء الدين العراقي -.

وهو ظاهرة لن تتكرر - ولله خرق العادات - فقد اشتغل بالبحث الخارج العالي طيلة ستين عاماً متواصلة، وقد وهبه الله تعالى عمراً مديداً ما فرّط بيوم واحد منه، حتى ما أتاه أحد إلاوجده دارساً أو مدرّساً أو مطالعاً أو محرراً أو مفكراً، وهذا سر عظمته واقعاً)[1].

---

(١) ظ: أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ ٢٦٦/ الطبعة الثالثة / مؤسسة البلاغ/ بيروت/ ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

وقد كتب سيرته الذاتية بقلمه برقم (١٤٦٩٧) في (معجم رجال الحديث)[١].

وعددّ أساتيذه الذين حضر عندهم البحث العالي الخارج، وهم:

- آية الله الشيخ فتح الله، المعروف بشيخ الشريعة الأصفهاني.
- آية الله الشيخ مهدي المازندراني.
- آية الله الشيخ ضياء الدين العراقي.
- آية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني.
- آية الله الشيخ محمد حسين النائيني.

أبقى من التراث الفقهي والأصولي والحديثي (٤٥) مجلداً وطبعت تقريرات طلابه في الفقه بعنوان (فقه الإمام الخوئي) في (٥٠) مجلداً وتخرج على يديه الآلاف من رجال العلم، وفيهم المجتهدون، والمراجع الأربعة اليوم مع حفظ الألقاب:

١. السيد علي الحسيني السيستاني دام ظله.
٢. السيد محمد سعيد الحكيم الطباطبائي دام ظله.
٣. الشيخ محمد إسحاق الفياض دام ظله.
٤. الشيخ بشير حسين النجفي دام ظله.

وأكتفي بهذه الإشارة عنهم لأنني كتبت بحثاً مفصلاً عن السيد السيستاني في أساطين المرجعية العليا[٢] وورد ذكره في فصل: (نضال المرجعية العليا) في هذا الكتاب، كما ورد ذكر المراجع الآخرين ولدي بحث متكامل عن السيد محمد سعيد الحكيم سينشر قريباً في كتابنا (أساتيذ الحوزة العلمية العليا في النجف الأشرف) إبتداءً بالسيد أبي الحسن

---

(١) ظ: الخوئي/ معجم رجال الحديث ٢٣/ ٢٠٢٥.

(٢) ظ: محمد حسين علي الصغير/ أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف/ بعنوان: السيد علي السيستاني مرجعاً/ ٣٤١-٣٩٦.

الموسوي الأصفهاني وانتهاء بالسيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، وسلسلتنا في المرجعية العليا في النجف الأشرف مستمرة بأذن الله تعالى، مادام في العمر بقية بحوله وقوته عز وجل.

***

الفصل الخامس

صدى المرجعية العليا في قصائد مختارة للمؤلف

١. الشيخ المفيد في ذكراه الألفية.

٢. في إستقبال الإمام الحكيم.

٣. في أربعين الإمام الحكيم.

٤. في رثاء الإمام الخوئي.

٥. ذكرى الخالدين.

٦. ذكرى الإمام الخوئي وإستشهاد ولده.

٧. على ضريح الإمام الخوئي.

٨. قدّيس الفقهاء/ السيد السبزواري.

٩. السيد السيستاني في شعر المؤلف.

١٠. في رثاء آية الله السيد محمد علي الحكيم.

الشَّيْخُ المُفيد في ذكراهُ الألفية[1]

مضى ألفُ عامٍ.. والحديث كما بدا		وما زلْت في أعماقِنا أنْتَ والهُدى
وأبقيت ما يُحيي القُلُوبَ مِنَ الأسى		فقُدّست سرّا في القلوب مُخلدا
نديمُكَ في الدُنيا كتابٌ ومِزْبَرٌ		ومن شهر العلم أستقلَّ المُهَنَّدا
مَواهِبُكَ الغَرّاءُ أحيت مواهباً		وهمَّتُكَ العَصْماء تسخرُ بالردى
صباحُك في التحصيل والدَّرْسِ حافلٌ		ولَيْلُكَ بالوِرْدِ العباديِّ غرَّدا
وأنتَ على الحالَيْنِ تُمسي مُجاهداً		وتَصبحُ مكدودَ الجناحَيْنِ مُجْهدا
بمُعتركٍ من حُجّةٍ.. أو رياضةٍ		تُهذِّبُ نفساً.. أو تُقوّمُ مُفسِدا
وتقرعُ في تلكَ الأدلةِ مِثلها		وتبدو مع الفتوى الفقيه المُجَدّدا
عُصارةُ عِلمٍ قد حباك نقاءَها		تُراثٌ لأهلِ البيتِ فيكَ تجدّدا

(١) نظمت هذه القصيدة بمناسبة الذكرى الألفية للفقيه المؤسس الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي المرجع الأعلى الأول للطائفة الإمامية في العالم، وكانت ولادته في عكبرا (الدجيل) قرب بغداد في (١١ ذي القعدة سنة ٣٣٦هـ)، ووفاته في بغداد في (٣ رمضان المبارك ٤١٣هـ)، وقد دفن عند رجلي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام جنب أستاذه أبي القاسم جعفر بن محمد بن قولويه (ت ٣٦٨هـ).

وقد أقترنت هذه الذكرى بوفاة زعيم الحوزة العلمية الإمام الخوئي قدس سِرُّه الشريف (ت١٤١٣هـ) بعد ألف عام فأنطلقت آنذاك زعامات لم تكن، وبرزت قيادات لم تعرف حتّى تسلّم زمام المرجعية الكبرى في النجف الأشرف سيّدنا الأستاذ المجدّد السيد علي الحسيني السيستاني، فأعاد لها هيبتها، ووحد شتاتها، وجمع شَملها، حرس الله قيادته الفذّة.

في القصيدة صورة صادقة للتناقضات المعاصرة، وصورة مشرقة للمرجعيات المتعاقبة.

ولا غَـرْوَ إنْ عُـدْتَ (المُـعلّـمَ) معلماً ... وأصبحت في ذاك الزعيم المُحسّدا

***

فيا عَـلَـمَ التاريخ في العلمِ والحجى ... تعاليتَ عـملاقاً.. وبـوركـتَ نيقدا

إذا احـتـفـلـتْ فيـك الشُّـعـوبُ فأنها ... رأت فيكَ ذاك السمهريَّ المقصّدا

مـثـقّـفُ جـيـلٍ.. وامـتـدادُ تجـاربٍ ... وكـنـزَ حـضـاراتٍ.. وشيخاً مسـودّا

وإن كـرمـتـك الجـامـعـات فـإنهـا ... تـكـرم في ذاك الـنـبـيّ محـمّـدا

فأنت وريـث الدين في عـصرك الذي ... قـضى الله في عـلـيـاه أن تـتـفـردا

تحـلـقـت الأعـــلام حـولـك ركـعـاً ... فــأوردتهـا تـلـك المـعـارف سجدا

إذا الجـانـب الـشرقـي قـصر شوطة ... زهـا الجانب الغربي في الكرخ منجدا

(عيون المها) لما استبدت.. تفتحت ... عـيـون الهـدى تـرتـاد نهـجاً مـعبَّـدا[1]

لــك الله مـــن مـسـتـثـمـر لحـيـاتـه ... عـطـاءً وإبـــداعـــاً.. وفـكـراً مسـددا

ثـمانـون عـامـاً في الـنـضـال.. ومـا ذوت ... فـتـوّتـهُ تهـتـزُّ غُـصـنـاً مـــورّدا

تجـيـل بهـا الـفـكـر الـعـظـيـم مصـوبـاً ... وتلفي بهـا الـرأي الـصريـح مصعدا

وتـقـطـف مـن تـلـك الجـنـان ثـمارهـا ... لـتـتـحـف فـيـهـا الـطـالـب المـتـزودا

مـــددت وريـفـاً مـن ظـلالـك لم يـزل ... يــروح مخــزونــاً.. ويـنـعـش مكمدا

وإن امـتـداداً من شموخك مـا ونى ... يـصـوّر لـلأجـيـال حـلـماً مجـسّـدا

***

(١) إشارة ناقدة لقول علي بن الجهم شاعر المتوكل، وكان ناصبياً لعلي عليه السلام.

عـيـون المـهـا بـين الـرصـافـة والجـسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فتى الأمة الكبرى ورائد مجدها ... وأوسعها قلباً.. وأسمحها يدا
تمخضت الدنيا.. فكنت وليدها ... وجادت بك الأيام سيفاً مجرّدا
يفرق فيه بين حق وباطل ... ويهزم جيش الجهل خزيان أربدا
إذا اشتبهت تلك المسائل أسرجت ... هواديك قنديلاً من الوعي مرفدا
أو استمطرت ليل الشكوك سحائب ... أسلت صباحاً من يقينك مزبدا
أو استعصت الأفهام في حلِ مشكلٍ ... كشف الدجى في حرّ رأيك سرمدا

***

ربيب ثقافاتٍ ضخام، ومُلتقى ... أطاريح أفكارٍ يُسبحْن عُوّدا
توزّع بين الأمس واليوم همُّهُ ... لِنظُر ما يغذو العقول به غدا
ويستوعب الغاياتِ في نظراته ... فيرتد طرفُ الغي حيران أرمدا
وليس عجيباً أن يُجلجل صوتُهُ ... وليس كثيراً أن يرجعهُ الصدى
وليس غريباً أن يُحلّق مجدُهُ ... فيختط ما بين السماكين مقعدا
ومن كان بين الحقّ والله وحدُهُ ... جديرٌ بأن يبقى مع الدهر أوحدا

***

مضى ألفُ عام.. والأساطينُ تَبتني ... مِن القِمَم الشماء صرحاً مُمردا[1]
تعاهدهُ من كلّ جيلٍ عصابةٌ ... من القادة الأبرار سراً ومحتدا
وعاد بأيدينا خراباً.. لأننا ... فتحناه باباً كان بالأمس موصدا

---

(١) هذا المقطع يصور تداعي الزعامات الدينية المزيفة لتسلّم أزمة المرجعية العليا تدعمُها السياسة، وتدفع برعيل من الناشئين الصغار للانخراط بزيّ رجال الدين، وهم لا يمتون إلى الدين بصلةٍ وإنما هي الأهواء.

وإنــــا إلى تـنـظـيـمـه واســتـوائـهِ لأحــوجُ مِـنّـا أن يُـبـاح ويُـعـتـدى
فـدبـت إلـيـه حـفـنـةٌ مـن زعـانـفٍ وجــلّ أمـانـيـهـا بــأن تـتـصـيـدا
ومــدت أحـابـيـل الـسـيـاسـةِ نـاشـئـاً بـمـزلـقـةٍ لا يـعـرف الـعـلـم والهـدى
وقـد خـلـقـت مـن كـل وغـدٍ صـنيعةً عـسـى أن تـراه مـرجـعـاً أو مقلدا
ومـــا عـلـمـت أن المـصـدر منهم هـوى بعد أن أضحى عميلاً مُجندا
تـصـدر لـلإفـتـاء مـن لـيـس أهـلـهُ وغـايـتـهُ أن يُـقـتـدى أو يُـقـلـدا
فـأيـن تـولى مــدركُ الـديـن حُـسبةً ومـا خُـلـق الإنـسـانُ إلا لِـيـعـبُـدا
فـيـا حـسـرات (ابـن المـعـلـم) جـددي بـأنـفـسـك الحـــراءِ لحـنـاً مُـــرددا[1]
ويـا زفــرةً (لـلـمُـرتـضى) ورفـاقـهِ أقِلّي.. فلم تذهب جهودكم سُدى[2]
أبـى اللهُ أن يستسلم الحــقُّ هـامـةً فـما زال مـوفـور الـكـرامـةِ أصـيـدا
سينجابُ من تلك الـرؤوس غُرُورها ويـنـحـطُّ مــن أبـراجـه مـن تمـردا

***

ويـا شُعلة (الـشـيـخ المـفـيـد) تـوقّـدي على الـكـون بـالإشـعـاع فيمن تـوقّـدا
أعـيـدي عُـهُـود المـرجـعـيـةِ غـضَّـةً تـوهـجُ عـقـيـانـاً، وتخـتـالُ عسجدا

(١) كان الشيخ المفيد يُدعى بأبن المعلم زراية بمقامه، فعاد ذلك فخراً.

(٢) المرتضى هو علم الهدى علي بن الحسين الموسوي تلميذ الشيخ المفيد، والقائم مقامه بأعباء المرجعية الكبرى (ت٤٣٦هـ).

(٣) المراد بالوادي المقدس، النجف الأشرف مقرّ المرجعية العليا.

تطلُّ على (الوادي المُقدس) بالشذا ... وتحتضنُ الأفقَ المنورِ بالندى[٣]

بها نفحاتٌ من (عليّ) وآله ... ومن طلعة (الزهراء) تُطلع فرقدا

تُقيمُ من الفِكرِ المجدّدِ معهداً ... وتبني على التقوى ضراحاً ومسجدا

توالى عليها كابرٌ إثر كابرٍ ... قلائدُ قد رُصفن دُراً منضدا

إلى أن تسامى دستها (بأبي الرضا) ... فجمع من أشتاتها ما تبدد[١]

أعاد إلى الإسلام أيام عزه ... وجدد من آثاره وتعهدا

يُؤرقُهُ حالُ اليتامى فيرتعي ... طُيُوفاً من البلوى فيوسعها ندى

ويُحزنهُ أن الفقير بحاجةٍ ... فيكفُلهُ قُوتاً وسُكنى وموردا

وهمته القصوى بإشباع جائعٍ ... وإكساء عُريان، وإسعاف من شدا

تناهت حقوق المسلمين لأهلها ... سواءٌ لديه من تدانى، وأبعدا

يُروضُ بالتقوى وبالزهد نفسهُ ... ويُلزمُها نهجاً من الضيم أحمدا

أعان (علياً) في سدادٍ وعفةٍ ... فكان مثالاً للقداسةِ مُفردا[٢]

***

(١) أبو الرضا: هو الأستاذ المجدد آية الله العُظمى السيد السند علي الحسيني السيستاني - دام ظلّه الوارف- وقد تفّرد بالمرجعية العامة للطائفة الإمامية في العالم بعد وفاة الإمام الخوئي، وقد أشتهر بإدارته المالية الرشيدة، إذ ألزم أصحاب الحقوق الشرعية بإعطائها الفقراء والمحتاجين يداً بيد في إجازةٍ عامة، وعرف بتمرسه في السياسة العامة، ودبلوماسيته الموقرة.

(٢) المراد أمير المؤمنين القائل: (ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّة وسداد).

في رثاء الإمام الحكيم(1)

سِر في جِـهـادِك.. ما برحت موفقاً   سيفان في يـدك.. العقيدةُ والتُقى
سِر في جِـهـادِك.. فالحياةُ ذميمةٌ   إن لم تُقم حقاً، وتُفحم مأزقا
سِر في جِـهـادِك.. فالعقيدةُ لم تزل   فكراً مُقدسةً، ومجداً معرقا
سِر في جِـهـادِك.. فالجموع بحاجةٍ   للدين والإسلام أن يتطبّقا
سِر في جِـهـادِك.. إن دين محمدٍ   أسمى عُلاً مما به قد ألصقا
أو لا تزال.. كأمس تستبقُ المدى   وتُذيبُ مُؤتفكاً.. وتسحقُ أحمقا
صلدُ الجنانِ.. حكيت فذاً فاتحاً   شام الخُلُود، والمعياً حلّقا
لم تستلن عوداً، ورُب موجهٍ   لعبت به شتّى الخطوب فأخفقا
تتحدّث الأجيال عنك بأنها   ألفت زعيماً عالمياً مُطلقا
والمرجع الأعلى لأمةِ أحمدٍ   والعسكريُّ المستميتُ المُطرقا
بالأمس قد أدبتَ قاسمَ أمتي   واليوم أدعى أن تؤدبَ عفلقا

***

(1) ألقيت في المهرجان الجماهيري المهيب الذي أقيم في (جامع براثا) ببغداد في (٦/ ٦/ ١٣٨٣هـ = ٢٥/ ١٠/ ١٩٦٣م) على شرف سماحة آية الله العظمى الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم إستقبالاً له بمناسبة زيارته التأريخية لبغداد والكاظمية، ولدى افتتاحه جامع براثا بمناسبة إكمال تشييده من قبل سيدي الوالد الشيخ علي الصغير، وتوديعاً له لدى توجهه إلى سامراء لزيارة الإمامين العسكريين عليهما السلام.
نشرت في مجلة الإيمان النجفية، السنة الأولى، العدد الرابع، شعبان ١٣٨٣هـ، وحذفت منه مورداً في محاربة الطائفية دون علم الشاعر.
نشرت أيضاً في كتاب (الإمام الحكيم) تأليف الأستاذ أحمد الحسيني الصادر عام ١٣٨٤هـ.

إيـهٍ (أبـا المـهـدي) أيّ فضيلةٍ ... مـا كنت فيها العبقري الأسبقا
مـا إن غرست من العقيدةِ بذرها ... إلا حصدت نتاجها المُتأنقا
آمـنـتُ إيـمانـاً أكـاد بمثله ... أن لا أزلّ عن الصوابِ مُحققا
إن الهُداة المخلصين جهادهم ... في الخافقين حديثُ حمدٍ ينتقى
حيّتك مِنّي العاطفاتُ، ولم تكن ... لسواك تستوحي البيان الشّيقا
لكن وجدتُ إمامةً وزعامةً ... وكرامةً وشهامةً وتفوُّقا
ووجدت ثم رئاسةً وسياسةً ... وبطولةً ورجولةً لن تُلحقا
وأبـاً يـغـارُ على الضمائر أن ترى ... سِلعاً لمحترفٍ تُباعُ وتُنتقى
أرأيت أفظع من طُيُوفٍ مرّةٍ ... فيها الشّفاء على العوالم أطبقا
أبصرت أوهاماً ضياعاً جمّةً ... فيها الحقائقُ تستزل لتُمحقا
أخبرت أجبن من نفوس فجَّةٍ ... تغنو على مضض الوعود تحرقا
لكن لي رأياً سيفصحُ في غدٍ ... فيه الزمانُ، وإن تمادى بالشقا
لابدَّ أن يلد الصباح شعاعه ... والليلة الظلماء... فجراً مشرقا

***

آمـنـتُ بـالإسلام لا رجعيةٌ ... فيه، ولا فوضى تُعاب وتُتقى
دستورهُ القرآنُ حيث نظامهُ ... بالخيرِ ينضحُ ما شجاً مُترقرقا
فوق الميول يشعُّ في حلكِ الدُّجى ... كالبدر يرسل نورهُ المتألقا
متجددُ الآراء.. يُعلي أمةً ... ويواكبُ العقل السليم المُفلِقا

ألقى على الأجيال درساً خالداً ... وأبتزّها نُطقاً، وجدد منطقا
مغوار كّل كريهةٍ وكريمةٍ ... إذ كان في قصب السَّباقِ مُفوَّقا
فتعهدوا الدين الحيف وشرعهُ الـ ... زاكي الشريف طبيعةً وتخلقا
فلقد وجدتُ محمداً في دينه ... أنقى من الماء الطّهور وأغدقا
لا الطارئاتُ العادياتُ وإن طغت ... بالعاصفاتِ.. ترُدُ سيلاً مُغرقا
والمسلمون.. إذا ترامت محنةٌ ... كفٌ توحدّ جمعهم عند اللقا
ومبادئٌ تترى.. تسيرُ ركبها ... شُبهٌ.. تجسدُهُ وباء محدقا
ذا موكب قد غربت أفواجهُ ... نحو الضلال.. وموكِبٌ قد شرَّقا
أبصرتُهُ مُتزلّفاً.. وخبرتهُ ... مُترّدداً.. ووجدتهُ مُتزحلقا
متأرجحاً بميوله.. حتى إذا ... ألغى المسيرة في الشوارع صفّقا
طوراً الى أقصى اليمينِ، وتارةً ... (للكرملين) يغذُّ سيراً معنقا
قد كان قوميَّ الهوى، وإذا به ... أضحى شيوعيَّ المبادئ مُرهقا
حتى إذا أتت الظروف وهللت ... للبعث.. عاد بها فتى (مُتعفلقا)
حتى كأن حياتهُ وحُقُوقهُ ... من غير حزبٍ لن تُصان وتُطلقا
سبحانك اللهم.. أي مكيدةٍ ... هذي التي فيها الشبابُ تعلّقا

***

يا أيُّها المتجمهرون.. مع الهُدى ... سيروا، وصُوغُوا الطيبات لكم وِقا
لا ترهبوا مُستعمراً.. لا ترحموا ... مستأجراً.. لا تتركوا متزئبقا

إن لم تكونوا ثورةً جبارةً ... تذري الطغاة بها هشيماً مُحرقا
فثقوا بأن جهادكم لا يبتني ... قِمماً، ولا يُردي العدوّ المحنقا
ولأنتمُ أدرى بمن قد كللوا ... أمجادهم خِزيٌ بنا قد أُلحِقا
أولاءِ هُم.. يتمثلون أفاعياً ... في الدين تنفث سُمها المتدفقا
أولاءِ لا قَدَمٌ، ولا قِدَمٌ لهم ... كالشوك زاحم ثم روضاً مُونقا
كالأمس قد حشدوا الفتوح مكاسباً ... والحزب بالنصر المبين توثقا
برز (الحكيمُ) لهم.. وهزَّ لواءَهُ ... واستنبط الفتوى، وقاد الفيلقا
ونضا براعتهُ.. وقال لها: اصمدي ... إني سأنسف فيكِ حزباً ضيقا
سأعيد دين محمدٍ ونظامهِ ... غضَّ الشبيبةِ قبل أن يُخلولقا
فمن (النبي) أقام عهداً نيراً ... ومن (الحُسينِ) أعاد فتحاً مُشرقا
لا تعجبوا.. قلمُ الحكيم بكّفهِ ... سيفٌ على هام الطُغاة تسلَّقا
يا قائد الدين الحكيم وحارس الـ ... شرع العظيم، ومن له نرجو البقا
شرّفتنا وبودّنا لو تنقضي ... معك السنون صبابةً وتعشُّقا
أزف الوداعُ.. ونحنُ نرغبُ بالبقا ... سرعان ما طويت عُهُود الملتقى
سرعان ما طُويت.. كأن لم يتحد ... هدفٌ يُوحدُّ أمرنا المتفرِّقا
سرعان ما طُويت.. كأن لم يأتلق ... نجمٌ يُبددُ ثم ليلاً مُغسقا
سرعان ما طُويت.. أأنت مُولَّعٌ ... قلباً لسامُراء منك تشوّقا
فاسلم أبا المهديِّ بعض قصائدٍ ... عصماء فيهُنَّ الوفاءُ تدفَّقا

في أربعينية الإمام الحكيم [1]:

عَـلَـمٌ هــوى.. فتضعضع الإسـلامُ
وانهـــار لـلـبيـت الحـــرام دعـــامُ

وتــرنّــحــت بــك لـلـنـبّي رسـالـةٌ
وتـعـطّـلـت بـشريـعـةٍ أحـكـامُ

وتــســاءل المـتـحّـيرون: أمُـرسـلٌ
في الـنعـشِ؟ أم فـوق الـرؤوسِ إمـامُ

هـذا (الحـكـيـمُ) أم الـسماءُ تكورت
والأرضُ مــادت.. فالنجوم سهامُ

قـد أخـرس الخطـبُ البليغُ مُـقـاولاً
وتـكـلّـم الـفـأفـاءُ والـتّـمـتـامُ

وتـدافـع المـتـجـمـهـرون.. يـهـزهُـم
قـــدرٌ.. ومـــلءُ أنـوفِـهـم إرغـــامُ

وإذا بـنـعـشـك بـيـنـهـم.. وكـأنـهُ
يــومُ الـقـيـامـةِ لـلـحـسـاب يُـقـامُ

مـــدُّوا لــهُ الأيـــدي طِـــوالاً مـدهـا
لـك بـالـصـلاتِ.. فـأطّـروا وأسـامُـوا

ولهــم دويٌّ حــولـــهُ.. كـدويهـم
بـك لـلـصـلاةِ.. فـكـبَّروا وأقـامـوا

فـكـأنـه نـعـشُ (الحـسـيـنِ) بـكـربـلا
ولــنــا قُــعــودٌ حــولــهُ وقــيــامُ

***

(١) الإمام الأكبر السيد محسن الطباطبائي الحكيم (قدس سره) (١٣٠٦-١٣٩٠هـ) كبير علماء العالم الإسلامي في القرن العشرين، امتدت مرجعيته في النجف الأشرف أربعين عاماً وكان المرجع الديني الأعلى للإمامية، امتاز بالحنكة والتجربة والأناة، وتفوق بالتواضع والخلق الرفيع، احتضن الشباب المتحفز احتضاناً أبوياً، ترك عدة مؤلفات مهمة، أبرزها (مستمسك العروة الوثقى) في أربعة عشر مجلداً ضخماً، توفي يوم (١/ ٦/ ١٩٧٠م = ٢٣/ ٤/ ١٣٩٠هـ).

ألقيت القصيدة في أربعينه في الجامع الهندي في (٢/ ٦/ ١٣٩٠هـ = ١٠/ ٧/ ١٩٧٠م) وقد نشرت في مجلة العرفان، العدد ٢٣ للمجلد التاسع والخمسين الصادر في حزيران ١٩٧١م، وقد صادرت السلطات العراقية هذا العدد من المجلة.

هزَّ النعيُّ بك البلاد بأسرها ... فوهي لها متنٌ.. وحُذّ سنامُ
أو لست أنت إمامُها وحُسامُها ... إما دجا خطبٌ.. وثار قتامُ
فإمامُها هذا بأطباق الثرى ... وحُسامُها أودى.. ففلَّ حُسامُ
لا كان يومك في الزمانِ فإنهُ ... داءٌ تحاشاهُ الأساةُ عُقامُ
لو كنت تُفدى.. لأفتُديت بأمةٍ ... هُتكت لها حُرمٌ.. وديس ذِمامُ
لكن رماك - كما يقال - فجبَّن الـ ... شجعان.. موتٌ - لا يردُّ - زؤامُ
فالليل بعدك غير ما عرف الدجى ... والفجر ذاوٍ.. والنهارُ ظلامُ
لا (يثربٌ) أمُّ الرجال بيثرب ... كلاّ.. ولا (البيت الحرامُ) حَرَامُ
سيعود شرع الجاهلية بيننا ... ولسوف تُعبدُ بعدك الأصنامُ
فعليك يا حلفَ الهوى، وعلى الهوى ... (من ذاهبين تحيةٌ وسلامُ)

***

يا راحلاً في الخالدين تبدّدت ... من بعد شخصك هذه الأحلامُ[1]
من للمحافل والجحافل والردى ... إن غزَّ زحفٌ.. واستطال مقامُ
فُجعت بمغوار المكاره.. فانتحى ... شوطٌ، وكبّرَ للوغى إرزامُ
وتعرّت الأنظار عنك.. وأوحشت ... هذي الديارُ، وهدتِ الآكام
بيتٌ يضيقُ من الشكاةِ.. ومِنبرٌ ... باكٍ.. ومحرابُ الصلاةِ يُضامُ
وشبيبةٌ ثكلى عليك.. وأمّةٌ ... حيرى.. وشعبٌ واجمٌ حوّامُ
والمسجد المعمور بعد زعيمه ... عافٍ.. يكادُ يضجُّ منهُ رُخامُ

رزءٌ يظلُّ على المدى.. وفجيعةٌ ... هيهات تذهب وقعها الأعوامُ
أدنى حُقُوقكَ.. أن تعُمَّ ديارنا الـ ... أحزانُ.. أو تتنكّسُ الأعلامُ
أو أن تُشق لك القُلُوبُ مرارةً ... أو أن تذوب بغيضها الآجامُ
ما كان فقدك يُتم ولدكَ وحدهم ... فأمام رُزءك كلّفا أيتامُ

***

يا أيُّها العلمُ المُوَحِدُّ أمةً ... بجهادِهِ.. أنّى طواك حِمامُ
خمسون عاماً خُضت في غَمَراتِها ... والليلُ داج.. أنّى طواك حِمامُ
العزم والإقدام بعض تُراثها ... لله ذاك العزمُ والإقدامُ
وعقيدةٌ عصماءُ ما عصفت بها ... الصدماتُ والنكباتُ والأوهامُ
وأصالةٌ في الرأي لم يلحق بها ... خطلٌ.. ولم يعلق بها إبهامُ
وصلابةٌ في الحق باقٍ سرُّها ... للحرّ، تجهل كُنههُ الأفهامُ
لو شئت صافحت الحياة رخيةً ... ومشت إليك سريعةً أحلامُ
وقطفت من مُتع اللذاذة شطرها ... وحداك من خمر الرئاسةِ جامُ
لكن أبيت.. وشاء مجدُك والهُدى ... أن تستعاض إزاءها الآلامُ
حتى استقام الدين لا مُتزلفٌ ... زيفاً.. ولا شبهٌ، ولا إيهامُ

***

(١) في المقطع خلاصة موجزة عن معاناته السياسية والاجتماعية والدولية، وهو يشق غمار الشدائد والمكاره بقيادة فذة يدعمها الشباب والجيل الجديد، ويقف منها المحافظون موقف المتفرج، وهو صلب في ذات الله، لا تأخذه لومة لائم.

يـا خـالـق الجـيـل الجـديـد بـقـدرةٍ ... شـمّاء.. مـا ألـوى بها الإحـجـامُ[1]
مـتـرسّـماً خـطـواتـه.. ومحـقـقـاً ... غـايـاتـه.. والأمـنـيـاتُ ضخـامُ
متجشّماً زلـل السُّرى.. ومُقارعاً ... عنت الطُغاةِ.. وللخطوب صِدامُ
لله أنـت.. فـأي قـلـب نـابـضٍ ... عـرك الـزمـان.. فـكـلّ يـومٍ عـام
مـا أفـحـمـتـه الـطـارئـات.. وأنـما ... لسواك - خـوّار القـوى - الإفحامُ
تحـيـا الـنـهـارَ مـعـذّبـاً حتـى إذا ... ولّى.. ولاح الـلـيـلُ عـزّ منامُ
في كـل قـطـراً مـن ثـبـاتِـك جـذوةٌ ... وبـكـل مـصـراً مـن هُـدَاكَ ضَرامُ
تَلِجُ الشّدائـد صـامـداً.. وتشُقُّها ... صـلـبـاً.. وثـغُـرك ضـاحـكٌ بـسّـامُ
ووراءك الجـيـل الجـديـد.. وإنـه ... جـيـشٌ مـن المـتـوثـبـين لُهـامُ
وعـلـيـك مـن روح الـنـبـي محـمـدٍ ... الـوعـي والأبـداعُ والإلهـامُ
وقـيـادةٌ ألـقـتْ ألـيـك زِمـامُـهـا ... في حـين أفـلـت مـن سـواك زِمـامُ
لم تُـنـجـب الأجـيـال بـعـدك مثلها ... أبـداً.. ولم تـتـمـخـض الأرحـامُ

***

أعـزِزْ عـليّ (أبـا الـرضـا) أن لا أرى ... لـمـعـانَ حـدِّك أيهـا الـصُـمـصـامُ
يـا أيهـا الـسـيـفُ المـجـرّد في الـوغـى ... لامـس مـضربـك الأغـرَّ كـهـامُ
واكـبـتَ منطلق الـزَّعـامـة حـاملاً ... عـبء الإمـامـة.. والخـطـوب جِسامُ

وسلكتَ نهج المصلحين، ودربهم ... يقظ الخطى.. والحارسون نِياموا
ما أودعتك يدُ الرسالةِ ثقلها ... ألا لأنك ليثها الضُّرغامُ
والمرجع الأعلى لأمةِ أحمدٍ ... وزعيمُها.. والقائدُ المقدامُ
لو حاولت هذي العوالم كُلُّها ... والخلق.. والأرضون.. والأيامُ
نكران مجدك.. وهو مجدُ محمدٍ ... ووصيه فأستنطقُ الأرقامُ
ولشبَّ من يوم (الشعبية) ماردٌ ... ومن (الرميثةِ) نيزكٌ رجّامُ
ومن (الجنوبِ) أشاوس وفوارسٌ ... ومن (الفراتِ) أعنةٌ ولجامُ
ومن (الحصار) مرابطٌ ومرابضٌ ... ومن (الجهاد) بيارقٌ وخيامُ
ما أنت ألا أمةٌ بتراثِها ... حتى كأنك وحدك الإسلامُ

***

يا قائد الدين الحنيف يلفُّهُ ... من هيبة الدين الحنيف وسامُ
لك في مصفِّ الخالدين مكانةٌ ... تحنى الرؤوس أمامها والهامُ
وتواضعٌ في الله جلّ جلالهُ ... للناسِ.. لا ذلٌّ ولا أستسلامُ
يا سيدي.. ملء الفؤادِ من الجوى ... حُرقٌ.. وملءُ جوانحي إيلامُ
حُزناً عليك.. فلا البقاءُ محبّبٌ ... عندي.. ولا العمرُ المديد يُرامُ
من شاء بعدك فليمت.. فقد أنطوى ... عِزُّ الحياة وغار فهو حُطامُ
ولقد خُصَصْتُ بك القريض ونظمهُ ... فعليَّ نظمُ الشعر بعدُ حرامُ
ولئن فقدتَ.. وكان خطبك فادِحاً ... فعزاؤنا أبناؤك الأعلامُ

القـــادةُ الأبـــرار في أقـوامِـهـم　　وهـــم بـكـل كـريـمـةٍ أقـــدامُ
وإذا نـظـرتَ (فـيوسف) ما بينهم　　بـــدرٌ عـلى (الـنجف الأغـــرِّ) تمـامُ
صـلى الألــهُ عـليك ما لمـحَ السَّـنا　　وأزدان فـجـرٌ.. وأسـتـهـلَّ غَـمامُ

في رثاء الإمام الخُوئي[1]:

أرثـيـك أم أرثــي بـك التـنزيـلا؟　　فـلقد فـجـعـتَ الـديـن جـيلاً جيلا
أرثـي الأئـمـة فيك أم أرثـي الهدى　　والأولـــيـــاء مـــعـــاشراً وقـبـيلا؟
فـلقد هـزت الكـون حتى لم تدع　　لـلـفـكـرِ ألا حــيـرةً وذهـــولا
أرثـــي بــك الــقــرآن في آيـاتـه　　وأؤبـــن الـــتـــوراة والإنـجـيـلا
أنـت الـوريـث لهـا.. وحسبك رفعةً　　إرث الـنـبـوة وارفـــاً وظـلـيـلا
ومـــنـــازل الـعـلـماء فـيـها قـدَّمُـوا　　كـــالأنـــبـــيـــاء كـــرامـــةً ومـقـيـلا
تـتـنـقّـل الأفـــيـــاءُ في أرجـائـهـا　　وقـطـوفـهـا قـد ذُلّـلـت تـذلـيـلا
تهـديك من وضـح السّـنا وطيـوفـهِ　　غُـــرراً مُـقـدَّسـة الـرؤى وحـجـولا
كـالـبدر في الظلماء يخـترقُ الدُجى　　والـبـحـر يُـنـسـي دجـلـةً والـنّـيـلا

---

(١) نُظمت في رثاء زعيم الحوزة العلمية أستاذ الفقهاء والمجتهدين آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي - قدس سره -. وقد أستمرت مرجعيته ربع قرن من الزمان، وتخرّج على يديه ألفان من المجتهدين، وترك موسوعته (معجم رجال الحديث) في ثلاثة وعشرين مجلداً توفي في منزله بالكوفة عصر يوم السبت (٨/ ٢/ ١٩٩٢م) وشيّع فجر الأحد سراً، ودُفن بمقبرته الخاصة الى جانب جامعه (مسجد الخضراء)، وأقيمت له الفاتحة سبعة أيام فقط في النجف، وكانت ولادته عام (١٣١٧هـ). نشرت في مجلة الموسم، العدد السابع عشر (سنة ١٩٩٤م - ١٤١٤هـ) بأسم (أبن النجف).

***

قالوا: أعتللت.. فقلت مما راعني ... أرأيت (زين العابدين) عليلا
فهرعتُ نحوك.. والحديثُ تهامسٌ ... والناس حولك يخشعون مثولا
فعلتْ محيّاك الوسيم بشاشةٌ ... تستقبل المتجمهرين قبولا
تضفي عليهم روعةً ومهابةً ... وجلالةً ورعايةً وشمولا
ورأيت خير الناس فيك سعادةً ... من راح يلثم كفهُ تقبيلا
فوقفتُ عند أستميحك نظرةً ... في عمقها تتطلب التحليلا
نبضات قلبك لا يقرُّ قرارُها ... والنفس تحملُ لوعةً وغليلا
ومصائب الأيام ما أبقتْ به ... ألا الأسى متوطّناً ونزيلا
فدرأت بالصبر الجميل شجونهُ ... والصبر أفضل ما يكون جميلا
حتى تداعى هيكلٌ متهدمٌ ... وأغذ عن دار الغرور رحيلا
كنت المكثَّر أمةً بوجودهِ ... إذ كان مثلك في الرجال قليلا
قالوا: أترثيه؟ فقلت: وهل ترى ... غير الرثاء على الوفاء دليلا
قد كان يدنيني.. ويعلي جانبي ... أفلا أكون مع النبيّ نبيلا
قالوا: أنعرفه؟ فقلت بداهةً ... جبلاً أشمَّ.. وصارماً مصقولا

***

يا أيها النجم المعفَّر في الثرى ... خداً برغم النائبات أسيلا
قاومتَ شتى النازلات بحكمةٍ ... وصددت موج المشكلاتِ سيُولا

لك أسوة فيما أصابك من أذى ... بمحمدٍ وبآلهِ تفصيلا
إن أوقفوك لدى الطغاة فطالما ... (المنصورُ) سام (الصادق) التنكيلا
أو قيدوا منك الإمامة فألتمس ... (موسى بن جعفر) في السجون مثيلا
أو يمنعوا التشييع عنك فإنهُم ... منعوا (الحسين) الدفن والتغسيلا
ما ضرّهم لو شيّعوك فأطفأوا ... غضب النفوس.. وأحسنوا التمثيلا
خافوك رمزاً في الحياة.. وحينما ... فقدوك خافوا نعشك المحمولا
فترصّدوه.. وحاذروا أن يسمعوا ... من حوله التكبير والتهليلا
هذا الشعار على سلامةِ قصدهِ ... يجتث حكم للطغاة هزيلا
لو أنصفوك.. وأنت قائدُ أمةٍ ... نشروا على جثمانك الأكليلا
أدنى حقوقك أن تنكس دولةٌ ... أعلامها.. أو تُعلن التعطيلا
أو أن تشق لك القلوب مرارةً ... أو أن تفيض لك العيون مسيلا
أو يستحيل لك العراق مآتم ... تجتاح عرضاً للبلاد وطولا
دفنوك سراً.. ثم جاؤوا بعدها ... يتلمسّون العذر والتعليلا
وتعقبوا حتى الفواتح.. وأنجلى ... آيُ الكتاب مُقيداً مغلولا
يا ويحهم ركبوا الغواية منهجاً ... وعن الهدى جعلوا الضلال بديلا

***

أعززْ عليّ (أبا التقي) بأن أرى ... العلماء بعدك واجمين ذهولا
خلت المحافل من علاك وربعها ... قد كان فيك العامر المأهولا

وتبدّت تلك الرؤى وتكلمت ... لغة العواطف رنةً وعويلا
الليل بعدك لا يُعدّ منوراً ... والصبح بعدك لا نراه بليلا
والفرج بالآهات.. لا أنفاسهُ ... تشفي الغليل.. ولا النسيم عليلا
قد جلّلت كل العوالم هزةٌ ... والحزن أرخى ظلهُ المسدولا
وتجاوبت أصداؤه حتى مشت ... في الخافقين روابياً وسهولا
وسرت بمكّة والمدينة رعدةٌ ... والمسجد الأقصى غدا مثكولا
ما كان فقدك واحداً.. بل أمةً ... فقدتك جيشاً.. وأفتدتك رعيلا
وكأنها في نعيّه مذ أفصحت ... نعت الحسين بكربلاء قتيلا

***

يا أيها الشيخُ المعمّر حقبةً ... ولرُبَّ عمرٍ لا يُعدُّ طويلا
ألزمته بالبر نفساً حُرةً ... وقضيت بالتقوى السنين الطولى
تسعون عاماً في النضال طويتها ... تبني الرجال مداركاً وعقولا
تزن الحقائق بالدقيق من الرؤى ... وتبلور الرأي الصريح أصيلا
حتى إذا شأت السماء إرادةً ... والغيب أنزل سرّه تنزيلا
آلت أليك المرجعية تحتمي ... حدباً.. فكنت زعيمها المسؤولا
ومشت إليك إمامةٌ في ثقلها ... عفواً.. فكنت حُسامها المسلولا
وما كنت تطلبها.. ولكن منحةً ... والله يعطي عبدهُ تفضيلا
ولقد عرفتك قبل كونك مرجعاً ... فكراً أجلَّ.. وفارساً مجهولا

علماً يصدُّ الطارئات.. وشعلةً تهدي الى الحقّ الجموع سبيلا
ورحيمُ قلبٍ حين بعض فظاظةٍ تتطلّب التوهين والتذليلا
ورفيق قولٍ حين بعض خشونةٍ تستوجب التعنيف والتعذيلا
وصليب رايٍ لا تلين قناته فيعيد أنصاف الحلول حلولا
حرباً على أُميةٍ وجهالةٍ ومحارباً مستعمراً ودخيلا

***

يا شيخ مدرسة المعارف والنهى فقهاً روحانيةً وأصولا
وزعيم جامعةً العلوم يقودها نحو السداد شبيبةً وكهولا
وفقيه آل محمدٍ.. وفقيههم يستأهل التعظيم والتبجيلا
ما كنت بدعاً في الرجال.. وإنما قد أهّلتك مواهبٌ تأهيلا
لله درُّك.. أيُّ فكرٍ ثاقبٍ يُمسي ويصبح دائباً مشغولا
والجد في سهر الليالي ناصباً غرس الطريق جنائناً وحقولا
(علم الحديث) بك أستقام رواته لما شهرت (الجرح) و(التعديلا)
أوسعته بحثاً وموضوعيةٌ ونفيت عنه الزيف والتدجيلا
ودلائل الإعجاز في أسراره أشرعتهن أسنةً ونصولا
وذهبت: أن جمع الكتاب نبينا لتفند التحريف والتبديلا
ونصبت نفسك للشريعة دونها سيفاً يُسلُّ.. وساعداً مفتولا
وأجِلت فكرك بالفتاوى تصطفي ما يقتضي التحريم والتحليلا

ويـــداك تـرتجـفـان بـالـقـلـم الـذي　　　　قـد خـطَّ في كُـل الـفـنـون فـصـولا

لـولا يـراعـك لأسـتـحـلْـنَ دوارِسـاً　　　　تـلـك الـعـلـوم.. أو أغـتـديـن طلولا

***

أمجـــدَ الإســلام فـيـما أسـلَـفـتْ　　　　تـلـك الأعــاظـمُ في الـقـرون الأولى

(عـلـم الهـدى) فـيـك أسـترد كيانه　　　　وحمـى بـك الـشـيـخ المفـيـد الـغـيـلا[1]

وتـطـاول (الـطـوسي) في آرائـه　　　　يـتـصـدر المـعـقـول والمـنـقـولا[2]

ومـن (الـصـدوق) أعـدت كـلَّ كريمةٍ　　　　أورى محـاجـجـةً.. وأصـدق قـيـلا[3]

ومـن (ابـن أدريـس) بعثتَ سرائـراً　　　　ومـن (الشهيد) صحائفاً ونـقـولا[4]

ومـن الـتراث (شرائـعـاً) و(قـواعـداً)　　　　و(مكاسباً) و(رسائلاً) و(فصولا)[5]

و(الـنـائـيـنـي) أعـدتـه ببحـوثـه　　　　حـيـاً.. وزدت أصـولـهُ تـأصـيـلا[1]

ومـن (الحكيم) نشرته (مستمسكاً)　　　　بـالـعـروة الـوثـقـى غـدا مـوصـولا[2]

أولاء رفـقـتـك الهـداة.. ومـن بنوا　　　　مجـداً عـلى هـام الـزَّمـان أثـيـلا

---

(١) علم الهدى : السيد المرتضى علي بن الحسين (ت ٤٣٧هـ)، والشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان (٤١٣هـ).

(٢) الطوسي : الشيخ الأكبر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) .

(٣) الصدوق : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨١هـ).

(٤) أبن أدريس: محمد بن أحمد الحلي (ت ٥٩٨هـ) صاحب كتاب السرائر. والشهيد الأول: محمد بن جمال الدين العاملي (ت ٧٨٦هـ) صاحب اللمعة الدمشقية. والشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي (ت ٩٦٥هـ) صاحب الروضة البهية.

(٥) شرائع الإسلام للمحقق الحلي، والقواعد: للعلامة الحلي، والمكاسب والرسائل للأستاذ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ).

الـواهـبـين حـيـاتهـم لـشـعـوبهـم | والخـادمـين رسـالـةً ورسـولا
المـشرقـين عـلى الـزمـانِ كـواكـبـاً | والمـسرجـين مـن الهـدى قـنـديلا
والـسـاهـريـن عـلى الـشريـعـة عُـكّـفـاً | نظروا الـكـتـاب.. فأحسنوا التأويلا
حـفـظـوا تـراث محـمـدٍ ووصـيّـه | وتحـمّـلـوا عـبءَ الـنـضـال ثقيلا
زهــدوا بهـذا الـكـون ألا شُـعـلـةً | لـلـعـلـم تـزهـو بُـكـرةً وأصـيـلا
مـا الـلـيـل.. ألا الـفـكـر في ملكوته | والـصـبـح ألا الـدرس والتحصيلا
فـيـثـقـفـون مـشـاعـراً ومـواهـبـاً | ويُخـرِّجـون فـطـاحـلاً وفـحـولا
حتى إذا أزدحـم الـعُـبـاب تمـرّسـوا | سـور الـكـتـاب.. فـرُتِـلّـتْ ترتيلا

***

يـا أيهـا الجـيـل المـؤمـل في غـدٍ | خـوضـوا الحياة ضـيـاغـماً وشـبـولا[3]
وتـنـوّروا في ضـوء خـير دراسـةٍ | تـروي الـعـمـى.. وتـقـارع التّضليلا
سـارت بهـا الأعـلام مـن علمائنا | بـثـبـاتهـم.. مـا بـدلـوا تـبـديـلا[4]
ومشى بهـا (الخـوئي) وهـو زعيمكم | فـترسّـمـوا أثـر الـزعـيـم وصـولا
وثـقـوا بـأن الله سـوف يـمـدُّكـم | في عـونـه.. ويُحـقّـق المـأمـولا
وتـواضـعـوا لـلـنـاس في أخـلاقـكـم | وتجـنـبـوا داء الـغـرور وبـيـلا

(١) النائيني : هو الميرزا الشيخ محمد حسين الغروي أستاذ الفقيد، ورائد تحرير علم الأصول.

(٢) الحكيم : السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) وموسوعته الفقهية (مستمسك العروة الوثقى).

(٣) الخطاب موجه الى الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

(٤) إشارة الى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّه عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

كـونـوا كـما شـاء الإلـه بـموقـعٍ ... يـترصّـد الـتّـزمـير والـتطـبيـلا

وتـزوَّدوا بـالـعـلـم ورداً سـائـغـاً ... لـيس المثـقَّـف مَـنْ يـظـل جـهـولا

وتـلـبثـوا الـنـهـج الـقـويـم كـما ارتـأى ... الـديـن الحنيـف مـوثـقـين عـدولا

والـزهـد في هـذي الحـيـاة وزهـوهـا ... والـقـاصـمات عـواصـفـاً ومـيـولا

الحـقُّ رائـدكـم.. وتـلـك مـزيـةٌ ... لا تـطـلـبـوا مـن دونهـا تحـويـلا

لـيس الـكـرامـة أن تـكـون مـوجـهـاً ... أن الـكـرامـة أن تـظـل جـلـيـلا

وكِـلـوا الى الله الـقـديـر أمـوركـم ... فـالله خـيـر حـافـظـاً ووكـيـلا

ذكرى الخالدين(١):

عـشرٌ مـضـين.. وكـل يـوم عـامُ ... وبـكـل قـلـبٍ جمـرةٌ وضُرامُ

وبـكـل داجـيـةٍ تـلـوح ظُـلامـةٌ ... وبـكـل نـاحـيـةٍ يـسـود ظـلامُ

الصبح بعدك غير ما عُرف الضُحى ... والـفـجـرُ ذاوٍ.. والحـيـاة حِمـامُ

كـنـت المـكـثـر أمـةٌ بـنـضـالـه ... ولـرب فـردٍ وحـدهُ الإسـلامُ

أولـتـهـا حسـنِ الـرعـايـةِ.. فأنتخى ... شـوطٌ.. وكـبَّر مـقـودٌ وزمـامُ

الـوعـي عـنـدك قـوةٌ وأرادةٌ ... والـفـكـرُ نـورٌ.. والـيراع حُسامُ

تـسعـون عـامـاً خـضـتَ في غمراتها ... والبحر يـعـصـفُ.. والـطريـق زُحـامُ

بـطـل الـعـقـيـدةِ والأصـالـةِ والحجى ... والـقـائـد المـتـمـرِّس المـقـدامُ

(١) ألقيت في الحفل التأبيني المهيب الذي عقد في مؤسسة الإمام الخوئي في لندن بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيل أستاذ الفقهاء والمجتهدين الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، ٨/ صفر/ ١٤٢٣هـ = آيار/ ٢٠٠٢م. ونشرت في التأريخ نفسه في مجلة الغدير الصادرة في لندن.

وزعامةٌ للمسلمين رفعتها ... رمزاً تخرُّ أمامهُ الأصنامُ
فمن (النبيّ) أُعيد مجدٌ شامخٌ ... ومن (الأئمةِ) منهجٌ ومقامُ

* * *

يا أيها العلم الموحِّدُ أمةً ... قد نُكِّست بمُصابك الأعلامُ
وفقيه (آل محمدٍ) وفقيههم ... بدرٌ على (النجف الأغر) تمامُ
غمرت أشعته البلاد.. فتائه ... بسناه يسري.. والهداة قيامُ
طلّابه الأعلون في بركاته ... ذا مرجعٌ أعلى.. وذاك إمامُ
شيخ الأساتذة العظام وحولهُ ... العُلماءُ.. سيفٌ ما أعتراه كِهامُ
فمن (الفقاهة) جحفلٌ وكتيبةٌ ... ومن (الأصول) معالمٌ ومرامُ
ومن (الحديث) معاجمٌ علميةٌ ... ومن (الرجال) كواكبٌ ورُغامُ
ومن (الكتاب) أدلةٌ قدسيةٌ ... ومن (الشريعة) دولةٌ ونظامُ
ومن (الفتاوى) عالمٌ مُتحررٌ ... ومن البحوث (جواهرٌ وكلامُ)
تلك المآثرُ - والخلود سبيلها - ... لا الدهر يفنيها، ولا الأعوامُ

* * *

عشرٌ مضين على وفاتك.. والأسى مُتجددٌ.. والطارئاتُ جِسامُ
وشّى الخمول على العقول كلالةً وتنازلت في عدِّها الأرقامُ
صمت الرجالُ المصلحون وأجهشت بنحيبها الزفراتُ والآلامُ
وتحسس النفرُ القليلُ.. وحولهم غُولٌ.. وجيشٌ للطغاة لهامُ
وتصاعد (الإرهابُ) يخنقُ أمةً سمحاء.. لا وترٌ، ولا أنغامُ
و(القدس) فوضى.. والدماءُ زكيةٌ وفمُ الضحايا صارخٌ تمتامُ
و(العالمان) بمسمعٍ وبمشهدٍ و(الأمنُ) لا نفيٌ، ولا استفهامُ
ماذا (تُقررُ هيئة الأممُ) التي حكم اليهودُ بظلها وأقاموا
هي منبرٌ لخطابةٍ.. وقرارها دجلٌ.. وصوت المنكرين حرامُ
أرأيت تخريب المنازل جهرةً والقصفُ ينسفُ.. والسلامُ صِدامُ
والعُربُ في حكمها وطغاتها لهمُ سكوتٌ طبقٌ وصيامُ
او ما تهزهم النساء حواسراً أو لا يُثيرك طفلةٌ وغُلامُ
ذهبت (فلسطينٌ) وعاد تُرابها وهو الطهورُ.. بلاؤُهُ الإجرامُ
أبناؤها الأقحاحُ قتلى ضُرجاً والصامدون الأسرُ والإعدامُ
وحماتُها الشُّهداء أسرع ركبهم في السير ساعة تتعب الأقدامُ
يتسابقون الى الكرامةِ والعُلا والقابعون الحالمون نيامُ

* * *

أعـزز عـليَّ (أبـا الـتقىِّ) - وقـد خبا ... وهـجُ الأبــوَّةِ - أنـنـا أيـتـامُ
خلت الحـافـل من عُـلاك وأوحشت ... تـلـك الـديـارُ.. وطـاشـت الأحـلامُ
بـيـتٌ يـضـجُّ مـن الـشـكـاة.. ومـنـبرٌ ... بــاكٍ.. ومحـرابُ الـصـلاةِ يُـضـامُ
والمـسـجـدُ المـحـزونُ بـعـد زعـيـمـه ... أودى.. فـلا خـبرٌ لا إعـلامُ
(والحـوزةُ الـغـراءُ) لـيـس كـأمـسها ... والهـولُ حـداةٌ بهـا حـوامُ
طويت مقاييس الـدراسـةِ.. واعتلى ... ذاك الـنـظـام الـنـقـضُ والإبـرامُ
لـولا (الإمـام أبـو الـرضـا) لتبددت ... تـلـك الجـهـود وسـادت الأوهـامُ
نـفـحـاتُ (أهـل الـبـيـت) في آرائـه ... وعـلى يـديـه تـصـدر الأحـكـامُ
أبـو الـيـتـامى والجـيـاع يـعُـولهـم ... فـكـأنـهُ وكـأنهُـم أرحـامُ
المـرجـعُ الأعـلى لأمـةِ أحمـدٍ ... وهـو الحـيـاةُ وثـغـرهـا الـبسَّـامُ

ذكرى الإمام الخُوئي واستشهاد ولدِه[1]:

حـيـيـتُ ذكـراك أبـا الـقـاسـمِ ... يـا عـلـم الأمـةِ في الـعـالمِ

***

يـا أيهـا الـنـجـم الـبـعـيـد المـدى ... مـا زلـت كـالأمـس زعـيـم الـعـراقْ
طـلابـه أئـمـةٌ لـلـهُـدى ... والـوحـدة الـكـبرى ونـبـذ الـشّـقـاقْ

فأسأل بلاد العربِ يا لائمي

---

(١) ألقيت في الحفل التأبيني المهيب الذي أقيم في (مؤسسة الإمام الخوئي في لندن) بالذكرى الثانية عشرة لرحيل زعيم الحوزة العلمية آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي والذكرى الأولى لاستشهاد نجله المظلوم السيد عبد المجيد الخوئي؛ وذلك في ٨/ صفر/ ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

يـا راكـب الـتـسـعـين مـن عـمـرهِ … بـلـغـت بـالـرحـلـةِ أقـصى المـرام
ومـن لـسـان الـدهـر في ذكـرهِ … فـكـيـف تـطـويـه أكُـف الحِـمامْ

وروحه كالملك الحائمِ

المـرء في أمجـادهِ يـرتـقـي … وفي بـنـيـه يـصـطـفى مـن جـديـدْ
أيـن (جمـال الـديـن)؟ أيـن (التقي)؟ … وأيـن مـنـا الـيـوم (عـبـد المجـيـد)

في ثغره المنطلق الباسِمِ

يـا راكـبـاً لاح بـأفـق الخـلـودْ … فـأغـتـالـه الـدهـر بـعـصـف الـردى
ويـا هـزار الحـقـل بـين الـورود … قـد هـدأ الـصـوتُ.. ورن الـصـدى

يخترقُ الأجواء كالحالمِ

للهِ ذَيّـاك الـشـبـاب الـصريـعْ … بـمُـديـه الحـقـدِ وسـيـف الـدجـلْ
أهـكـذا يـنـجـاب لـطـف الـربـيـعْ … ويـأفـل الـنـجـم.. ويـطـوى الأمـل

كأننا في حلم النائمِ

هـا أنـت في أعـماقـنـا خـالـدُ … يـا جـذوةً لمـا تَـزلْ في لهـبْ
فـلـيـخـسأُ الـشـامـتُ والحـاسـدُ … فـالمـوجُ في الـبـحـرِ شـديـدِ الصخبْ

يهدر في تياره العارمِ

تـسـاءل الـبـلـبـل في أيـكـه … مـا هـذه الـغـربـةُ بـين الـغـصـونْ
قـد أفـلـت الـصَّـدّح فـالـنـبـكـه … في الـقـلـب لا في قـطـرات الـعـيـون

فرزؤهُ أنشودة الهائمِ

غادرنا ذاك الصباح الجريح فأنكفأت تنعاه شمس الضُحى
وقد قرأنا قبل صلب المسيح لكنه شُبّه ثم أنتحى

واجتازنا للعالم الدائمِ

لم يذهب الموت بعبد المجيد وهذه آثارهُ باقيه
وذا طريف مجده التليد وروحه في جنةٍ عاليه

فهو بعيشٍ راغدٍ ناعمِ

أن كنت لا تعرف معنى المهات فأنظر (أبا حيدرٍ) في رقدته
ولم يكن كالناس إن ماتَ ماتْ لأنه الخالدُ في أمتهِ

فكم لهُ من موقفٍ حازمِ

قد عاش للشعب بآمالهِ مستمسكاً بالمبدأ الصامدِ
وقد تجلت غُرُّ أعمالهِ وكم على ذلك من شاهدِ

فسأل بها أندية العالمِ

ذكراك في لندن أحياؤها والنجف الأشرف دامي الجراح
تهتز في فقدك أرجاؤها فتلكم البيد تُعزِّي البطاح

وكلها في مأتمٍ واجمِ

والأمةُ الشكلى بأبنائها في كل يوم تستجدُّ الحداد

وثـــأرهـــا عـــاد بـأزيـائـهـا   مـن ربطة الـعـنـق.. ولـبـس الـسـواد

لا.. ثأرها في ردها الحاسمِ

قــد يُحــمــدُ الــصــبر وآثـــارهُ   ألا إذا أدّى الى الأنـفـلات

وعــنــدنــا الإرهـــابُ أدواره   قـد مثلت حتى سئمنا الحياة

فسل ضريح السبط والكاظمِ

وقـــد يـعـيـد المـــرء تـفـكـيرهُ   أهـكـذا يُجـزى الإمـــامُ الحـكـيـم

وحدهُّ كالمرهف الصارمِ

إن يـقـتـلُ (الـتـقـي) و(الـبـاقـرُ)   فـالمـبـدأ الـعـام قـويٌّ صليب

ولـلـضـحـايـا مـنـبرٌ ثـائـرُ   يـمـضي خـطـيـبٌ، ويجـلي خطيب

مُدرَّعاً بالأملِ الباسمِ

الـصـدرُ والخـوئـي وبحـر الـعـلوم   قـد أُعـدمُـوا في حملـة الطاغية

ولـلـحـكـيم الـفـذّ تـلـك الـنجوم   تُـسـبـح في دمـائـهـا الـقـانـيـة

ضحيةً للحاكم الآثمِ

(شـعـبـك في غـفـلـتـه مـا أرعـوى   يـا سـمـكـاً في كـل يـوم يُـصـاد

لم يـبـقَ مـن تمـرك غـير الـنـوى   وأكتست الجـمـرةُ ثـوب الـرمـاد[1]

وأمرنا للموكب القادمِ

(١) البيتان للشاعر الكبير علي الشرقي رحمه الله.

يـا نـفـطـنـا أيــن أزدهـــار الـبـلاد وأيـــن أشـبــاع الجـيــاع الـعُــراة
مــرارة الـفـقـر وبــؤس الـعـبـاد وسـطـوة الـعـسـف وظـلـم الـطـغـاة

يا لعنة الله على الظالمِ

يــا أيهــا الـنـجـم الـبـعـيـد المـدى والــدك الأعـظـم زعـيـم الـعـراق
طـــلابـــه أئـــمـــةٌ لـــلـــهـــدى والـوحـدة الـكـبرى ونـبـذ الـشـقـاق

فأسأل بلاد العرب يا لائمي

المــرجــع الأعـــلى بـأوطــانــنــا ممـثِّـل الـشـعـب بـكـلّ الحـقـوق[1]
(أبــو الــرضــا) قـمّـة أوطـارنـا خـلافـه في الـــرأي عـين الحـقـوق

مؤيدٌ بالحُجَّةِ القائمِ

دســتــورنــا المــؤقــت الــدائــمُ مـا خـطـبـه؟ مـا أمــره؟ مـا المـراد
غـــداً إذا ســائــلــه الــعــالمُ بـــأي حـــقٍّ ســتــعــود الــبــلاد

وما جواب السّائلِ العالمِ

في أوّل الــرحـلــة لاح الخـــلاف وأنــتــشر الحـــزن بـشـهـر الـعَـسـلْ
مــا هــكـذا يــا دول الأئــتــلاف يُــســاسُ شـعـبٌ وتُــقــاد الــدُّولْ

من حاكمٍ تُهدى الى حاكمِ

---

(١) المرجع الأعلى: الإمام السيد علي السيستاني.

على ضريح الإمام الخوئي[1]:

لما أصطفينا للهدى مضجعا ... وأصبح (الخوئي) فيه دفين
ومن (عليّ) قد دنا موضعا ... وهكذا عاقبة المؤمنين
نودي: فاهتزَّ لها مسمعا ... إنا فتحنا لك فتحاً مبين
وأنشد التأريخُ (لما دعا ... أُزلِفَتِ الجنّةُ للمتقّين)

١٤١٣هـ

***

تشعشع في أنوار طلعتك القبرُ ... فُقدّس منك السرُّ يا أيها البدرُ
وداعاً.. ونار الحزن يقدح زندُها ... وفي كلُ قلب من شرارتها جمرُ
فلا أنت منسيٌّ.. ولا أنت راجعُ ... إلينا.. ولا يُستطاع من بعدك الصبرُ
تملكنا من بعدك الحُزن والأسى ... وكلّل في أرجائنا الهولُ والذُعرُ
تُنبيك عن وجدً نعيش بظله ... جوانحنا الحرى.. وأدمُعُنا الحُمرُ
خلت ندوات الدين منك وأوحشت ... ديار الهدى.. فالفضل مربعه قفرُ
قد نابك العلم الذي هو عالمٌ ... بأنك فيه العالم النّيقدُ الحبرُ
قد نابك العرفان وهو حقائقٌ ... يفوح الشذا منها.. وينتشر العطرُ
فقدناك قديساً يفيض سماحةً ... وينضحُ من أبراده اللطفُ والبرُ
فقدناك سراً أخروياً.. وكوكباً ... تضيء به الدُنيا.. ويزدهر الدهرُ
فقدناك لما عسعس الليل داجياً ... (وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ)

---

(١) نقشت بالقاشاني في الواجهة الداخلية لمسجد الخضراء على ضريح أستاذ الفقهاء والمجتهدين الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، تاريخاً لعام وفاته ٨/ ٢/ ١٤١٣هـ = ٨/ ٨/ ١٩٩٢م.

قديس الفقهاء[1]:

سيدنا الأعلى تعاليت رفعةً وبُوركت تأريخاً كواكبه زُهرُ
وأحدوثةً في الله جل جلاله يلوح لها في كل داجيةٌ فجرُ
كأنك فينا واحدٌ من لداتنا وتلك لعمر الله مكرمةٌ بكرُ
وأخلاقك الفيحاء شهبٌ سوافرُ ومحورها الأيمان.. والفلك البشرُ
وآثارك العصماء فينا نواطقٌ وأقوالك المُثلى.. وأعمالك الغُرُ
تساميت عملاقاً تفانى تواضعاً ونجم الثريا لا يحط له قدرُ
لئن كنت ما بين الرجال شبيههم ففي المنجم المجهول يكتشف التبرُ
قربُ من أدناه تقواه للهُدى حليفاً.. فلا سبطٌ هناك ولا صهرُ
زهدك في هذي الحياة وزهوها ينبيء: أن الخلد لم يُغلهِ المهرُ
رسمت بهذي الدار كل كريمةٍ سيهنيك من أثمارها الفوز والأجرُ

***

بالكوكبين السائرين إلى العُلى: (عليٌّ).. وقد جلّى (محمّدٌ) الحرُّ[2]
وداعاً أبا التسعين.. والعُمرُ حافلٌ بكل عظيمٍ فيه يغتبطُ العُمرُ

---

(١) في رثاء سيدنا الأستاذ آية الله العظمى الزاهد العابد التقي الورع السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري المتوفى في النجف الأشرف ٢٧/ ٢/ ١٤١٤هـ = ١٦/ ٨/ ١٩٩٣م، والمدفون قرب جامعه في شارع الرسول، أبقى (مواهب الرحمن في تفسير القرآن) عدة مجلدات، و(مهذب الأحكام) في عشرين مجلداً، و(تهذيب الأصول)، ورسائل عملية متعددة، ويمتاز الفقيد بالتواضع الجم، والصفاء الروحي، وتعظيم أهل الفكر.

(٢) ولدا الفقيد السيد المرحوم: السيد محمد، والسيد علي السبزواري.

عطاءٌ وإبداعٌ.. وفكرٌ.. وهمةٌ ... وهذا هو المجدُ المؤثلُ والفخرُ
وأسفارُك البيضُ الحسان صحائفاً ... يحنُّ لها الجيلُ المثقفُ والعصرُ
(ومواهبُ رحمانٍ) أمدت مواهباً ... من الفكر لا تفنى فأغصانُها خُضرُ
(مهذب أحكامٍ) لآل محمدٍ ... تجلى به نهيُّ الشريعةِ والأمرُ
و(تهذيب) أراء الأصول قلادةٌ ... تجلّى بهِ نهيُ الشريعةِ والأمرُ
و(جامع أحكامٍ) لآل محمدٍ ... يُزانُ بها جيدُ الفقاهةِ والنحرُ
أياديك للدين الحنيف عظيمةٌ ... وليس لها عدٌّ.. وليس لها حصرُ
وأكرامها ما كان القلب عالقاً ... وأعظمُها ما لا يحيطُ به الخبرُ
تقاسمت طول المكرمات وعرضها ... فمن ههُنا شطرٌ.. ومن ههُنا شطرُ
فلست بفانٍ.. إذ خلدت.. وإنما ... لك الحمدُ من هذي الجماهيرُ والشكرُ
ويا جبلاً قد هدّهُ الدهرُ فجأةً ... ومن شيم الدهرِ الفجاءةُ والغدرُ
تعطلت الآمالُ بعدك وانطوت ... ليالي الرّجا.. والحزنُ مستصعبٌ مُرُّ
وهزت صروح الدين في نعيك الحمى ... ومادَتْ من الإسلام أركانهُ العشرُ
وشفت على الأسماع صوتُ مؤبّنٍ ... وران على الأبصار في نظرٍ شزرِ
لك (النجفُ الأعلى) أقام حدادهُ ... وأظلمت الآفاقُ.. واستوحش الثغرُ
سبقت إلى الأخرى وأزمعت وافداً ... عليها.. وإن السبق يتبعهُ النصرُ
وودّعت دُنياً لا يقرُّ قرارها ... وهل يستقرُّ الظلُّ.. أو يكتم السرُّ
مضى قبلك (الخوئيّ) لله داعياً ... وفي كلّ سفرٍ من فضائله سطرُ
وسارت إلى الأخرى فطاحلُ أمةٍ ... وفي كل نادٍ من مآثرها ذكرُ

لعمرك من الدُّنيا بدارِ إقامةٍ ... وعما قريبٍ يقطعُ السفر السفرُ
وما هذه الأيامُ ألا روايةٌ ... بأدوارها تجري.. وينسدل السترُ
وما الدهر لو جّربت ألا نوائبٌ ... فحادثةٌ تقسو.. وكارثةٌ تعرو
فيا أيها الإنسان.. أنك ميتٌ ... وفانٍ.. وإن عمرت ما عمّر الخضرُ
ومن نكد الدنيا افتقادُ (محمدٍ) ... فأحزانُنا جُلّى.. وآلامنا كُثرُ
فتّى عرفت فيه أصالة هاشمٍ ... وقد طاب منه الفرع والأصلُ والنجرُ
وقد مثّل الدين الحنيف بسيرةٍ ... منوَّرةٍ.. لا الأصطناعُ ولا المكرُ
صفاءٌ وإخلاصٌ ونبلٌ وعفةٌ ... هي الطهرُ، لا بل دون أبعادِها الطُهرُ
ومات نقي البرد بالحمد والحُجى ... تشيّعه التقوى.. وموعدُنا الحشرُ
وإن (علياً) بعده يقتدى به ... فمنبته زاكٍ.. ومعدنهُ دُرُّ

السيد السيستاني في شعر المؤلف

بيني وبين السيد السيستاني خصوصية وصله نادرة، فقد أطلعتُ عن كثب على حياته الشخصية والعلمية والتورعية، فكان ملء السمع والبصر، وقد سعيتُ الى تكريمه في مناسبات شتّى، إعتداداً بموقع المرجعية، ونظراً في الأفق العام.

وقد خاطبته بأبيات حينما أجمعت كلمات أهل الخبرة على مرجعيته العليا، وذلك في صفر ١٤١٤هـ = آب ١٩٩٣م:

ألقت إليك قيادها وزمامها لمّا رأتك زعيمها وإمامِها
وأستقبلتك وأنت في صهواتها رجَلُ الرجالِ مُروّجاً أحكامها
ومؤيداً (صاحب الأمر) الذي ألقت نيابته أليك مقامها
فأشكر لربك منحةً.. وشريعةً غرَّاء.. تنشر بالهُدى أعلامها

وكنت قد حييت الذكرى الألفية للشيخ المؤسس محمد بن محمد النعمان المعروف بـ (الشيخ المفيد)، وقد أتفقتُ في ٣/ رمضان مبارك/ ١٤١٣هـ بعد وفاة الإمام الخوئي وكان السيد السسيستاني هو المرشح للمرجعية، فتناولت شأنها، وقلت:

ويا شعلة (الشيخ المفيد) توقَّدي على الكون بالإشعاع فيمن توقّدا
أعيدي عهود المرجعية غضةً توهج عقيانٌ وتختالُ عسجدا
تطلُّ على الوادي المقدس بالشذا وتحتضن الأفق المنوّر بالندى
بها نفحاتٌ من (عليٌ وآله) ومن طلعة (الزهراء) تُطلعُ فرقدا
تقيم من الفكر المُجدد معهداً وتبني على التقوى ضراحاً ومسجدا
توالى عليها كابرٌ إثر كابرٍ قلائد قد رصَّفْنَ دُرّاً مُنضدا
الى أن تسامى دستُها بـ (أبي الرض) فجمّع من أشتاتها ما تبددا[1]
أعاد الى الإسلام أيام عِزه وجدد من آثاره وتعهدا
فتىً لا ينام الليل ألا غرارةً ولا يألف الأصباح ألا تنهدا
يؤرقهُ حال (اليتامى) فيرتعي طيوفاً من البلوى.. فيوسعها ندى

(١) أبو الرضا، هو سماحة السيد السيستاني، والرضا ولده الأكبر السيد محمد رضا السيستاني دام عُلاه.

ويحـزنــه أن (الـفـقـير) بـحـاجـةٍ فيكفله.. قـوتـاً، وسُـكـنىً، ومـوردا
وهمـتـه الـقـصـوى بـإشبـاعِ (جـائـع) وإكساء (عُريانٍ) وأسعافِ منشدا[1]
تناهت (حقوق المسلمين) لأهلها سـواء لـديـه مـن تـدانـى وأبـعـدا
يـروّضُ بالـتـقـوى وبالـزهـد نفسهُ ويـلـزُمُـهـا نهجـاً مـن الـضـيـم أحمـدا
أعـان (عـلـيـاً) في سـدادٍ وعـفـةٍ فـكـان مـثـالاً لـلـقـداسـةِ مـغـردا[2]
وإني في أمجـاده وسماتـه (أذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا)[3]

***

وخاطبته مرتجلاً في ميلاد صاحب الأمر الحجّة المنتظرﷺ، وذلك في (١٥/ شعبان/ ١٤١٦هـ = ٧/ ١/ ١٩٩٦م).

هُـنـئـتَ في مـيـلادهِ الـوضّـاءِ ويـظـلـهُ.. يـا كـوكـب الـعـلـماءِ
بـ (الحجـة المـهـدي) عُجـل أمـرهُ مـا زال مـنـتـصـراً عـلى الأعـداءِ
ومـقـامـه الأسـمـى أجـلُّ مـكـانـةً ممـا تجـيـد قـرائـح الـشـعـراءِ
هـو حُـجّـة الله الـعـظـيـم.. وقـائـدُ الـديـن الـقـويـم.. وقـدوة الحكماءِ
هـو عـلّـةُ الإيجـادِ في تـأريخـهِ وبـمـجـده هـو عـلّـةُ الإحـيـاءِ
ألـقـتْ نـيـابـتـه عـلـيـك رداءهـا فـزهـت بـآيـةً حُـلـةٍ ورداءِ
بـالحـامـل الأعـبـاء يـنـهـض عـنـدهُ ثـقـل الـشريـعـة أفـدحُ الأعـبـاءِ

---

(١) شدا : سأل وطلب .

(٢) إشارة الى قول أمير المؤمنين عليه السلام (ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفة وسداد).

(٣) هذا الشطر للمتنبي في سيف الدولة الحمداني، وقد ضمَّنَهُ لسيف الإسلام السيستاني.

الـراهـب الـقـديـس في خـلـواتـهِ ... والمـشرق الـقـسـمات في الـظـلـماتِ
الـلـيـل في كـبرى المـسـائـل حـاشـدٌ ... والـصـبـح في نـظـرٍ وفي إفـتـاءِ
حـتـى إذا كـثـر الـزحـام بـبـابـهِ ... وتـشرَّفـوا بـالـطـلـعـةِ الـغـرّاءِ
وإذا بـه (الـشـيـخ المـفـيـد) بعلمهِ ... وإذا بـه (الـطـوسي) في الـفـقـهـاءِ
وتـرى الى (جنب الـرضي) (المرتضى) ... ومـن (المـبرّد) حـذوةً (الـغـراءِ)
فـكـأن (أفـلاطـون) عـاد مجـدّداً ... وكـأن (سـقـراطـاً) مـن الأحـيـاءِ

***

وسرى (عـليٌّ) في عـدالـة (حـيـدرٍ) ... وهُـداه في ورعٍ و في أسـتـحـيـاءِ[1]
أحـيـا لـنـا سُـنـن الـنـبـي (محـمـدٍ) ... ووصـيـه.. والـعـترةِ الأمـنـاءِ
وأعـاد لـلـديـن الحـنـيـف كـيـانـهُ ... وكـذلـك الـعـلـماءُ كـالـشُـهـداءِ
الـزهـد رمـز حـيـاتـهِ.. ونـظـامـهُ ... وشـعـارهُ: الـتـفـكـير بـالـفـقـراءِ
فعسى بأطراف (الـعـراق).. وأرضـه ... مـن بـات لـيـلـتـه بـغـير عِـشـاءِ
ولـعـل (صـبـيـانـاً) غـراثـاً.. كظهم ... بـرد الـشـتـاء.. وهـم بـغـير غـطـاءِ
أو أن مـولـوداً بمـسـتـشـى قـضى ... حُـرِم الـدواء.. ولات حين دواءِ
أو إن (مُـرمـلـةً) تُـنـاغـي طفلها ... بـالمـهـد.. وهـو مـقـطـع الأحـشـاءِ
أولاء شغلك في الحـيـاة.. تغيثهم ... بـالـعـطـف آونـةً.. وبـالإعـطـاءِ

(١) المورد في تقييم سيرة السيد السيستاني مقتدياً بالنبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام، وإشادةً بسياسته المالية الرشيدة في أنعاش الفقراء والمرضى والمحتاجين.

عـادت (حـقـوق المسلمين) مصانةً ... لـلـمـسـتـحـق: قـريـبـهـم والـنـائـي
هـــذا مـنـاطُ (المـرجـعـيـة) أنهـا: ... الأعــبــاءُ بــين فــريـضـةٍ وأداءِ

وهنئته في عيد الغدير الخالد ٨/ ذي الحجة/ ١٤١٥هـ = ١٨/ ٥/ ١٩٩٥م.

أهـنـيـك في عـيـد الـغـديـر وأنـما ... أهـني بـك الإسـلام والأمـة الكبرى
(عـليٌ أمـير المـؤمـنـين) بـه أسـتـوى ... ولياً بنص الذكر.. فأستنطقت الذكرا
وأنــت أبـنـه.. والـفـرع يتبع أصله ... فيا لك من بشرى تضافُ الى بشرى
أعـنـت (عـلـيـاً) بـالـسـدادِ وبالتقى ... وصنت الهدى والعلم بالحجج الأخرى
وزهـــدُك في هـذي الحـيـاة وزهـوهـا ... أعــاد الى الأذهــان سـيرتهـا الـغـرا
يمينك بـالمـعـروف لـلـنـاس والـنـدى ... وتـدفـعُ عنها السوء في يـدك اليسرى
سيجزيك عنها الله في الحـشر رحمةً ... لأنــك لا تـبـغـي جــزاءً ولا شـكـرا
فـدع عنك كيد الحاقدين وسحرهم ... فأنت (عصا موسى) التي تلقف السحرا

***

وقلت، وقد أستُهدِف الإمام الخوئي، وقدح الإمام الحكيم قدس سره، وشتم السيد السبزواري، ورمي السيد السيستاني، فتوجهت الى مولانا صاحب العصر الحجة المنتظر عجل الله فرجه بالشكوى، وكان ذلك في (٢٣/ ذي القعدة/ ١٤١٧هـ = ١/ ٤/ ١٩٩٧م).

إمام الهدى شكوىً.. ففي النفس حسرةً تهيجها مني الأمور العظائمُ
فإن كياناً للشريعةِ شامخاً تحاولُ أن تقضي عليه العمائمُ
فما راعني في سطوة الحكم ظالمٌ كما راعني في سورةِ الجهل عالمُ
أيستهدف (الخوئي) وهو بقبرهِ وينهش لحم (السبزواري) ظالمُ
رُمي (آية الله الحكيم) بعلمِهِ وتلك التي تهتزُّ منها العوالمُ
وقالوا (عليُّ الطهر) ليس بأعلم وفي علمه تجري البحورُ الخضارمُ
سلوا كرة الأرض المدوّي شياعُها لمن قلدّت أقطارها والعواصمُ؟
وسل علماء العصر في خبراتهم من المرجعُ الأعلى الذي هو حاكِمُ
فيا (صاحب الأمرِ) إستطال بنا المدى وقد مُزجت أخلاقُنا والبهائمُ
وليس لها في الكونِ إلاكَ منقذٌ وليس لها إلاك في الأمر قائمُ

***

وخاطبته في ديوانه العلمي، وقد اشتدت الأزمات من كلّ جانب، وبلغ الأسى منتهاه:

دع المقادير تجري في أعنتها فالأمرُ للهِ.. ليس الأمر للبشرِ
وأنت في أول الدنيا وآخرها كسورة الحمد.. تبقى أولَ السورِ

***

وكان السيد السيستاني عند اغتيال آية الله الشيخ مرتضى البروجردي وآية الله الشيخ ميرزا علي الغروي قُدّس سرهما، وكان اغتيال البروجردي في (٢٤/ ١٢/ ١٤١٨هـ = ٢٢/ ٤/ ١٩٩٨م)، واغتيال الشيخ الغروي في (٢٤/ ٢/ ١٤١٩هـ=١٩/ ٦/ ١٩٩٨م).

كان السيد قد أغلق ديوانه العلمي والإفتائي، وامتنع عن مقابلة الناس، واقتصر على المستشارين، فقلتُ له: إن هذا يؤول بأنه احتجاج سياسي، وأنت بعيد عن هذا المناخ؛ فقال: مالي وللمرجعية ليتني قد بقيت كأحد رجال الدين، ذلك أستاذنا الشيخ حسين الحلي عاش بعيداً عن الأضواء، ومات سعيداً لم يتحمَّل أية مسؤولية، ما هذه المشاكل؟ ما هذه الابتلاءات؟ قلت له: سيّدنا: لابدّ من متصد يتصدى لشؤون المرجعية، وأنت كالشيخ حسين الحلي بعيد عن الأضواء أيضاً، والمرجعية هي التي طلبتك، ولم تطلبها أنت.

وكررت الطلب في فتح ديوانه وممارسة أعماله بحدود، وأنا أخشى التأويل السياسي فخاطبته:

فقل لأبي الرضا لا زلت حصناً وريف الظل.. متضح الصراطِ
(أأصل براءةٍ) في كلّ شيئاً فهلا قائل بـ(الأحتياطِ)

***

وكنت قد خاطبته – مصبِّراً له – عند الهجوم المسلَّح الغادر عليه وعلى ولده السيد محمد رضا، فنّجاهما الله تعالى، وقُتل أحد الحراس (أبو حيدر) وجرح حارس آخر (أبو أياد) جرحاً بليغاً مميتاً، وأستنقذه الأطباء بعد اللتيا والتي، وكان ذلك في (١١/ رجب/ ١٤١٧هـ = ٢٢/ ١١/ ١٩٩٦م).

وأعقب ذلك محاولة أغتيال الشيخ سالم الأسدي أمين المال على توزيع رواتب أهل العلم، وكان يقسّمها في مسجد آل كاشف الغطاء، فصوَّب إليه مجهول النار فقُتل مَن يرافقه السيد جابر الحلو، وأُصيب الشيخ الأسدي بأطلاقات ناريه متعددة في كتفه وبطنه، وأجريت له عدّة عمليات نجا عندها، وكان على حافة الخطر، قلت:

صبراً (زعيم الهدى) في كلّ حادثةٍ ... نكراء.. لم تك بدعاً في الأعاجيبِ
وأنظر لتأريخ (أهل البيت) مُمتلئاً ... من المآسي الشجيّات الغرابيبِ
قاسى الإمام (عليٌّ) من موارثها ... وولده بين مسمومٍ ومسلوبِ
وأنت فينا - بحمد الله - نائبهم ... في العلم والحلم والإحسان والطيبِ
فأصمد لها وسواها.. وأنتظر فرجاً ... بصاحب الأمر (وعدٌ غير مكذوبِ)
لا ينحني الطود من عصف الرياح.. ولا ... جيش العقيدة والتقوى بمغلوبِ
إذا رأتك البرايا قال قائلهم: ... بصبره نقتدي.. لا صبرِ (أيوبِ)

* * *

وكانت هذه المواساة من قبلي لسماحة السيد مُد ظلّه تسليةً له عند الكوارث، وتطييباً للخواطر لدى النوازل، ولئلا يشعر المرجع أنه وحده في الميدان إذا جدّ الجد، وكشَّر الباطلُ عن أنيابه، مُضافاً الى أن هذا الشعر يُجسِّد الحقيقة ويسجل التأريخ بحوادثهِ.

وفي (عيد الغدير المبارك) (١٨/ ذي الحجة/ ١٤١٩هـ = ٥/ ٤/ ١٩٩٩م) خاطبته في ديوانه بهذه الأبيات:

أهنيك في أعيادنا أنت والهدى | كما كان فينا منقذاً.. كنت مرشِدا
وأُيدت بالنصر المؤزر كلما | توهّجت في أُفق الشريعة فرقدا
يزيدك الإسلام عزاً ورفعةً | فدمت له صرحاً منيعاً ممّردا
وما كنت ملك النفس يوماً.. وإنما | ذُخرت لكل المسلمين موحِّدا
سلكت طريق (المصطفى) و(وصيّهِ) | وحسبك درباً بالنضال مُعبّدا
ومن سار في نهج (النبيُّ) و(آله) | سيخلدُ عملاقاً.. ويحيا مُسددا
نيابةُ (أهل البيت) أعطتْ زمامها | لِعبدٍ تسامى خشيةً وتعبُدا
(علي الهُدى) رمز التواضع والتُقى | وما خُلِق الإنسان ألا ليعبُدا
هو (المرجع الأعلى) لأمةِ أحمدٍ | وأكرمُها خَلقاً وخُلِقاً ومُحتدا
فيا أيها المولى الجليل تحيةً | تخرّ لها زهر الكواكب سُجدا
وبُركت في (عيد الغدير) لأنهُ | تمخّض عن نصِّ الإمامةِ مولدا
(فذا اليوم في الأيام مثلُك في الورى | كما كُنت فيهم أوحداً.. كان أوحدا)

* * *

وكان السيد السيستاني بحسب ذائقته الفنية يهتّز لهذا الشعر أستحساناً، ولصفة التواضع المعهودة فيه، قد يقول: لا عيب في هذا الشعر إلّا أنه في حقي، وقد لا أستحقه، قلت له: سيدنا إنما نُكرم فيك المنصب والمقام والمرجعيةُ العليا، وأنت أهلٌ لذلك، ومن ناحيةٍ أُخرى فإن المُجدد الشيرازي (ت ١٣١٢هـ) قد لا يتهّيء للجيل المعاصر معرفة مقامه العلمي ومنزلته المرموقة ألا بما يصفهُ فيه الشاعر الذائع الصيت السيد حيدر الحلي

(ت١٣٠٦هـ) في قصائده الرائعة بالمناسبات التي تشبه مناسباتنا هذه، إنني حينما أقول هذا فإنني أكتبه للتأريخ وللأجيال المعاصرة، فتبسم مُغتبطاً.

***

المدرسة العلوية

وأنا أصحح هذه المسودات تم افتتاح (المدرسة العلوية للعلوم الدينية) عصر يوم الأربعاء ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ = ٣٠ آذار ٢٠١٦م تبركاً بيوم ميلاد سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام فقلت مرتجلاً:

أقامَ عليٌّ الطُهر تلك المعاهدا — فأبقى كياناً في الغريينِ خالدا
ومن قبلُ (إبراهيم) في بيت ربهُ — أقام و(أسماعيلُ) منه القواعِدا
وهذا أبنهُ والفرع يتبعُ أصلهُ — فجلّت بنايات .. وعزت مقاصِدا
يُشيّدُها أعجوبةً علويةً — بثوريةً في الإسمِ تُحيي المشاهِدا
نظامٌ من الفن الصُراح .. وقمةٌ — تُطاولُ فيها أبدعتهُ الفراقِدا
مقاصيرُ جناتٍ .. وقاعاتُ قادةٍ — بأسمائهم غنى الزمانُ مُعاوِدا
فأبقى لنا الله الرضا وأبا الرضا — وزين في جيد الحياةِ القلائِدا

وقد حضرت أنا والدكتور علي خضير حجي افتتاح هذه البناية وهي من أكبر المدارس الدينية التي شُيدت على حد علمي وكانت في غاية الروعة والجمال المعماري.

مساحتُها الأرضية(٧٠٠٠م٢) ومساحة بنائُها (٤٠٠٠٠م٢) تتكون من بناية وسطية رئيسية هي الجناح العلمي وبنايتين أخريتين عن يمين وعن يسار المبنى الوسطي لتشكل بمجموعِها مبنى واحد.

والمدرسة تضم (٥٠قاعة درس) و(٥٣٠) غرفة تقريباً أضافةً الى مطبخ يغطي هذا العدد وقاعات لتناول الطعام وهي جزء من المشروع الأكبر (مدينة العلم) والذي يضم (١٠٠٠) دار لسكن طلبة العلوم الدينية وقد كان التأريخ الشعري المثبت على بوابة المدرسة وفيه تورية بلاغية رائعة:

المرجعُ الأعلى بنى للورى	منار علمٍ حقّ تمجيدُهُ
وصرحهُ يُفخرُ - أرخ - بإنْ	باسم علي تمّ تشييدُهُ

***

في رثاء آية الله السيد محمد علي الحكيم

توفي سماحة آية الله العالم الرباني السيد محمد علي الحكيم (قدس سره) عشية يوم الجمعة – وهو يصلي فرض المغرب- في ٢١/ ربيع الأول/ ١٤٣٢هـ = ٢٥/ شباط/ ٢٠١١م، عن عمرٍ تجاوز مائة عاماً (١٣٢٩هـ = ١٩١٠م) ولادةً، غسّل وكفن وسُجّي النعش في مسجد الشاكري ليلة وفاته، وأتجه المشيّعون يوم السبت ٢٢ ربيع الأول ١٤٣٢هـ = ٢٦ شباط ٢٠١١م بالنعش الطاهر نحو كربلاء المقدسة؛ لتجديد العهد بزيارة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام.

وفي صباح يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول ١٤٣٢هـ شُيّع الجثمان الشريف من مسجد الشاكري الى الروضة الحيدرية في موكب مهيب أشترك فيه علماء النجف الأشرف، وأساطين الحوزة العلمية، ورجال الدين، ورجال الأعمال، والمثقفون، وأساتذة الجامعات، ورؤساء العشائر، وأطراف النجف الأشرف، وجمهور غفير من الشخصيات العراقية والأهالي حتى ساحة الميدان فشارع الإمام الصادق، وفيه اتجهت الفضائيات لتلميذه الأستاذ العلامة الدكتور الصغير، والى الدكتور السيد عادل عبد المهدي نائب رئيس الجمهورية، وهم سائران في موكب التشييع المهيب فسجّل كل واحد منهما حديثاً عن الفقيد العظيم.

ودخل الجثمان الطاهر الى الصحن الحيدري حيث أمتلئ بالجموع الغفيرة، ونُصب المنبر ليعتليه الدكتور محمد حسين علي الصغير، فأرتجل محاضرة في تأبينه في نصف ساعة تناولت سيرة الفقيد الكبير، وثباته في الخط المرجعي الشريف منذ شبابه حتى وفاته، وقد

أهاب برجال الدين الأفاضل- وكان الحاضرون منهم يقدّر عددهم بثلاثة آلاف- أن يلتزموا السير قدماً في سير الدراسة الحوزوية العليا، مما كان له الوقع الأكبر في النفوس المؤمنة.

ثم تقدم ولده سماحة آية الله العظمى الفقيه الكبير السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم- دام ظله العالي- للصلاة عليه، فأتم به آلاف المصلين، ولأول مرة في تأريخ النجف المعاصر، ثم جدد به العهد بزيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .

وبعد ذلك اتجهت الجماهير الى مقبرة الأسرة للداخل الى أول مسجد الهندي في النجف الأشرف مقارباً لضريح الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم- قدس سره- وتم دفن الفقيد المجاهد عند صلاة الظهر.

وجامعة الكوفة التي أعتادت على إحياء ذكريات العظماء من العلماء والقادة والمفكرين، وإعلاء كلمة المرجعية العليا في سيرها الحثيث لخدمة وطننا العراق في المؤتمرات والندوات والإحتفالات والمهرجانات، فإنها بقيادة رئيس الجامعة الأستاذ الكبير الدكتور عبد الرزاق عبد الجليل؛ لتحتفل بهذه الذكرى العطرة خدمةً لجهود العاملين في الحقل الإسلامي والإنساني، وهي تقدم الى عشّاق الأدب والشعر العربي الأصيل هذه القصيدة العصماء للشاعر الكبير الدكتور محمد حسين علي الصغير، والتي سيلقيها بحفل التأبين الذين تقيمه جامعة الكوفة بإذن الله تعالى.

مكتب الإعلام

في جامعة الكوفة/ النجف الأشرف

وإليكم القصيدة:

الآية الكبرى السيد محمد علي الحكيم

قصيدة الشاعر الكبير
الدكتور محمد حسين علي الصغير
الأستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

التوأمانِ تجلُّدي وجَناني ... سَكبا عليَّ مرارةَ الأحزانِ
ودَلفتُ في ليلٍ تَموَّجَ أُفقهُ ... بالهم والحسراتِ والأشجانِ
ونَهضتُ عن صُبحٍ تبلَّجَ عن فمٍ ... متلجلجٍ في المنطق المزدانِ
وأنا الصبورُ المستفيض لسانهُ ... بالحمدِ في النكباتِ والغليانِ
لكن صُككتُ بنكبة الدهر التي ... أودت بأمثل عالمٍ رباني
خمسون عاماً قد حييتُ بظلهِ ... متفيئاً بسلوكه الروحاني
بعرائش الإيمان يشمَخُ فوقها ... تاجُ الشريعةِ .. أشرفُ التيجانِ
وجهادِ نفسٍ تستطيلُ على الأذى ... لتعُودَ .. وهي حليفةُ أطمئنانِ
وثباتِ قلبٍ .. في الصروفِ كريهةً ... متدرعٍ بالصبر والإذعانِ
آهٍ على تلك الليالي مرةً ... طُويت .. بأحلى حِقبةٍ وزمانِ
وقعٌ على قلبي .. يواكبُ نبضهُ ... بالإضرابِ .. وسرعة الخفقانِ

***

يا حجة الإسلامِ .. بل يا قمة الـ ـعرفانِ .. بل يا نفحة الرحمانِ

يا آية الله التي قد ضُمّنت رُوح الهُدى .. وعوالم الإيمانِ

يا حكمة الأجيالِ في مستودعٍ سامي الذرى .. عارٍ عن النقصانِ

يا أيها الرجُلُ المعادلُ أُمةً بالوعي والتبليغ يعتنقانِ

صُنتَ العقيدةَ من رياحِ فجةٍ عصُفت بهذا الصرح كالطوفانِ

وحملت أهداف الشريعةِ حُرةً كالشمسِ لا تخبو من اللمعانِ

وشَهَرتها سيفاً رهيفاً حدهُ في وجه كل مُفرقٍ وجبانِ

وحدبت تصنع أي جيلٍ صامدٍ !! رغم العمى واللفِ والدورانِ!!

لله أنت .. فكم أقمت دلائلاً ! -وسط المحجةِ- غَضّةَ البرهانِ

تستلهم الفرقان في آياته وتفسرُ القرآنَ بالقُرآنِ

كم دورةٍ لك في (الكفاية)[1] يسرت (علم الأصول) بصوتك الرنانِ

نورٌ على نورٍ يضمك ضوؤهُ والصرح تحرسهُ .. وأنت الباني

ولقد يعزُ على الهداة بأنها قد شيعت رُكناً من الأركانِ

وإذا بزغتَ .. وقد أفلت مودِعاً فالبدرُ يعرفُ ساعة الغيبانِ

***

لهفي عليك أبا (السعيد)[2] بإن أرى من بعد يومك وحشةَ (الملوانِ)[3]

---

(١) كفاية الأصول: كتاب تدريسي في الحوزة العلمية لزعيم الأحرار الشيخ محمد كاظم الآخوند، وقد حدب السيد الفقيد على تدريسه وتيسيره عشرات الدورات لفضلاء الحوزة العلمية.

(٢) السعيد هو نجل الفقيد آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد سعيد الحكيم – دام ظله –.

(٣) الملوان: الليل والنهار.

من للمحافل والمجالس والنُهى ولمن تكون صدارة الديوانِ
قد كنت فينا واحِداً ما بيننا ولك المهابةُ في عظيم الشانِ
خُلقٌ أرق من الصبا .. وصلابةٌ في الحقِ لا تخشى من الميلانِ
وطلاقةٌ ممزوجةٌ برصانةٍ كسبيكة الإبريز في الإتقانِ
وأصالةٌ في دقةٍ حكميةٍ كالفجرِ منتشراً على الأكوانِ
وعقيدةٌ ما زُلزلت أقدامُها بثباتها من سالف الأزمانِ
كُنت الموجة والمثقف جيلُها والمُجتبى بهداية الحيرانِ
عَمَّرتَ قرناً، أو يزيد .. فما ونى متنٌ .. ولا أستعصى بليغُ بيانِ
نُصحاً وإرشاداً وروحانيةً وتفقُهاً بحضارة الأديانِ
وأبوةً تُحيي النفوس بنظرةٍ قُدسيةٍ لبعيدها والداني
قد صاغك الإيمانُ عقداً يعتلي جيد الحياة .. بجوهرٍ وجُمانِ
تبقى .. ويفنى السادرون بغيهم (والذكرُ للإنسان عُمرٌ ثاني)[1]
أزعيمَ هذا البيت في أمجادهِ إن الزعامة منحةُ المنانِ
كُنت القلادة بينهم .. وهم هم عقل الشيوخ، وعزمة الشُبانِ
ذهبت دِماؤهم جباراً .. وإنجلوا في صفحة التأريخ كالعنوانِ
ما كافحوا للحكمِ في أوهامهِ بل كافحوا لسيادة الإنسانِ
لمحمدٍ، وكتابهِ، ولدينهِ ونظامهِ .. ولمحكم الفرقانِ
للشعب في آلامهِ وشجونهِ .. لشعائر الإسلام في الأوطانِ

(١) الشطر والشطران التاليان فيما بعد لأمير الشعراء الأستاذ أحمد شوقي بك.

سكنوا الجنان .. وخلفوها محنةً سوداء لافحةً من النيرانِ
وتسنموا أوج الكرامةَ .. وانزوا الطغيان بين مذلةٍ وهوانِ
وتداول الأيام بين أُناسِها نطق الكتاب بها كحد سنانِ
وكذلك الإنسان في أنفاسهِ معدودةً من عالم الإمكانِ
(دقات قلب المرء قائلةٌ لهُ: إن الحياة دقائقٌ وثواني)

***

بيتٌ يئنُّ مِن الشكاةِ .. وأمةٌ بالويلِ داعيةٌ وبالحرمانِ
والمسجدُ المحزون جلله الأسى أسفاً عليك .. وأثكل الحرمانِ
وحليفُك النجف الأغر بزفرةٍ والقبلتان عليك تنتحِبانِ
أولست أنت الضارعُ البكاءُ في الـ ـحراب .. والخلواتِ والإعلانِ
آثرت مدرجة الخلود كريمةً وعزفتَ عن هذا الوجود الفاني
وتركتنا .. والحزنُ ملء قلوبِنا والعينُ باكيةٌ بأحمر قاني
عم المصاب بك الجموع .. وهكذا الـ ـضدان في الأحداثِ يجتمعانِ
وتساويا بك فالعدوُّ الشاني بمشاعرٍ مثل الصديق الحاني
وتحلّقوا زُمراً عليك فواجمٌ في الفكرِ .. أو صعقٌ على الجثمانِ
حفوا بنعشك، والجلالُ يحوطهُ (فكأنما في نعشك القمرانِ)
إن شيعوك فهم بذلك شيعوا أو ودعوك .. فكيف تلتقيانِ
الجنةُ الفيحاء .. موعِدُك الذي يلقاك في حوراً، وفي ولدانِ

ومنــازلٍ في الخلـدِ مهد عرشُها (رضــوانُ)[1] فيها قدّم (الملكان)[2]
بين النبي وآلــه ورجالــهِ وهُـدى (أبي ذر)، وفي (سلمانِ)

***

أسفي على الدين العظيم .. ودونه في المجدِ ما أبقى لنا الهرمان
والمصحف الخلاق في آياتهِ يشكو من التضييع والهجرانِ
وبضاعة الإسلام في أسواقِنا عادت تنوءُ بصفقةِ الخسرانِ
هذا العقوق من البنين .. لأنهم هدموا قواعِدهُ من البنياني
وعلوم آل محمدٍ وتراثهُم في حاجةٍ لقيادة الميدانِ
ذهبت موازين النُهى .. وتحكّمت لغة الهوى والزور والبهتاني
وإذا المقاييس أفتقدن .. فعندها أسر الجريح، وقتلهُ سيانِ
دال الزمانُ .. وغيرت أوضاعهُ والدهرُ لا ينفكُ بالدورانِ
والجاهليةُ يستعيدُ كيانها عبثُ الطغاةِ، وشهوة السلطانِ
لابد من فجرٍ تطاول ليلهُ وجرت صواهلهُ بغيرِ عناني
ولسوف تصفو الأرض من أرجاسِها ولسوف تُقطعُ غُدةُ السرطانِ
بالقائم المهدي .. في أنصارهِ ودُعاتِهِ وطلائع الفتيانِ

***

(١) رضوان: الملك الموكل بخزائن الجنان.

(٢) الملكان: هما الموكلان بتسجيل أعمال الإنسان كافة في حياته، قال تعالى ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

لولا وجودُ أبي (رياضٍ)[1] و(الرضا)[2] علـم الهُـداة الـسيـدُ الـسيستاني
لـولاهُما .. خبت الشريعةُ وأنطوى علمُ (الرياض)، وقاطعُ (البُرهانِ)[3]
فـهُما إمـامـا أُمـةٍ .. بـقيـامِـهـم وقُعُودِهم .. وأمامُك (الحسنانِ)[4]
نشرا (المُفيد)[5] بعلمهِ و(المرتضى)[6] وتتبعا (الـطـوسي)[7] في (التـبيـانِ)
ومن (الـصـدوق)[8] فقيهُ وحضورهُ ومـن (الـكُـلـيـني)[9] جوهـر العقيانِ

---

(١)أبو رياض: ولد الفقيه آية الله العُظمى السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم.

(٢)أبو الرضا: المرجع الديني الأعلى السيد علي الحُسيني السيستاني.

(٣)الرياض والبرهان القاطع: كتابان أستدلاليان في الفقه العالي.

(٤)الحسنان: سيدا شباب أهل الجنة، الإمامان: الحسن والحسين عليهما السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله فيهما: (الحسن والحسين إمامان قاما أو قعِدا).

(٥)المفيد: محمد بن محمد النعمان، المرجع الديني الأعلى الأول للإمامية في العالم (ت٤١٣هـ).

(٦)المرتضى: علم الهُدى علي بن الحسين الموسوي صاحب المؤلفات القيمة، المرجع الثاني للإمامية (ت٤٣٦هـ).

(٧)الطوسي: المرجع الثالث للإمامية في العالم، ومؤسس الحوزة العلمية الكبرى في النجف عام ٤٤٨هـ.

من مؤلفاتهِ:

التهذيب، والأستبصار، وهما الثالث والرابع من الكتب الأربعة المعتمدة عند الإمامية، والخلاف مُقارن عن المذاهب الخمسة، والتبيان في تفسير القرآن تفسير مُقارن (ت ٤٦٠هـ).

(٨)الصدوق: محمد بن علي بن الحسين بن بابوية (ت ٣٨١هـ).

صاحب المؤلفات الشهيرة، وكتابه (من لا يحظره الفقيه) ثاني الكتب الأربعة المُعتمدة عند الإمامية.

(٩)الكليني: أبو جعفر محمد بن يعقوب البغدادي (ت ٣٢٩هـ).

وكتابه الشهير (أصول الكافي) الكتاب الأول من الكتب الأربعة المعتمدة عند الإمامية.

و(شرائـعِ)[1] ممزوجةٍ بـ(رواشـحِ)[2] للناهلين بــ(زُبــدةٍ)[3] و(بـيــانِ)[4]
ووســائــلٍ وجــواهــرٍ ورســائــلٍ ومـكــاسـبٍ وحــدائـقٍ ومـغــاني[5]
وبـقـيـة الـفـقـهـاء فـيـما قـدمـوا لـلـنـاس مـن عـلـمٍ ومـن عـرفـانِ
وخــلاصــة الـعـلـماء فـيـما أسـلـفـوا وخــلاصــة الـعـظـماء والأعــيــانِ
ومـراجـع الإسـلام .. بـين رجـاحـةٍ عـقـلاً .. وبـين الـثـقـل في المـيـزانِ
يـا اسرة المـجـد الاثـيـل تـقـدمي فالقطف مـن (نهـج الـفـقـاهـةِ) داني
وتمـسـكـي لله في (مـسـتـمـسـكٍ) لـلـعـروة الـوثـقـى بـغـير مــداني[6]

(١) الشرائع: كتاب شرائع الإسلام للمحقق الحلي، من أهم كتب التدريس للفقه الفتوائي في الحوزات العلمية.

(٢) الرواشح: للمحقق الداماد، وهو من أهم الكتب الفقهية.

(٣) زبدة البيان: للمقدس الأردبيلي، كتاب عظيم القدر في تفسير آيات الأحكام.

(٤) البيان في تفسير القرآن للإمام السيد أبي القاسم الخوئي.

(٥) سلسلة من كتب الفقه والأصول العليا على النحو الآتي:

وسائل الشيعة: للحر العاملي محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ)، دورة متكاملة في الحديث الشريف، وقد يُعد الكتاب الخامس مضافاً الى الكتب الأربعة.

جواهر الكلام: للشيخ الأكبر محمد حسن الجواهري النجفي (ت ١٢٦٦هـ)، من أهم الكتب الأستدلالية في الفقه الإمامي في عشرين مجلداً، وهو عدة الفقهاء والمجتهدين.

الرسائل: من أهم الكتب الأصولية، وهو المعبر عنه بفرائد الأصول، للأستاذ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصاري (ت ١٢٨١هـ).

المكاسب: دورة فقهيه مهمة في الفقه الأستدلالي من أهم الكتب في الفقه الأقتصادي للشيخ مرتضى الأنصاري نفسه.

الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة: للمحقق الكبير الشيخ يوسف البحراني.

(٦) نهج الفقاهة ومستمسك العروة الوثقى من اهم الكتب الاستدلالية في الفقه الامامي ، للامام السيد محسن الحكيم .

و(المحكم) العملاق في تقريره واشعة (المصباح) في الوجدانِ[1]
وبهدي سيدنا الفقيد وفكره درسا وتدريسا بغير تواني
لكم العزاء وللملا بمصيبةٍ دهياء .. قد ثقلت على الاذانِ
والى جموع المسلمين ..قصيدةٌ نظمت فرائدها يدا (سحبانِ)[2]

محمد حسين علي الصغير
النجف الاشرف
٣٠/ جمادي الأولى / ١٤٣٢هـ
٤/ مايس / ٢٠١١م

***

(١)المحكم في أصول الفقه ، مصباح المنهاج لاية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم .

(٢)سحبان : خطيب العرب المعرف ببلاغته الفريدة .

باسمه تعالى

المصادر والمراجع

١. آغا بزرك / الشيخ محمد محسن الطهراني.

- الذريعة الى تصانيف الشيعة / دار الكتاب العربي / بيروت / ١٣٩١هـ.

٢. آغا بزرك / نفسه.

- مصفى المقال / الطبعة الأولى / النجف الأشرف / ١٩٥٩م.

٣. إبن الجوزي / أبو الفرج / عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ).

- المنتظم / حيدر آباد / الطبعة الأولى / الهند / ١٣٥٩هـ.

٤. إبن حجر / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٩٧٣هـ) .

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.
- مطبعة المدني / القاهرة / ١٣٢٥هـ.

٥. إبن حجر / نفسه.

- لسان الميزان / مطبعة الأعلمي / بيروت / ١٤٠٦هـ.

٦. الأفندي / كاتب حلبي.

- رياض العلماء وحياض الفضلاء.

٧. إبن العماد الأصبهاني.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب / الطبعة المصرية القديمة.

٨. إبن طاووس / علي بن موسى بن جعفر (ت ٦٦٤هـ).

- فرحة الغري / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٣هـ.

٩. إبن طاووس / نفسه.

- منهج الدعوات / حجري / طبع النجف الأشرف / ١٣٢٣هـ.

١٠. البحراني / الفقيه يوسف بن أحمد (ت ١١٨٦هـ).

- لؤلؤة البحرين / تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم / مطبعة النعمان / النجف الأشرف / ١٩٦٩م.

١١. البراقي / السيد حسون البراقي النجفي.

- تأريخ الكوفة / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.

١٢. جعفر الخليلي / صاحب مجلة الهاتف النجفية.

- موسوعة العتبات المقدسة / قسم النجف الأشرف / طبعة بغداد.

١٣. جعفر الطباطبائي بحر العلوم.

- تحفة العالِم في شرح خطبة المعالم / مطبعة الغري / النجف الأشرف / ١٩٣٦م.

١٤. الحر العاملي / محمد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ).

- أمل الآمل / تحقيق السيد أحمد الحسيني / طبعة قم (د. ت).

١٥. الحر العاملي / نفسه:

- وسائل الشيعة / دار إحياء التراث العربي / بيروت / ١٣٩١هـ.

١٦. حسن الأسدي (معاصر).

- ثورة النجف / طبعة بغداد / ١٩٧٤م.

١٧. حسن الحكيم (الدكتور).

- موسوعة: المفصّل في تأريخ النجف الأشرف / المطبعة الحيدرية / قم.

١٨. حسن شبر (معاصر).

- تأريخ العراق السياسي المعاصر / دار التراث العربي / بيروت / ١٩٨٩م.

١٩. حسين أمين (الدكتور).

- تأريخ العراق في العصر السلجوقي / مطبعة الإرشاد / بغداد / ١٩٥٢م.

٢٠. حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ).

- دار السلام / المطبعة العلمية / قم المقدسة (د. ت).

٢١. حسين النوري الطبرسي / نفسه.

- مستدرك الوسائل / مؤسسة آل البيت لأحياء التراث / بيروت / ١٩٨٧م.

٢٢. الخوانساري / محمد باقر الموسوي (ت ١٣١٣هـ).

- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات.
- دار المعرفة / بيروت / ١٩٧٤م.

٢٣. شهاب الدين / أحمد بن محمد.

- ريحانة الألباء / مطبعة عيسى البابي الحلبي / القاهرة / ١٩٦٧م.

٢٤. الصدوق / محمد بن علي بن الحسين القمي (ت ٣٨١هـ).

- الآمالي / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٩م.

٢٥. ضياء الدخيلي (معاصر).

- تأريخ الحياة العلمية في جامعة النجف الأشرف.

مجلة الرسالة المصرية / العدد ٢٧١ / السنة السادسة / القاهرة / ١٣٥٧هـ.

٢٦. الطوسي / محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ).

- الآمالي / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف.

٢٧. الطوسي نفسه: أبو جعفر محمد بن الحسن.

- الخلاف / المطبعة الإسلامية / طهران / ١٣٧٠هـ.

٢٨. عباس محمد رضا القمي (ت ١٣٥٩هـ).

- الكنى والألقاب / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٨٩هـ.

٢٩. عباس محمد رضا القمي / نفسه.

- الفوائد الرضوية / طبعة أيران / ١٣٢٧هـ.

٣٠. عباس محمد رضا القمي / نفسه .

- هدية الأحباب / المطبعة المرتضوية / النجف الأشرف / ١٣٤٩هـ.

٣١. عبد الله فهد النفيسي (الدكتور) .

- دور الشيعة في تطور العراق السياسي .
- بيروت / دار النهار / ١٩٧٣م.

٣٢. عبد الله فياض (الدكتور) .

- الثورة العراقية الكبرى / طبعة بغداد / ١٩٦٦م.

٣٣. عبد الحليم الرهيمي (الدكتور) .

تأريخ الحركة الإسلامية في العراق / بيروت / ١٩٨٥م.

٣٤. عبد الرزاق الحسني البغدادي (مؤرخ العراق المعاصر) .

- العراق في دوري الأحتلال والأنتداب / صيدا / ١٩٣٥م.

٣٥. علي مكي العاملي (من علماء لبنان) .

- بساتين الشريعة والدين / الأعلمي للمطبوعات / بيروت / ١٤٣٥هـ.

٣٦. علي الوردي (الدكتور).

- لمحات إجتماعية من تأريخ العراق الحديث / طبعة بغداد.

٣٧. محمد باقر الصدر / إستشهد إعداماً في (٩/ ٤/ ١٩٨٠م).

- المعالم الجديدة للأصول / مطبعة النعمان / النجف الأشرف / ٨٥.

٣٨. محمد حرز الدين.

- معارف الرجال / تحقيق محمد حسين حرز الدين.

٣٩. محمد حسين علي الصغير (المؤلف) .

- أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف، مؤسسة البلاغ / الطبعة الثالثة / بيروت / ٢٠١١م.

٤٠. محمد حسين علي الصغير / نفسه.

- قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف، مؤسسة البلاغ / الطبعة الثالثة / بيروت / ١٤٣٢هـ.

٤١. محمد حسين علي الصغير / نفسه.

- هكذا رأيتهم / مؤسسة العارف / بيروت / الطبعة الأولى / ٢٠٠١م.

٤٢. محمد حسين علي الصغير / نفسه .

- ثورة النجف الأشرف ضد الإنكليز في الشعر النجفي المعاصر / الشبيبي أنموذجاً (بحث علمي) ألقي في عدة مؤتمرات.

٤٣. مصطفى النجار (الدكتور).

- التأريخ السياسي لأمارة عربستان / طبع القاهرة / ١٩٧١م.

٤٤. محمد رضا الشبيبي / علامة العراق / (ت ١٩٦٥م).

- الرماحية / بحث / مجلة لغة العرب / السنة الثالثة / ج٩.

٤٥. محمد رضا المظفر / مؤسس كلية الفقه في النجف الأشرف (ت ١٣٨٤هـ).

- مقدمة جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي (ت ١٢٦٦هـ)، تحقيق: الشيخ عباس القوجاني / دار الكتب الإسلامية / طهران / ١٣٩٢هـ.

٤٦. محمد رضا شمس الدين (معاصر).

- حديث الجامعة النجفية / المطبعة العلمية / النجف الأشرف / ١٣٧٣هـ.

٤٧. محمد علي كمال الدين / (معاصر).

- ثورة العشرين في ذكراها الخمسين / طبع بغداد / ١٩٧٠م.

٤٨. محمد علي كمال الدين / نفسه.

- معلومات ومشاهدات / بغداد / ١٩٦٤م.

٤٩. محمد علي اليعقوبي / عميد جمعية الرابطة الأدبية في النجف / (ت ١٩٦٥م).

- بحث عن: الشيخ أحمد الجزائري / مجلة العرفان / صيدا / ١٣٦٧هـ.

٥٠. المرجعية الشيعية وقضايا العالم الأسلامي.

- بحث / مجلة الموسم / العدد السادس / هولندا / ١٩٩٠م.

٥١. محمد كلانتر (رئيس جامعة النجف الأشرف الدينية).

- كلمة حول الشيخ الأنصاري / مقدمة المكاسب / طبعة المكتب الأسلامي / (د. ت).

٥٢. محمد هادي الأميني (الدكتور).

- معجم رجال الفكر في النجف الأشرف / طبعة بيروت / ١٩٩٩م.

٥٣. محسن الأمين الحسيني العاملي (كبير علماء سوريا ولبنان) (ت ١٩٥١).

- أعيان الشيعة / مطبعة الأنصاف / بيروت / ١٩٥٤م + دار التعارف / ١٤٠٣هـ.

٥٤. المفيد / الشيخ الأكبر أبو عبد الله / محمد بن محمد النعمان العكبري (ت ٤١٣هـ).

- الإرشاد / الطبعة الثانية / المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف / ١٣٩٢هـ.

٥٥. الكليني / شيخ الإسلام محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ).

- الكافي / دار الكتب الإسلامية / النجف الأشرف / ١٣٨٨هـ.

٥٦. كلية الفقه في النجف الأشرف:

- المؤتمر الأستذكاري لشيخ الفقهاء وأستاذ المراجع العظام.
- الشيخ حسين الحلي (ت ١٣٩٤هـ).
- إصدار كلية الفقه / مركز النجف الأشرف للثقافة والبحوث.
- النجف الأشرف / ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

***

المحتويات

كلمة المركز ٧

المقدّمة ٩

الباب الاول: شؤون المرجعية العليا في النجف ١٣

الفصل الاول: المرجعية عند الإمامية ١٥

أولاً: البداية الأولى ١٧

ثانياً: المرجع ذو هدف رسالي ١٩

ثالثاً: تعدّد المرجعية ٢٢

رابعاً: إدارة المرجعية ٢٣

خامساً: دعاوى سلبيّات المرجعيّة ٢٨

سادساً: نموذجية المرجعية الهادفة ٣٠

الفصل الثاني: تأسيس الكيان المرجعي في النجف الأشرف ٣٩

البداية الأولى للتأسيس ٤١

هجرة الشيخ الطوسي الى النجف الأشرف ٤٥

مهمّة الشيخ الطوسي في إعداد العلماء ٤٧

نجل الشيخ الطوسي يواصل المسيرة:........................ ٤٩

حفيد الشيخ الطوسي يتسلّم المرجعية:........................ ٥٢

الفصل الثالث: نضال المرجعيّة العليا في النجف الأشرف حتى القرن العشرين إنموذجاً........................ ٥٥

أوليّات........................ ٥٧

النضال العلمي........................ ٥٨

النضال السياسي........................ ٦٤

النضال العسكري ٧٧

عقباتْ في طريق المرجعية ٩١

الفصل الرابع: عقباتْ في طريق المرجعية ٩١

تمهيد........................ ٩٣

أولاً: المناخ السياسي ٩٤

ثانياً: الفقهاء الرسميوّن........................ ٩٧

ثالثاً: المَرَدَةُ المتطرّفون ٩٩

اقتراحاتْ على المرجعية ١٠٥

الفصل الخامس: قضايا الإعلام ١٠٧

الاول: التصدّي للإعلام المضاد........ ١٠٨

الثاني: الإعلام الإيجابي ١١٠

هيئة الرقابة المالية........ ١١٤

مؤسّسة النشر والطباعة والتوزيع ١١٦

الباب الثاني:عصور المرجعية العليا في النجف الأشرف ١٢١

الفصل الاول: إستمرارية مدرسة النجف الأشرف في العطاء حتى نهاية القرن العاشر الهجري ١٢٣

علماء القرن السابع الهجري ١٢٥

تصاعد الإمداد المرجعي في النجف الأشرف ١٣٩

في القرن الحادي عشر الهجري ١٣٩

الفصل الثاني: الأعلام ١٤١

الأسر العلمية في النجف خلال القرن الحادي عشر ١٦٠

أسرة آل الحكيم الطباطبائي........ ١٦١

أسرة آل البلاغي ١٦٢

أسرة آل الجزائري: ١٦٣

أسرة آل الطريحي: ١٦٥

أسرة آل أبي جامع: ١٦٧

أسرة آل الخمايسي: ١٦٩

أسرة آل الخرسان: ١٧٠

مرجعيّة النجف الأشرف بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر ١٧٥

الفصل الثالث: أعلام القرن الثاني عشر ١٧٧

عصر السيد بحر العلوم والقرن الثالث عشر الهجري ١٨٤

مرجعية الشيخ الأكبر صاحب (جواهر الكلام) ١٨٨

مؤلفاته وآثاره: ١٩٣

مآثرة : ١٩٤

مرجعية الأستاذ الأعظم مرتضى الأنصاري ١٩٧

مغادرته الى النجف: ١٩٩

تلامذته: ٢٠٢

وفاة الشيخ الأنصاري: ٢٠٤

مرجعية الشيخ راضي النجفي ٢٠٥

عمالقة المرجعية العليا في النجف الأشرف في القرن الرابع عشر الهجري.......... ٢٠٩

الفصل الرابع: عمالقة المرجعية العليا في النجف الأشرف في القرن الرابع عشر الهج ري ٢٠٩

بين يدي هذا الفصل ٢١١

مرجعية المجدد الميرزا محمد حسن الشيرازي ٢١٣

مرجعية زعيم الأحرار الأخوند الخراساني........................ ٢١٧

مرجعية السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي (ت ١٣٣٧هـ) ٢٢٠

مرجعية الشيخ محمد طه آل نجف........................ ٢٢٣

أساتيذه: ٢٢٤

مرجعية شيخ الشريعة الأصفهاني........................ ٢٢٧

مرجعية أستاذ المجتهدين الشيخ محمد حسين النائيني ٢٢٩

الآية الكبرى الشيخ أغا ضياء الدين العراقي (ت١٣٦١هـ)........................ ٢٣٠

الفيلسوف المتألّه الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهاني الكاظمي النجفي (ت١٣٦١هـ)........................ ٢٣١

مرجعية زعيم الأمة، ونائب الأئمة، السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني النجفي (ت ١٣٦٥هـ)........................ ٢٣١

مرجعية الشيخ محمد رضا آل ياسين........................ ٢٣٢

مرجعية الإمام محمد الحسين كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ) ٢٣٤

مرجعيّة الإمام السيد حسين الموسوي الحمامي (ت١٣٧٩هـ) ٢٣٦

مرجعيّة الإمام الشيخ عبد الكريم آل الشيخ أحمد الجزائري (ت ١٣٨٠هـ) ٢٣٨

مرجعيّة الإمام السيد عبد الهادي الحسيني الشيرازي (ت١٣٨٢هـ) ٢٤٠
مرجعيّة الإمام الأكبر السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠هـ) ٢٤٣
مرجعية الإمام السيد محمود الحسيني الشاهرودي (ت ١٣٩٤هـ) ٢٥٢
آية الله العظمى الشيخ حسين الحلّي النجفي ٢٥٤
مرجعية الإمام الخميني في النجف الأشرف ٢٥٨
مرجعية الأستاذ الإمام الخوئي ٢٦٥
صدى المرجعية العليا في قصائد مختارة للمؤلف ٢٦٩
الفصل الخامس: الشَّيْخُ المُفيد في ذكراهُ الألفية ٢٧١
في رثاء الإمام الحكيم ٢٧٦
في أربعينية الإمام الحكيم ٢٨٠
السيد السيستاني في شعر المؤلف ٣٠٣
المدرسة العلوية ٣١٢
في رثاء آية الله السيد محمد علي الحكيم ٣١٤
الآية الكبرى السيد محمد علي الحكيم ٣١٦
المصادر والمراجع ٣٢٥